شفاء الصدور

بتفسير سورة النور

تأليف

إبراهيم الجبالي

المدرس بكلية أصول الدين

الطبعة الأولى

سنة ١٣٥٥ هـ ١٩٣٦ م

طبع بمطبعة الأرشاد لصاحبها (أمين عبد الرحمن الجزيرى)

شفاء الصدور

بتفسير سورة النور

تأليف

إبراهيم الجبالي

المدرس بكلية أصول الدين

الطبعة الأولى

سنة ١٣٥٥ هـ ١٩٣٦ م

طبع بمطبعة الأرشاد لصاحبها (أمين عبد الرحمن الجزيرى)

فهرس كتاب

شفاء الصدور — بتفسير سورة النور

صفحة

صفحة

صفحة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ، وأرسل رسوله محمداً بالهدى ودين الحق ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ، وأيده بالكتاب الكريم تبياناً لكل شيء وشفاء لما فى الصدور . صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه ما تعاقبت ظلمة ونور

أما بعد فقد ورد مجلة نور الاسلام (مجلة الأزهر) — وأنا من الكاتبين فيها — سؤال عن تفسير قوله تعالى : « الله نور السموات والأرض » الآية فعُهد إلى بالاجابة عنه . فنظرت وإذا الآية فى سورة النور معقبة لآيات تتعلق بتنظيم الحياة المنزلية ، وتصون روابط الأسرة ، وتحفظ أواصر القرابة ، وتبين الحقوق والواجبات فى المعاشرة ، والاختلاط بين الجنسين الرجال والنساء ، وذلك كله دواء شاف وعلاج ناجع لما أصابنا فى هذه الآونة من أمراض فى هيئتنا الاجتماعية ، حلت روابطنا ، وفككت عرانا . فحدانى ذلك إلى الشروع فى تفسير السورة بتمامها مما يصل بى إلى تفسير الآية الكريمة المسئول عنها (الله نور السموات والأرض) . ولم أر فى ذلك إبعاداً مؤلماً للسائل ، فما ابتعدت قليلا عن طلبته إلا إكمالا لفائدته وفائدة القارئين وفائدتنا معهم إن شاء الله تعالى .

ولقد نشرت المجلة ذلك التفسير فى أعدادها تباعا . وقد كنت بذلت فى تحصيله — يعلم الله — جهد المستطاع . فلخصت زبدة مااخترته من كلام أئمة التفسير ؛ وضممت اليه ما فتح الله عليّ به أثناء التدبر فى آيات الذكر الحكيم: مما انشرح له صدرى؛ وراق فى نظرى؛ وهذبه فكرى؛ وصغت ذلك كله فى قالب يناسب ذوق أهل عصرى ؛ وخصصت بالبسط والاسهاب مواضع لها أكبر مساس بحياتنا الاجتماعية؛ وتداوى أمراضنا الخلقية ؛ وتهذب عاداتنا القومية ؛ وتعدل اعوجاجا سرى فى طبقاتنا المختلفة فانحلت به روابط الأمة المؤتلفة ؛ فأصابنا التخاذل والتدابر ؛ وأصبح شعارنا الشكوى والتلاوم ؛ وضعف فيما بيننا أداء ذلك الواجب الذى كنا به خير أمة أخرجت للناس ؛ وهو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . ولا حول ولا قوة إلا بالله !

ولقد صرفت ما استطعت من قوتى فى إمحاض النصح لأمتى ؛ وبذلت ميسورى لمرضاة ربى وإراحة ضميرى ؛ ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها

ولقد رأيت لذلك بعد نشره حسن قبول لدى المنصفين ؛ وكبير تشجيع لى على الدأب فى هذا الأسلوب الرزين الرصين ؛ واتجهت إلىّ رغبات كثيرة وأسئلة متوالية من أهل الفضل الذين حسنوا بى الظن ؛ ممن سبقت لى بهم معرفة ولقيا ؛ ومن عُقدت صلتى بهم على غير تلاق لاشتراكنا فى خدمة العلم والدين — والعلم رحم بين أهله . رغبوا إلى أن أجمع متفرق هذه الكلمات فى كتاب واحد يجمع شتاتها ويضم شملها وينظم لآلئها — ونظم اللآلى يجلو زينتها ؛ بل قد يزيد من قيمتها — فرأيت ذلك أصون لها

وأعون على الانتفاع بها ، ورجوت من الله أن يكون لى من وراء ذلك نفع في ديني وزلفى إلى ربى . فاعتمدت عليه وعزمت على نشرها مجموعة بين يدى القراء ، سائلا المولى القدير أن يجعلها من عمل الخير ، يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً ، وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا وسميتها «شفاء الصدور بتفسير سورة النور»

اللهم إنا نرجو رحمتك ، ونخاف عذابك . ونحذر بطشك . اللهم إن التوفيق منك والمرجع إليك ، ولا إله غيرك ولا خير إلا خيرك : فوفقنا لما تحبه وترضاه ، وانفع بها كل من طالعها ، وانفعنى بها في ديني ودنياى وعاقبة أمرى ، إنك على كل شيء قدير !

سورة النور

هي السورة الرابعةوالعشرون وآيها ثنتان وستون
وقيل أربع وستون وهي مدنية إجماعا . واستثنى بعضهم آية :

« يـٰأيها الذين ءامنوا ليستـئذنكم الذين ملكت
أيمنكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم »

والاكثر على أنها مدنية أيضا

(بسم الله الرحمن الرحيم)

البسملة لقد كثر الكلام في تفسير البسملة حتى أفردها بعض الأفاضل بمؤلفات قائمة بذاتها واقفة عند حدها . ولست بصدد الافاضة والاطالة بسرد النقول المتعارفة لدى الجمهور ، ولكني أجتزىء بأقرب حدود الفائدة ، سهلها الله لنا ، ويسر لناسبلها :

(بسم الله) الباء هنا للاستعانة ، وليست هي الباء التي تسمى باء الآلة مثل التي تذكر في قولك : كتبت بالقلم أوقطعت بالسكين ، فان معناها في المثالين المذكورين مقصور على أن مدخولها كالمتمم أو الشرط لما تعلقت به من الأفعال . وإنما هي لتبيين المستمد الأول والمنشأ الحقيقي للفعل الذى تعلقت به ، فهي بمثابة الباء التي تسمعها

فى الاستعمالات التى من هذا القبيل — تسمع مثلا بعض القضاة حين ينطق بالحكم يقول : «باسم الملك حكمت المحكمة بكذا » ، ومعناه أن القاضى كأنه يقول : إنى بحسب شخصى لا أملك على هؤلاء الخصوم نفيا ولا إثباتا ، فإذا سُلطت عليهم ومكّنت منهم فذلك إنما هو مستمد من صاحب السلطة العليا ، وإذا خضعوا لى فإنما قد خضعوا لها ، فالقوة التى مكنت بها من إصدار هذا الحكم إنما هى هذه الجهة . ومثلها يقول بعض الحكام لمن رأى منه إجراما : «باسم القانون أقبض عليك». معناه : إنى فى سلطتى وهيمنتى عليك ووجوب خضوعك لى أستمد قوة من جهة لا قبل لك بمعارضتها والخروج عليها ، فهى الجهة التى لا تناوأ ، ومصدر الهيمنة التى يجب الخضوع أمامها ، وتسليم القياد لمن التجأ اليها .

على هذا النحو نفهم معنى الباء فى قول المبتدىء فى أمر من الأمور : «باسم الله» : فمعناه ، أشرع فى عملى مستمدا القوة والتأييد للنفوذ فيه وإتمامه حسبما أريد من مصدر جميع القوى وواهب كل القُدَر ، ومسخر جميع العوالم ، ومدبر كل الأمور ، فأنا نافذ فى فعلى بقدرة لا قبل لأحد بمعارضتها ولا الوقوف فى وجهها . كيف وأنا أعمل عملى باسم الله واهب القوى والقدر ، ومسخر الشمس والقمر ، والمهيمن على جميع البشر ؟ أرأيت كيف تكون هذه البداءة شادّة من عزم صاحبها ، مثبتة من إرادته ، مؤيدة لقوته . فهذا من حكمة طلب الشارع البدء بها فى كل أمر خطير ذى بال .

ولعلك ترى أن هذا المعنى الذى شرحناه لا يتأدى باستعمال الباء إلا إذا اقترنت

بلفظ الاسم ، وأننا إذا أتينا بالباء بدون ذكر الاسم عقبها لا تفيد هذا المعنى الذى نشير اليه . واعتبر إن شئت أمثال هذه العبارات : « تجبى الأموال باسم فلان » « تجمع التبرعات باسم فقراء المدينة » « تجمع الاكتتابات باسم الجمعية الخيرية » : فانك تجد المعنى فيها وفى أمثالها على ماشرحناه لك . ولا تتوهم أن معنى الباء هنا هو معنى اللام فى قولك إنها تجمع للفقراء أو للجمعية ، كلا فان اللام يشار بها الى الغاية التى يقصد العمل من أجلها . وأما الباء فانها تشير الى أنه يستمد القوة فى مطالبته ، من تلك الجهة التى لها فى النفوس أثر خاص ، ولولاها مااستطاع أن يدور جهارا على الناس يستجديهم و يستندى أكفهم . فقد كان له من الحياء ما يمنعه أن يعرض وجهه على الناس بهذه الصورة ، إذ لولا أنه يجمع باسم الفقراء ويستمد القوة فى المطالبة من الاستناد اليهم وأنه بصدد معونتهم ، ما كان له أن يتصدى للطلب من هؤلاء العظماء وما كان ليؤبه له أو يلتفت الى طلبه .

أرأيت أن زيادة لفظ (اسم) تفيد معنى لا يستفاد إذا لم تكن هذه الزيادة ؟ وعلى ذلك لا يكون هنا محل للقول إن الاستعانة بالذات لا بالاسم فكيف يقال : باسم الله ، ولم لم يقل بالله . ولا حاجة أيضا الى البحث فى أن الاسم عين المسمى أو غيره ، فكل ذلك بمعزل عما يقصد فى مثل هذا التركيب ، فان الغرض من ذكر الاسم فى مثل هذا هو الرجوع بالذهن إلى ما وقر فى نفوس السامعين من تمجيد واحترام وقوة ورهبة لصاحب هذا الاسم . وكأن لفظ الاسم الغرض منــه تحضير المسمى فى نفس السامع بكل ما يتصل به من معانى التبجيل والتعظيم .

ولفظ الجلالة اسم للذات الأقدس الجامع لكل صفات الكمال: من صفات تنزيه وصفات تمجيد. فهو مشعر بالعظمة والقدرة والسلطان، والقوة العظمى التي لا تجاريها قوة ولا تعارضها قوة. فلا غرو أن اختير من بين أسمائه الحسنى للبدء به استمداداً للقوة والتأييد.

واختيار اسمي (الرحمن الرحيم) بعده لأن المستعين يطلب العون من القوي المتين استرحاماً لا استحقاقاً، فهو ينادي بلسان حاله: إني أطلب العون وأستمد القوة والحول والطول من باب الاسترحام. وهو الرحمن الرحيم الذي لا يضن على من استرحمه برحمته.

وأما هاتان الصيغتان (رحمن) (رحيم) فقد كثر الكلام في بيان الفرق بينهما، واشتهر أن معنى الرحمن المنعم بالنعم الجليلة العظمى: كنعمة الوجود والايمان والتكريم وأمثال ذلك. والرحيم المنعم بالنعم الدقيقة التي تعتبر كالتتميم للأولى: كتيسير عمل جزئي، وتتميم حالة فرعية مما يتساهل في أمره. وعلى ذلك يكون ذكر الرحيم بعد ذكر الرحمن من باب التتميم، ويكون البدء بالأهم ثم يكمل بما يفيد الاستغراق لكل النعم. وأنه مصدر جميع النعم ما جل منها وما قل. وهو معنى حسن وإن كان يلوح أن أحسن منه أن يرجع في تفسير هاتين الصيغتين الى ما كثرت إرادته والاشارة اليه في استعمالاتهما.

إن هاتين الصيغتين (فعلان وفعيل) من صيغ الصفة المشبهة، أي أنهما يدلان على الذات باعتبار ثبوت وصف لها وقيامه بها، وهذا معنى غير ما تفيده صيغة فاعل، وهو إيجاد الفعل وإحداثه. إلا أن بين الصيغتين فرقا

يظهر من تتبع استعمالهما: فنجد لفظ فعلان يدل على ذات اتصفت بوصف يبدو عليها آثاره ؛ مثل قولك فرحان وغضبان وسكران وتعبان وأمثالها ؛ وصيغة فعيل تدل على الذات المتصفة بوصف قد تأصل فيها تأصل الملكات الراسخة ، مثل كلمة كريم وبخيل وشحيح وشريف ونبيل ؛ فانك تعبر بكريم مشيرا الى تأصل صفة الكرم فيه ورسوخها فى نفسه بقطع النظر عن كونه يعطى الآن أو لا يعطى ، ومثلها بخيل وشحيح ؛ حتى لقد يتبرع الشخص أمامك بشىء له خطر وتقول إنه رغما عن ذلك هو شحيح بخيل وإنما يتبرع لغرض فى النفس ظهر أو لم يظهر ؛ فى حين أن آخر لم يتبرع وتقول إنه مع هـذا كريم وربما منعه مانع من التبرع كضيق ذات يده أو اشمئزازه من الأسلوب الذى يستعطى به أو ماماثل ذلك ؛ ولكنك لا تشير بكلمة فرحان أو غضبان الى شخص سجيته الفرح أو الغضب ، ألا ترى الفرق بين قولك غضبان وغضوب مثلا ؟ ألا ترى أنك تقول إنه غضبان مع أنه ليس بغضوب ، أو إنه ليس بغضبان مع أنه غضوب ، فلابد لذلك من سبب ؟ وما ماثل ذلك ، تريد أنه تبدو عليه آثار الغضب وليست ملكة الغضب متأصلة فيه ، وفعول وفعيل أخوان .

إذا عرفنا هذا استطعنا أن ننزل عليه ما نفهمه من صيغتى رحمن ورحيم ؛ فيكون معنى رحمن من تتجلى آثار رحمته وتبدو للعالم مظاهرها فى كل أنحاء الوجود ؛ فهو الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى ، وهو رب العالمين ؛ يتعهد الجميع بآثار إحسانه وفضله . ومعنى رحيم من كانت الرحمة فيه متأصلة راسخة ؛ لا من تكون الرحمة فيه معتملة متكلفة ، ويكون

البدء بالرحمن لأنه دال على مظاهر الرحمة التى تبدو فتعرفها النفوس، ثم يستدل بها وبتكررها على أن الاحسان والرحمة ثابتة راسخة كثبوت الملكات الراسخة فى النفوس ؛ ولله المثل الأعلى، والافهو لايشبه شيئا ولايشبهه شىء ؛ ولا يعبر فى جانبه بالملكات ،ولكنه التقريب فى التمثيل للشرح والتوضيح؛ويكون تقديم الرحمن على الرحيم من باب تقديم الدليل على النتيجة ؛ فان ظهور الآثار على كثرة واطراد ، دليل على تأصل الوصف عند صاحبه. ثم يكون اختيار وصفى الرحمة فى البداءة — على ماسبق تقريره — لتربية معنى التعلق النفسى بالمعونة الالهية ؛ وأن يرجوها بمقدار مايلاحظ رحمته عز وجل ، فيكون ذلك أشحذ لهمته، وأمضى لعزيمته، وأرجى أن يمد بالعون منه جل جلاله حتى يبلغ عمله كماله المطلوب له .

(سورة أنزلنـها وفرضنـها وأنزلنا فيهاءايت بينت لعلكم تذكرون):

السورة جملة من القرآن الكريم مستقلة بذاتها، ذات بداية ونهاية معلومتين شرعا بالتوقيف. وهى تشتمل على آيات أقلها ثلاث. وأصل تسميتها من السور وهو البناء الذى يحيط بالمدينة. لأنها تحيط بالآى المشتملة هى عليها إحاطة تحـددها ولا تدع بابا للزيادة عليها ولا للنقص عنها. أو من السورة بمعنى المنزلة والمرتبة. فان كل سورة من القرآن من قرأها وفهمها حق فهمها فقد وصل إلى منزلة من العلم ومرتبة حقه أن يعنى بهـا ويغتبط باحرازها. وكلا الوجهين فيه حكمة لتقسيم القرآن سوراً، فان القارىء إذا حفظ جملة مستقلة بمبدئها ونهايتهـا حق له أن يستريح إلى ماأحرز ويبتهج بما نال، إذ تم جملة صالحة للوقوف عندها قد جعل لها الشارع معنى مستقلا عما قبلها وما بعدها. وللنفوس عادة استراحة حين وصولها إلى تمام شىء تعالجه وإن كان سيليه آخر من نوعه، كالمسافر يقطع مرحلة فيتنفس بالراحة ثم يستأنف السفر بنشاط جديد. وكذلك تسر النفس إذ تشعر أنها أحرزت منزلة خاصة، وحازت مرتبة معينة من الفضائل والفوائد والأحكام قد جعل لها الشارع قيمة معينة بما جمع من أحكامها وآيها فى نسق واحد. فكل من حاز مرتبة منها فقد أحرز شيئاً كاملا يبعث سروره ويوجب غبطته.

والانزال الوحى من الله تعالى إلى نبيه، على لسان جبريل أو بدونه

كما قال جل شأنه : (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب ، أو يرسل رسولا). والتعبير بالانزال أو بالتنزيل ، لأن مصدر هذا الوحي هو العلي الأعلى ، فكل ما سواه فهو نازل . ومعلوم أن العلو هو العلو الرتبي ، إذ ليس للبارى جل وعلا مكان ولا جهة ، أو لأن الملك الذى ينزل به ينزل من جهة السماء ، وهو من الملأ الأعلى . وذلك علو حسى . ومعنوى أيضاً ، باعتبار علو منزلة الملائكة عامة على الانسان فى الجملة ، وذلك لا ينافى أن محمداً صلى الله عليه وسلم أفضل الخلق على الاطلاق

والفرض الحز فى الشيء والقطع غير المستأصل ، ومنه قيل لموضع القوس من الوتر فرض ، سمى به الأمر الجازم لما فى الحزم من الثبات وعدم المحو ، ومنه جاء قوله تعالى فى بيان الجزم فى الأمر : (فاصدع بما تؤمر) أى بلغ ما أوحى اليك بلاغا جازما مؤثراً أثراً ثابتاً لا يمحى كالصدع فى الزجاج ، وعلى كل حال فمعنى القطع فى تحتيم الأمر مستفيض بأى لفظ ورد كالبت والجزم . والآيات جمع آية . وهى فى الأصل العلامة والأمارة ، تقول : آية ما بينى وبينك أن أشير بكذا أو أرسل كذا ، وأكثر استعمالها فى الشئون ذات الخطر . فهى بهذا تفارق السمة والعلامة ، وتطلق على العبرة لأنها علامة ودليل على عظمة قدرة الخالق وعلو سلطانه وقهره ، وإطلاقها على الجملة من القرآن الكريم ، لأنها بما احتوت عليه من إعجاز أو حكمة بالغة أو خبر عن غيب أو ما ماثل ذلك ، علامة على صدقه صلى الله عليه وسلم فى أنه إنما يبلغ عن ربه.

والبينات جمع بينة ، من بان بمعنى اتضح ، ووضوحها إما فى ذاتها

وإما في دلالتها على ما قصد منها وما أقيمت شاهداً على صحته ؛ ومنه البينة بمعنى الشهادة ؛ لأنها واضحة الدلالة على صدق ما قامت عليه .

و(لعل) في أصلها للترجي ؛ وهو توقع أمر مرغوب فيه . أو للترقب وهو توقع أمر مخوف مكروه. وهذا المعنى محال في حقه جل شأنه ؛ فتحمل في كلامه عز وجل على التعليل ؛ أي أن ما بعدها علة لما قبلها ، فهي كاللام التعليلية ؛ إلا أنه يفرق بين مواقعها ومواقع اللام ، بأن اللام وكي وأمثالهما تقع في القرآن العزيز وفي بليغ الكلام لبيان العلة المؤدية إلى المعلول حتما ، وأما لعل وعسى فإنهما للعلية بمعنى التهيئة للحكم المعلل بهما وتيسير أسبابه ؛ ويبقى لتحققه توجه المخاطب أو اختيار من تعلق به الحكم . ومحصل ذلك أن التعليل باللام يكون في العلة المكتفية بنفسها ، والتعليل بعسى ولعل للعلة المتوقفة على اختيار المختار ، وقد تستعملان بمعنى الترجية ، أي حمل المكلفين على الترجي ، كقوله تعالى (عسى ربكم أن يرحمكم) والتذكر معناه استحضار معلومات كامنة في النفس غائبة عنها

بدأ جل شأنه هذه السورة الكريمة بما هو متحقق في كل سورة ؛ وهو (سورة أنزلناها وفرضناها وأنزلنا فيها آيات بينات) فما من سورة من سور القرآن الكريم إلا وهي سورة أنزلها جل شأنه وفرضها على عباده ؛ فرض الاذعان لها والتصديق بما فيها ، والعمل بما احتوت عليه من أحكام إن كانت من سور الأحكام ؛ واعتقاد أنها من عند الله ، وأنزل فيها آيات بينات ، وإنما اختص هذه السورة بهذه البداءة لتربية الانتباه

فى نفس سامعها . والتفطن لما سيلقى عليه فيها ، تنويها بشأنه وتعظيما له ؛ مثل ذلك — ولله المثل الأعلى — مثل أن تقول لمخاطبك فى أمر تعنى به فضل عناية وتهتم به عظيم اهتمام، تقول له : « كلمة أقولها لك » أو « موضوع ألقيه اليك » أو « مسألة عرفتها لك » وما من كلام تحدث به مخاطبك إلا وهو من هذا القبيل ، وإنما تريد بذلك أن تسترعى انتباهه وتوجه اهتمامه . وكذلك إذا تحدثت إلى عظيم فى شئون شتى ثم أردت أن تعرض لأمر أنت به جد مهتم فتقول له « كلمة أريد أن أقولها » فانك ترى منه حينئذ مايدل على أنه أعطاك إصغاء خاصاً ، فتقولها وأنت واثق من إحرازها سمعه وانتباهه.

وإنما عنى فى هذه السورة بذلك لأنها جاءت فى شأن من أخطر شئون الحياة : وهو صون الحياة المنزلية مما يتهددها من أخطار الأمراض ، وتنظيم الخلطة بين الناس على وجه يكفل الخير ويبعد عن الشر ، فقد تضمنت حكم من لم يحفظ فرجه من زانية وزان . ومن هذا يظهر سر مناسبة هذه السورة لسورة (قد أفلح المؤمنون) التى فيها قوله تعالى : (والذين هم لفروجهم حافظون) فكأنها عود على بدء ؛ وإن بيان شأن الفروج وأحكامها ، وما يجب أن يراعى فى حفظها ويحتاط به لصونها بيانا شافيا وافيا ، لأمر هو من أخطر أمور الحياة وأشدها تعلقا بنظامها ودوام سعادتها . ثم بين ما يجب للأبضاع من الحرمة والصون : حتى عن أن تنال بقذف بالكلام ، ورتب الأحكام الشديدة على القذف ، وساق قصة الافك ببسط الآداب والأحكام المتصلة بتلك القصة ، تنبيها على عظم خطره . وتلا

ذلك الأمر بغض البصر وصون الأجسام عن التبذل والتكشف. وأمر النساء بالاحتشام والتستر. وكل ذلك من توسيع الحمى الذى تجب صيانته فى سبيل صون الفروج وحفظها. ثم الأمر بالاستئذان حذراً من مفاجأة النظر لما لا ينبغى أن يطلع عليه. ثم الأمر بالانكاح. وأمر من لم يقدر بالاستعفاف. والنهى عن إكراه الفتيات على البغاء. وهكذا من الارشادات التى لا تستقر السعادة فى منزل لم يكن مستمسكا بها أتم استمساك. وجاء بعد ذلك وما يتعلق به قوله جل شأنه: (الله نور السموت والأرض) على ما يتضح وجه الجمال فيه إن شاء الله تعالى

الزنا

ومما يزيد أحكام هذه السورة عناية فوق ما تقدم أنها تعالج مرضاً قوياً الاستحكام فى النفوس؛ قوى التأثير فيها. قوى المأخذ والأسباب المؤدية إليه؛ وذلك هو طغيان القوة الشهوية فى الانسان حتى تخرج به عن الحد الذى رسمه لها العليم الحكيم؛ وحسبك من قوة هذا الشر أنه شر يتعاون فيه نفسان على نفس كل منهما لتفسدا عليه عقله ودينه. فالرجل مثلا يداعب المرأة ويخاتلها حتى يسلب منها عفافها ويعبث بصيانتها وعصمتها. ونفس المرأة وما جبلت عليه من شهوة مستحكمة فيها تساعد ذلك الرجل الصائل على نفسها، لأنها هى تشاركه فى هذا الأرب؛ فتتعاون نفسها ونفسه الشريرتان على ما فيها من عاطفة خير من حياء أو دين؛ أو حمية لعرض أو أسرة؛ وعاملان ضعيفان يغلبان قويا؛ فما بالك برغبتين قويتى الحياة واليقظة يتسلطان على عامل الحياء أو الدين الذى يضعف رويداً رويداً؛ حتى يتوارى ويستنيم مغلوبا على

أمره : لكثرة المداعبات أو المخاتلات التي كل مرة منها تترك في النفس أثراً سيئاً يبعدها عن الخير ويقربها إلى الشر . وكما تقول في مداعبة الرجل للمرأة حتى يغلبها على نفسها تقول في مشاغلة النساء للرجال بالتعرض والتبرج ، والصد تارة والدنو أخرى من وسائل الشيطان وحبائله . ولا تنس خطرات الشيطان بينهما وسفارته لهما حتى يحيك الشرك ويقتنص الفريسة بل الفريستين ، بما يلقيه في روعهما من تسهيل الخطر واغتنام الفرص ؛ وهكذا تغفل النفس عن دينها وأدبها وربها. وهنا يجيء قوله صلى الله عليه وسلم : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن » أي أنه لا يمكن أن يكون حاضر الايمان مستحضراً لما يعتقده من عقيدة راسخة في نفسه ؛ فلو أنها حضرت في ذهنه حينئذ لاستحال أن يقترب من تلك المعصية ؛ فانه حينئذ لو لم يمنعه الخوف من العقاب ، لمنعه الحياء من عالي الجناب .

وانظر تعجيب الحريري في قوله : « تستحي من مملوكك، وأنت بمرأى مليكك ! » فهل تظن أن الرجل الذي يستخزي حين يطلع خادمه على خمشه ؛ وتضيع رغبته المستحكمة لسماع صوت يخشى أن يكشف سره ولو لم يملك شيئاً من أمره — أتراه يستحضر في ذهنه أن الله مطلع عليه يعلم سره وعلانيته ؛ ولا يخفى عليه منه شيء ؟ أليس هذا غافلا إلى درجة تشبه الانكار عن علم ربه وقدرته ؟ حكى أن رجلا عثر بامرأة فامتنعت عليه : فقال . ماذا تخشين ولا أحد يرانا سوى الكواكب ؟ فقالت : فأين مكوكبها ؟! فكاد يصعق ، وفر هارباً منها ، ألا يعطيك

هذا معنى واضحاً لحديث « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن » ؟

هذا فى قوة داعية الزنا وعوامل اقتحام هذا الحمى المصون . أما آثاره السيئة ونتائجه المقوتة فأكثر من أن تحصى ؛ وأظهر من أن تشرح . وناهيك بجريمة يرتكبها صاحبها وهو جذلان مسرور ، بينما يجنى على نفسه باغضاب ربه وتعرضه لشديد عقابه ؛ وعلى خليلته بهتك عرضها وتعريضها لاقتراف كبيرة وهى لاهية مسرورة ؛ وتدنيس شرف أسرتها وإلحاق العار بأهلها ولم يقترفوا من جرمها شيئاً ، ثم الجناية على الجنين الذى قد يولد بينهما فيعرض للقتل وهو الغالب ، أو الضياع والنفرة منه ؛ والعار الملازم واحتقار كل من عرفه ؛ أو الجناية على بعلها إن كان لها بعل ؛ وعلى أولاده باقحام شخص غريب بينهم يشاركهم بلا حق فى رزقهم وشرفهم واسمهم وكل خواصهم . ثم يتبع ذلك آثار وأحكام لا يعلمها الا علام الغيوب . فاذا نظرت الى الاضرار الصحية وما أثبته الطب من مضار الزنا مما أفردت له التآليف ، تبين لك الضرر مجسما

وبعد فان هذا الأمر المقوت متى وقع فيه شخص مرة استمرأه وأحب التنقل فيه ، فلا يزال يحيك شراكه لايقاع الأبرياء فى وهدته حتى يتفاقم الشر ويتزايد الضرر ، وكلما جاء عامل جديد فتح به باب من الشر جديد ؛

هـذا شىء من نتائجه السيئة ، وذاك شىء من عوامله ودواعيه القوية . فهل يستغرب أن يكون الأسلوب فى علاجه هو أن تجمع

الأذهان وتسترعى النفوس لما يلق عليها فى شأنه من الأحكام المفصلة والآيات البينات لعلكم تذكرون؟ أجل :إن ذكر الأحكام الزاجرة على الوجه التفصيلى ، وتنويع الأساليب المنبهة لما فيه من مزالق للنفوس الغافلة ؛ ومسالك للشيطان والأهواء ؛ مدعاة للذكرى ؛ وإن الذكرى تنفع المؤمنين

وقد قرىء فرضناها بالتشديد ؛ إما على معنى فصلنا فرائضها تفصيلا يعين على الذكرى ، وإما على معنى أكثرنا فيها من الفرائض والأحكام ؛ أو لكثرة المفروض عليهم بكثرة الأحوال التى تمس هذه الأحكام وتتعلق بها ، وهى أحوال لاتكاد تخلو أسرة بل فرد منها ومن التعرض لها . وقولنا : «يعين على الذكرى » يوضح لك التعليل فى لعل ، وأنه غير التعليل باللام وكى ونحوهما.

حد الزنا

قال تعالى : « الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ» :

الزنا : الفجور المنكر . ولا نقول الفجور المعروف، فهو أبعد ما يكون عن المعروف . ويعرفه الفقهاء بأنه الايلاج فى القبل أو التمكين منه سواء أحصل من الرجل أو المرأة ؛ فكل من المولج والممكّن يسمى زانياً . والجلد : الضرب ، وأصله إصابة الجلد واستعمل فى مطلق الضرب

أصاب الجلد أو كان على حائل ، بشرط ألا يمنع الألم . وقيل : الجلد الضرب بالجلد كسوط ونحوه . والأخذ الحيازة . والرأفة الشفقة والتلطف فى المعاملة ورقة القلب ، أو هى أبلغ الرحمة التى هى رقة القلب . ومعنى هذا التعبير التحذير من أن تؤثر الرأفة فى العزيمة فتصرف الشخص عما صمم عليه . وأصل ذلك أن الآخذ يستولى على المأخوذ وينطلق تصرفه فيه حسبما يريد ، فكأن الرأفة اذا أثرت فيه على وفق مقتضاها وصرفت عزيمته عن وجهتها تكون قد استولت عليه وأخذته ، ومثل ذلك : لا تأخذه فى الله لومة لائم . أى أن اللوم لا يؤثر فيه ولا يتصرف فى إرادته كما يتصرف الحائز فيما يحوزه . وهو من أبلغ الأساليب فى التعبير

وقوله تعالى : « إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر » من باب إلهاب الحمية واستنهاض العزيمة ، وتقرير التصميم باسناده الى أعز شىء فى النفس وهو الايمان ، كما تقول لمخاطبك : إن كنت رجلا فلا ترتكب مايخل بشرف الرجال ، وكقولهم : الرجل المهذب لا يبصق فى الطريق ، وهو شائع فى الاستعمال ، وليس معناه أن ترك ذلك مكفر مناف للايمان . والطائفة الجماعة المحيطة بالشىء ، من الطواف وهو الدوران حول الشىء . وقد اختلف الفقهاء فى تحديدها هنا : فمنهم من قال : أربعة ، ومنهم من زاد ، ومنهم من اكتفى فى التشهير بواحد

وهذا أول الأحكام التى تشتمل عليها هذه السورة الكريمة ، والتى مهد لها بهذه البداءة العظيمة فى أول السورة الشريفة . وقد بدأ به لأنه أهم ملتنبه النفوس الى خطره ، فهو الخطر الأكبر فى هذه

المواضيع ، وماقرر منه هو المقصود الأعظم فى هذا التشريع ، وبقية الأحكام الآتية شرعت من أجله وفى طريق تحقيقه ، فهو مركز الدائرة والنقطة الجوهرية ، وماحوله كحمى يرعى لرعايته ، ويصان توصلا لصيانته

وقد جاء فى حكمه عقوبة دنيوية غير العقوبة الأخروية ، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى — تلك هى عقوبة الجلد لغير المحصن ؛ والمحصن هو من وطىء فى زواج شرعى صحيح . فحده الرجم بالحجارة حتى يموت . وفى الجلد فوق أنه مؤذن معنى الاحتقار وإسقاط منزلة الزانى عن معنى الانسانية ،وإلحاقه بالحيوانات العجماوات التى لا تعرف التأديب إلا بالضرب . ولا ينفع معها زجر ولا نصح ، ولا بيان محجة ولا إقامة حجة ، فكأنه تجرد عن الانسانية والفهم باللسان ، ولم يبق له الاضرب الجلد وإيجاعه ، فهو الوسيلة الوحيدة لفهمه كالبهائم ، وكما يقول القائل:

العبد يقرع بالعصا والحر تكفيه المقالة

وهل العبد إلا متاع فى المعنى ملحق بالحيوانات العجماوات ؟ وزادت الآية فى التعذيب معنى آخر يدرك النفس الانسانية للزانيين إن بقيت لهما نفس إنسانية ، وهو معنى التشهير والفضيحة : فجعل ضربه أو ضربهما أمام طائفة من الناس ؛ ليكون الخزى والعار أبلغ وأكمل فى حقهما ؛ وكأن الناس قد شهدت تجريدهما من إنسانيتهما فلا حق لهما فى إعادة الاعتبار ودعوى الافتخار . وزاد بعض الفقهاء فى ذلك تغريب عام ، استنادا للحديث الشريف «البكر بالبكر جلد مائة

وتغريب عام »وهو زيادة فى السنة على ما أفادته الآية . ومثله لا يسمى نسخاً لأن النسخ هو إلغاء حكم ثبت ؛ وهذا زيادة حكم لم ينف ؛ فإن إثبات حكم لا ينفى ثبوت حكم آخر معه

وبعض الفقهاء يرى أن الاقتصار فى مقام البيان يفيد الحصر ؛ فيكون مدلول الآية أن حد الزنا للمحصن هو الجلد لا غيره ، فاذا جاءت زيادة كتغريب أو غيره كانت نسخا لحصر الحد فى الجلد المفاد بالآية ،والنسخ لا يكون اذا كان المنسوخ أقوى من الناسخ، وليست السنة الآحادية فى قوة الكتاب فلا تنسخه ؛ فاقتصروا فى الحد على الجلد ولم يضيفوا اليه التغريب . هذا فى حد الزانى غير المحصن ؛ وأما المحصن فحده الرجم كما سبق. وقيل حده الجلد مع الرجم . والأول رأى جمهور الفقهاء ، والثانى ، وهو الجمع بين الجلد والرجم للمحصن ؛ رأى الظاهرية ورواية عن الامام أحمد ، وعنه رواية أخرى توافق الجمهور وهى الاقتصار على الرجم فى حد المحصن . وقد روى عن على أنه جمع فى محصن بين الجلد والرجم ، وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الثيب بالثيب جلد مائة ورمى بالحجارة » أو « ورجم بالحجارة » . فاذا قيل بالجمع بينهما فى حد المحصن فلا يكون هناك نسخ الا على رأى من يرى الزيادة على الحكم نسخاً ،لأنها نسخت قصر الحد على الجلد المستفاد من الاقتصار فى مقام البيان على ما سبق

وأما اذا جرينا على رأى الجمهور من قصر حد المحصن على الرجم وحده فيكون فى الآية نسخ أو تخصيص ، لأن الزانية والزانى عام

المحصن وغيره ؛ وقد خرج عنه المحصن بحكم آخر وهو الرجم ؛ فيكون تخصيصاً . وبعضهم يرى التخصيص نسخا لازالة عموم الحكم ؛ وبعضهم لا يراه لبقاء الحكم فى البعض ويقصر النسخ على إزالة الحكم بالكلية. وتفصيل ذلك فى علمى الفقه والأصول ؛ وإنما الذى يعنينا من هذا هو بيان المخصص لعموم الآية أو الناسخ لها ؛ فمنهم من يرى تخصيصها أو نسخها بالسنة التى تواترت معنى وإن كانت تفاصيلها آحادا ؛ فقد روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه أمر بالرجم فى عدة وقائع . والسنة المتواترة تنسخ الكتاب ؛ بل السنة الآحادية متى صحت يجوز التخصيص بها عند القائلين بأن هذا تخصيص لا نسخ

ومنهم من يرى أن النسخ هنا بالكتاب ؛ وذلك أنه كان فيما أنزل قرآنا آية نسخت تلاوتها ولم ينسخ حكمها ؛ وهى « الشيخ والشيخة اذا زنيا فارجموهما البتة نكلا من الله والله عزيز حكيم » . والنسخ كما يكون للحكم يكون للتلاوة ؛ ويكون لهما معاً ، ونسخ التلاوة داخل فى معنى النسخ الذى هو رفع الحكم الشرعى بخطاب شرعى ، أى لا بقياس ولا إجماع ، فلا ينسخ شىء منهما حكم النص . والخطاب أعم من القولى والفعلى ، فكل ما يصدر عنه صلى الله عليه وسلم فى باب التشريع صادر عن خطاب الله عز وجل له ، وإنما دخل نسخ التلاوة فى معنى النسخ العام الذى هو رفع حكم شرعى ، لأن معنى نسخ التلاوة رفع حكم التلاوة عنها من صحة الصلاة بها ، وحرمتها على الجنب والحائض ، وحرمة مسها على المحدث ، وأمثال

ذلك . والحكمة فى النسخ والكلام فى جوازه مبسوط فى أصول الفقه ، وإنما يعنينا منه التماس حكمة لنسخ تلاوة هذه الآية مع بقاء حكمها ، وكأنه لاشعار النفوس أن الزنا من المحصن أمر لاينبغى أن يفرض وقوعه حتى يكون حكم حده متلو على الألسنة فى كل زمان ومكان ، بل هو من الشئون التى حقهاالعدم من الوجود و لزوال من الأذهان ؛ فكأنه يراد تصويره بصورة مالا يكاد يحصل . وعلى ذلك تكون الآية قد نزلت فنسخت عموم الآية السابقة أو خصصتها على اختلافهم فى التعبير ، ثم نسخت تلاوتها وبقى حكمها

وقد روى عن عمر رضى الله عنه أنه قال فى خطبة : «إن الله بعث محمدا صلى الله عليه وسلم بالحق ، وأنزل عليه كتاباً ، فكان فيما أنزل عليه آيات لرجم — يعنى الشيخ والشيخة الخ — فقرأناهاووعيناها» ثم قال : « وإنى خشيت أن يطول بالناس زمان ، فيقول قائل : لا نجد الرجم فى كتاب الله ، فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله . ألا وإن الرجم حق على من زنى وقد أحصن » وقد سمعه الصحابة وأقروه فاعتبر إجماعاً سكوتياً ، وهو يكفى فى أنهـا آية نزلت . ونسخ تلاوتها لا يؤثر فى بقاء حكمها وأنه ناسخ أو مخصص لغيره

ولقد صح ما كشف به عمر ؛ فجاء جماعة من الخوارج ينكرون الرجم بحجة أنهم لم يروه فى كتاب الله . ويروى عن عمر بن عبد العزيز رضى الله تعالى عنه أنه لماأنكروا عليه القول بالرجم لأنه ليس فى كتاب الله ألزمهم بعدد الركعات فى الصلاة ومقادير الزكاة ،

فقالوا هذا من فعله صلى الله عليه وسلم : فقال : وهذا من فعله صلى الله عليه وسلم . ولا يدل هذا على أن عمر بن عبد العزيز ينكر أن آية الرجم نزلت ثم نسخت تلاوتها ؛ بل هو من الرجوع الى طريق أقرب الى الالزام والافحام . وهو الصواب فى مناظرة مثل أولئك الخوارج المكابرين ومن يحذو حذوهم

وعلى الجملة فالقول برجم الزانى المحصن مجمع عليه ، ولا عبرة بشذوذ الخوارج ؛ والخلاف إنما هو فى موضعين : الأول — أيقتصر فى حده على الرجم ، وهو رأى الجمهور ، أم يجمع بينه وبين الجلد ، وبه قال فريق كما تقدم . الثانى بماذا نسخت آية الجلد أو خصصت : أبالآية المنسوخة تلاوتها ، أم بفعله صلى الله عليه وسلم؟ وذهب كثير الى الثانى ، لأن فعله صلى الله عليه وسلم قد تواتر وصار قطعى الثبوت ؛ وأما قرآنية تلك الآية فروايتها آحاد ؛ وذكر عمر لها فى خطبته مع سكوت الصحابة عليه فى رأيهم لا يفيد القطع

هذا وإن من يتأمل فى هذا البيان المشتملة عليه الآية فيما يتعلق بالزجر عن الزنا وتهويل أمره : لا يبقى لديه شك فى أنه من أشد المنكرات وأكبر الكبائر ، فانظر الى التمهيد لأحكامه بالبداءة العجيبة أول السورة ، ثم إيجابه الحد الزاجر المخزى ، ثم النهى عن الرأفة فى شأنهما ، ثم ربط ذلك النهى عن الرأفة بالايمان بالله واليوم الآخر الدال على أن مقتضى الايمان الغلظة فى حقهما ، ثم إضافة التشهير والفضيحة بالأمر بشهود طائفة عذابهما ، وأن تكون هذه الطائفة من المؤمنين.

انظر الى هـذه المعانى فى سبيل تفظيع أمره تر العجب العجاب، فكيف اذا أضفت اليه أنه خص من بين المنهيات بالنهى عن قربانه بينما ينهى عن ذاتها، ثم اقترانه بالشرك بالله وقتل النفس، وأن رتب على جنايتها مارتب فى قوله تعالى: «والذين لايدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون، ومن يفعل ذلك يلق أثاما يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا» . ثم انظر الى مارتب من الأحكام على مجرد الاتهام به من حد القذف وأمر اللعان، ثم التشديد فى طريق إثباته حتى لايقدم الناس على الترامى بهذا الأمر الخطير بلاوجه حق، ليشفى بعضهم غليله من بعض. الى غير ذلك من أحكام جمة ستتلى عليك فى بقية هذه السورة، وكلها تدور حول العلاج والاحتياط، لعدم وقوع هذه الجريمة الكبرى. أما شروط وجوب الحد وتحقق الاحصان فمحل تفصيله فوق ماسبق كتب الفقه، فليرجع اليها من شاء.

نكاح الزناة والزوانى

قال تعالى: (الزانى لاينكح إلازانية أومشركة والزانية لاينكحها إلازان أومشرك وحرم ذلك على المؤمنين):

يحسن بمن يريد تفهم معنى الآية الكريمة أن يكون عنده من الأناة والروية مايساعده على استيفاء ماقاله المفسرون فيها، وفى سبب نزولها، وفى أحكامها: أمنسوخة أم باقية، ثم يردد النظر حتى تطمئن نفسه الى المعنى الذى يرجحه عقله، فقد اختلفت كلمة المفسرين فى ذلك اختلافا يبعث على عظيم التدبر والتفكير.

ولنسق ذلك فى مقامين : (الأول) فى سبب نزولها ، و (الثانى) فى بيان معناها وحكمها ، وكونه منسوخا أو باقيا

المقام الأول: سبب نزول الآية — روى كثير من المفسرين أن ناسا من ضعفاء المهاجرين وفقرائهم لما وردوا المدينة وجدوا بغايا معلنات أقمن الرايات على بيوتهن ليعلم أمرهن فيقصدن لذلك ، وكن من أخصب أهل المدينة عيشا وأكثرهم خيرا . منهن من أهل الكتاب ، ومنهن إماء لبعض الأنصار أعدوهن للتكسب ، كما يعرف من قوله تعالى : « ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا » وكان فى المهاجرين فقر شديد لخروجهم من ديارهم وأموالهم فارّين بدينهم ، وزادتهم الغربة شدة ، وكان بالمدينة غلاء ، فلما رأوا خصب هؤلاء البغايا وخيرهن حدثتهم نفوسهم لو تزوجوا منهن ليكن عونا لهم على جهد العيش حتى يجعل الله لهم من أمرهم يسرا ، وكان من عادتهن الانفاق على من تزوجهن ، فاستأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على ما هو دأبهم فى كل تصرفاتهم ، إذ كان الزمن زمن تشريع ، ولم تكن الأحكام أخذت مستقرها ، ولم يكن الدين قد وصل الى هذا الكمال ، فنزلت الآية الكريمة ليمتنعوا عن ذلك ، فامتنعوا .

ولا يطعن فى هذا أن مقام الصحابة وما نشعر به لهم من التجلة والاكبار يأبى أن يصدر من أحد منهم مثل هذه الخواطر المنحطة التى إن لم يمنع منها الدين منع منها الشمم وتأصل الكرامة فى نفوسهم . نقول : لا يطعن هذا فى الرواية لأن إباء النفوس ونفرتها تابع لاستقباح العمل وشدة

استهجانه . وللعقيدة وتأصل العادة أكبر مدخل فى أمر الاستقباح أوالتسامح . وكان القوم حديثى عهد بجاهلية لم تكن تنظر الى هذه المنكرات نظر من استقر فى قلبه الدين كاملا ، وملكته عاداته المتأصلة . فلا جرم صح أن يحمل الفقر المدقع والغربة والشتات قوما فروا بدينهم وبينهم نبيهم يرعاهم ويتعهدهم بالهدى والارشاد، فهم فى مأمن بحياطته ، صح أن يحملهم ذلك على التفكير فى أية وسيلة للعيش ؛ فيستفهموا عن حكمها، فان أذن وامضوا ، وإن نهوا انتهوا ، ولا حرج فى ذلك ولا نكر ، وإنما النكير على من نهاه الله فلم يرعو عن غيه . ولا نقيس وجداننا النفسى — وقد استقر الدين كاملا عندنا ودرجنا على أحكامه ونشأنا عليها — على وجدانهم وهم فى مقام تعرف الأحكام من جديد ؛ ليخلعوا عادة ويلبسوا خيرا منها .

وروى جماعة منهم أبو داود والترمذى والحاكم والبيهقى أن رجلا يقال له مرثد كان يحمل الأسارى من مكة حتى يأتى بهم المدينة ، وكان بمكة امرأة بغى يقال لها عناق ؛ وكانت صديقة له قبل أن يسلم ، فذهب مرة ليحمل أسيرا كان قد وعده أن يحمله ، فاختبأ فى ظل حائط من حوائط مكة ، وكانت ليلة مقمرة ، فمرت به عناق فأبصرته ؛ فانتهت اليه حتى عرفته، فقالت: مرثد ؟ قال: مرثد، قالت مرحبا وأهلا، فبت عندنا الليلة ، فقال: ياعناق ، إن الله حرم علينا الزنا ، فصاحت بأهل مكة تنذرهم به وتقول : هذا الرجل يحمل أسراكم ، ففر من وجهها وتبعه ثمانية نفر منهم حتى دخل جبلا من جبال مكة يقال له الخندمة ، فبدا له فيه غار لجأ اليه وأعماهم الله عنه،

ثم رجعوا ورجع الى صاحبه لحمله الى المدينة ، قال فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت: يارسول الله أنكح عناق؟ فأمسك فلم يرد عليّ شيئا حتى نزلت الآية ، فقال صلى الله عليه وسلم :« يامرثد : الزانى لاينكح إلا زانية أومشركة والزانية لاينكحها إلازان أومشرك وحُرم ذلك على المؤمنين ، فلاتنكحها».

وهذا السبب لا يتجه عليه ذلك الاعتراض اتجاهه على الوجه السابق، فان النفوس قدتفكر فى ارتكاب بعض ماتكرهه وتنفر منه توصلا الى أمر خطير يتوقف عليه ، وناهيك بتخليص أسرى المسلمين من أيدى المشركين ، واضطرار منقذهم الى الايواء لامرأة بغى تواريه، وهو لم يقصد أن يزنى بها ، وإنما أراد أن ينكحها ليأوى اليها توصلا لهذا القصد الشريف ، ولم يرأن يقدم على الأمر بدون أن يستأذنه صلى الله عليه وسلم . وليس توجيهنا هذامعناه أنا نقر قول بعض الناس إن الغاية تبرر الوسيلة ، وإنما وجهتنا فيه أنه لايبعد أن تفكر النفس فى ارتكاب أخف الضررين تفاديا من أشدهما ، فيبدولها أن تزوج الزانية أخف من بقاء جماعة من أسرى المسلمين فى أيدى المشركين قديفتنونهم عن دينهم . على أنه لم يبت فى الأمر، بل جاء الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنهاه فانتهى .

المقام الثانى : معناها وحكمها — وقبل الشروع فى بيان ذلك نقول : الفقهاء مطبقون على أن المسلم ولو كان زانيا لايجوز له أن ينكح

المشركة ، وأن المسلمة ولو زانية لايحل لها أن تنكح المشرك ، وأن الزاني يحل له نكاح العفيفة ، والزانية يحل لها نكاح العفيف .

من أجل هذا كان حمل الآية على معناها المتبادر من أن الزاني لايحل له أن ينكح إلا زانية أو مشركة، وأن الزانية لايحل لها أن تنكح إلا زانيا أو مشركا — مخالفا لما أجمع عليه المسلمون من عدم تزوج المسلم والمسلمة بالمشركين ، ولا يمكن أن يجمعوا على خلاف مقتضى النص الا اذا كان النص منسوخا، فقال بعضهم : إن حكم الآية كان مقررا ثم نسخ بآية (وأنكحوا الأيامى منكم) ولاشك أن المسلمة الزانية لم تخرج بالزنا من أيامى المسلمين . ولا يشكل هذا بأن لفظ الأيامى عام للزواني وغيرهن، والعام المخالف حكمه حكم الخاص لاينسخ الخاص ، بل يحمل على ماعدا الخاص ، حتى يكون كل من الدليلين معمولا به ، ولأن دلالة الخاص أقوى من دلالة العام. نقول: لايشكل بهذا ، لأن محل ذلك مالم ينعقد الاجماع على مقتضى حكم العام . فانه حينئذ يتقوى بانعقاد الاجماع على مقتضاه . وهذا معنى قول بعض العلماء إن الآية منسوخة بالاجماع أي إن الآية منسوخة إجماعا ، ونسخها بآية الأيامى ، وليس معناه أن الاجماع نسخها لأن الاجماع لاينسخ ولاينسخ به . فانه إنما يعول عليه بعد زمن الرسول صلى الله عليه وسلم حيث ينقطع التشريع وينسد بابه ، كما قال الله تعالى : «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا»

هذا في نسخ حرمة نكاح الزانية والزاني للعفيف والعفيفة . أما تحريم نكاح المشركين والمشركات بعد أن كان حلالا فمن قوله تعالى: «ولا تنكحوا

المشركات حتى يؤمنّ ، ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم ، ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ، ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم » .

هذا رأى لبعضهم . وحاصله أن الآية واردة لتحريم النكاح على الزوانى والزناة ، الا من بعضهم لبعض ، أو المشركين ، وأن ذلك نسخ فى الموضعين ، فأحل النكاح بين الزناة والعفائف ، وبين الزوانى والأعفاء ، وحرم النكاح بين المسلمين والمشركين .

ورأى جماعة أن هذا من باب الاخبار عن الغالب من أن رغبة كل فريق تتجه الى من يماثله فى طباعه ، وشبه الشىء منجذب اليه ، فكان مساق الآية للتحدث عما يغلب على طباع الناس من ميل الزناة الى الزوانى أو من هن شر منهن وهن المشركات ، وميل الزوانى الى الزناة أو من هم شر منهم وهم المشركون ، وأن المؤمن العفيف الحميد السيرة والمؤمنة العفيفة لا تتجه رغبتهما الا لمن ماثلهما فى الصون والعفاف والتنزه عما يشين . وهذا المعنى وإن اختاره كثير فليس مما تطمئن النفس الى حمل الآية الكريمة عليه ، فان التحدث عن العادات والاخبار عنها ليس من مقاصد الهداية والارشاد . وفرق بين هذا وبين قولهم فى مواضع كثيرة : « الآية محمولة على الغالب » فان معنى ذلك أن الآية واردة على معالجة حالة غالبة على الناس ، أو استئصال عادة متفشية فيهم ، أو النهى عن أمر كثر واستفاض بينهم ، وفرق بين معالجة حالة غالبة بالنهى أو الارشاد أو التشنيع ، وبين حكايتها والتحدث بخبرها .

والذى نميل اليه ونرجحه من بين أقوالهم فى ذلك هو ماذكره كثير من المفسرين مختارين له ، أن الآية مسوقة لتنفير أولئك الضعفاء من المسلمين الذين حدثتهم أنفسهم بالتزوج من أولئك الزوانى ليستعينوا بماهن فيه من رخاء المعيشة ووفرة المال على ماهم فيه من جهد وإعدام لا يطيقون مصابرته حتى يجعل الله بعد عسر يسراً . فلما استأذنوا الرسول صلى الله عليه وسلم فى ذلك نزلت الآية ، ليحفظ على المؤمنين صيانتهم ، والبعد عن الأدناس ولو فى سبيل أكل العيش وتحصيل القوت الضرورى . ويكون المعنى أن هذا مما لا يليق بالمؤمن ، وإنما هو من سمات الزناة ، فهم الذين يميلون أو يقبلون نكاح الزوانى أو من هن أخش منهن وهن المشركات . ثم أردفت تكميلا بشرح أمر الزانية ، فهى التى تقبل أو يليق بها أن تميل الى الزانى ومن هو شر منه وهو المشرك . فالآية مسوقة للتنفير وبيان أن هذا لا يليق بالمؤمن المصون . وهذا غير المعنى السابق الذى حاصله أن ذلك حكاية وإخبار عما هو الغالب فى الناس . ففرق بين قولك : إن هذا لا يليق الا بفئة كذا ، وبين قولك : إن هذا لا يحصل غالبا الا كذا ، فالأول من باب قولهم : الكريم لا يعيب ، والخير لا يصدر منه الا الخير ، وهو ماتلمحه فى قولهم : كل إناء ينضح بما فيه ، وقولهم : وهل ينتظر من السفيه الا الوصف بما هو فيه . ويقرب من هذا الأسلوب ما يأتى فى قوله تعالى : «الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات» على بعض التفاسير فيها كما ستطلع عليه إن شاء الله . وهذا الوجه مناسب

لقصة مرثد أيضا . والمعنى لاترتكب هذه الخسة ولو لهذا القصد المعظم.
ويكون محصل المعنى على هذا الوجه : الفاسق الخبيث الفاجر لاينتظر منه أن تتجه رغبته وميله الا لمن تشاكله وتشبهه ؛ فهى الأليق بحاله والأنسب به ؛ وماله وللعفيفة ؟ ينفر طبعها منـه ولا تشاطره خبث سيرته . والزانية الخبيثة الفاجرة لايليق بها الا خبيث مثلها يشاركها فى فجورها . والغرض منه تنفير ضعاف المسلمين من ذلك الخاطر الذى يدالهم ، أوزجر مرثد عن تزوجه بعناق التى استفتى فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فهذا المعنى يتفق هو وما روى فى سبب النزول ، سواء أكان قصة مرثد أوقصة ضعفاء المؤمنين ، ويكون قوله جل شأنه : « وحرم ذلك على المؤمنين » معناه أن نكاح المؤمن المحمود عند الله من زانية خبيثة فاجرة وانخراطه بذلك فى سلك الفساق الذين يغشونها محظور عليه محرم ، لا على معنى تحريم العقد على الزانية ، وإنما هو على معنى تعرضه لارتكاب آثام ومفاسد جمة : من ضياع النسب الصحيح ، ومعاشرة الخاطئين ، وتعود المرء مشاهدة المنكرات ، ممايضعف فى النفس روح الحمية للدين ، فيتعود إقرار المنكر . وكذلك شأن من تتزوج من الخبيث الزانى ، وقد يجرها الى مقارفة الكبيرة . ولا يقتضى هذا حرمة عقد النكاح على الزانية أو الزانى الذى يجر الى فساده حتى يرتكب النسخ الذى هو خلاف الأصل ، بل الحرمة حرمة الاقدام ، ولكن لو وقع كان صحيحا .

هذا محصل كلام المفسرين سقناه على اختلافه ، ليتعود القارئ التأمل في معاني الآيات مستعينا بنظر من قبله ، وبيّنا مايرد على بعضها من الاعتراض ليُحسن الاختيار بعد التفكير .

وأيا ما سلكت في تفسير الآية الكريمة فان الذى لايختلف هو مايفهم من سياقها والاتيان بها بعد آية حد الزنا الذى هو أول الأحكام المشتملة عليها السورة الكريمة ؛ فان من تدبر ماسبق في تلك الآية من الأمر باقامة الحد عليهما ، والنهى عن الرأفة بهما ، مع التعبير عنها بأنها رأفة في طريق إقامة الدين ، فكأنها عقبة تعترض طريق الدين ، معلقا ذلك على الايمان بالله واليوم الآخر ، ومعنى ذلك أن هذا مقتضى الايمان ونتيجته ، ثم الأمر بالتنكيل بهما وإعلان عقوبتهما ، تشهيرا بهما ، وزيادة في افتضاحهما ، وأن يكون الحاضر طائفة ، ومن المؤمنين ، لأن الاستحياء من أهل الايمان والصلاح أكمل منه بالنسبة للكافرين أو الفساق ، بل ربما عد في نظر الفجار من أسباب الفخار ؛ فكل ذلك يعطى صورة من عناية الشارع الحكيم بتفظيع ذلك الجرم العظيم ، لما عرفت فيما سبق من قوة دواعيه ، ومن كبير أثره وعظيم خطره ، فاذا ضم الى ذلك مااشتملت عليه هذه الآية من تفظيع أمر الزنا والتنفير ممن وقع فيه بأنه لايليق أن يكون بينه وبين مؤمن صلة ؛ بل ينبغى أن يقتطع ويفر منه كما يفر من الأجذم ، وأنه لايصح أن يرغب في الاتصال به الا من شاركه في خبثه ، أو كان مشركا لاصلة له بالاسلام والايمان ، نقول إذا ضم الى الآية السابقة مايستفاد من هذه الآية ، بلغ

التشنيع عليه والتقبيح له والتنفير منه أعظم مبلغ وأكبره ؛ وكان جديرا بمن يؤمن بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر أن يصون نفسه من هذه الموبقة الفاحشة ، وما أحقه أن يقال فيه : «لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن» كما جاء فى الحديث الشريف !

أجل : لا يكاد المرء يصدق أن مؤمنا بالله مصدقا برسالة رسله يسمع ما قال الله فى شأنه من هذه الأحكام والأوصاف ؛ وما ذكر فى معاملة من وقع فى وهدته ؛ وأنه ينبذ ويقاطع ويقتطع من سجل الأسرة الاسلامية : فلا يليق أن يتصل به إلا من كان على مثل حاله وسوء فعاله ؛ ثم يكون مع إيمانه وتصديقه وحضور عقله راضيا لنفسه هذا المقت وهذا الفحش الأكبر ، لا لا ، لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن. نسأل الله العصمة من الزلات ؛ وأن يغنينا بحلاله عن حرامه ، وبطاعته عن معصيته ؛ وبفضله عمن سواه !

بقى من مباحث الآية الكريمة بيان حكمة تقديم الزانية على الزانى فى الآية الأولى، وتقديم الزانى على الزانية فى الآية الثانية ، والسر فى ذلك أن الآية الأولى مسوقة لبيان حكم الزنا ، والعامل الأقوى فيه هو المرأة بما يبدو منها دائما من تبرج وتزين ودعاية الى نفسها بشتى الوسائل : فى حركاتها وسكناتها ونظرها وإعراضها ، حتى فى تمنعها، فلا تكاد تخلو حالة من أحوالها من دواعى لفت النظر اليها، سواء أكان ذلك عن قصد منها أم عن طبيعتها وما ركب فى جبلتها من تكسر ومعنى أنوثة ، وكفى بأكبر الركنين دعاية للجريمة استحقاقا للتقديم .

وأما فى الآية الثانية فالكلام فى أمر النكاح والعقد ، ولاشك أن الذى يسعى فيه ويعمل على تحقيقه ويبدأ بالخطبة وأمثالها من مقدمات العقد هو الرجل ، حتى إن المرأة إذا حاولت ذلك حاولته من طريق خفى ، وتحايلت على أن تدفع بالرجل الى أن يفتح الباب من ناحيته ، ويبدأ الكلام من جهته ، فكان جديراً أن يبدأ بحكمه فى مقام العقد الذى هو من خواصه ،

حد القذف

(وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

الرمى : الالقاء والقذف بحجر أوسهم أونحوهما مما يضر ويؤذى ، استعير للسب وتوجيه العيوب لما فى كل من الأذى والاضرار ، فجرح اللسان كجرح اليد ، بل :

جراحات السهام لها التئام ولا يلتام ماجرح اللسان

واختير هذا التعبير فى التعبير لأن الكلمة متى أفلتت من لسان قائلها لم يتمالك زمامها وانطلقت لاتلوى على شىء حتى تصيب من وجهت اليه بالضرر والأذى . والمحصنات المصونات ، أصله من الحصن وهو الموضع الحصين المنيع الذى لايوصل الى جوفه ، عبر به عن العفيفات إشارة الى أنهن مع عدم قربانهن الفحش فهن منيعات عن أن ينلن به . وسيأتى معنى الحصانة فى الشرع واختلافه بحسب المواضع . والشهداء جمع شهيد بمعنى الشاهد ، وفيه معنى أنه يخبر عن شهود وعلم يقينى ، وأنه أمين على

مايؤديه ، ويفسر الشهيد بالأمين الذى لا يغيب عن علمه شىء مما عاينه .

والجلد تقدم تفسيره ؛ وهو إصابة الجلد بالضرب المؤلم ، ولا يشترط أن يكون مباشرا للجلد على العرى كما سبق فى الآية المتقدمة . وأبدا ظرف لاستغراق الزمن المستقبل . والفسق والفسوق أصله الخروج والانسلاخ ؛ يقال فسقت الرطبة عن قشرتها إذا خرجت وانسلخت عنها ؛ سمى به فى لسان الشرع العصيان ؛ لما فيه من الخروج والانسلاخ عن أمر الله ؛ كأنه ينبغى أن يكون المؤمن محاطا بأمر الله وملتفا بأحكامه لا يغادره ولا يخرج عنه . وهذا حكم آخر من أحكام هذه السورة ؛ متصل بالأحكام التى قبله ؛ متمم لما يتعلق بموضوعها .

لما بين جل شأنه ما فى جريمة الزنا من عظيم الفحش وكبير الشناعة مما لم يجتمع فى جريمة أخرى من كبير الاجرام وشنيع الفعل ، وأمر هذا شأنه يلحق العرض من الرمى به ماينكس الرأس ويهدم الشرف ، وكان من مقاصد الشرع الحكيم حفظ الأعراض وصون الشرف لصاحبه ؛ والاحتفاظ بالكرامة وعزة النفس ؛ كان من مقتضى حكمته جل شأنه هذا التشريع الزاجر للنفوس الجامحة التى قد يدفعها الغضب إلى أن تصيب الناس فى كرامتهم ، وتخدش شرفهم وهو أعز عزيز لديهم ؛ مستهينة بما اقترفت ؛ ففرض لها فيما فرض من أحكام هذه السورة الشريفة حد القذف الزاجر الرادع ؛ الكفيل بصيانة الأعراض وحفظ الكرامة والشرف .

وإنما خص حد القذف بالقذف بالزنا ، لأن فيه من العار بدناءة

النفس وهتك الستر وافتضاح السوءات وانتهاك الحرمات والدلالة على فقد الغيرة الذى هو من سمات أخس الحيوانات ما فارق به كل الموبقات ، فان كان المرمى به امرأة كان فيه من جلب العار على قومها مايؤدى إلى سفك الدماء ، وقلما تغسل ذلك العار ، وإن كان المرمى به رجلا كان فيه الدلالة على أنه ليس للعرض فى نظره كرامة ولا للغيرة على نفسه سلطان ، وكان أمارة على أنه لو أصيب بما أصاب به الناس لاعتبره أمرا عاديا لاتثور له نفسه ولا يغلى له دمه ، ولذلك قيل : لا يزنى الغيور . وكفى بهذا عارا وعابا يلحق الأبناء والأحفاد ، وتبقى سيرته طوال الأحقاب .

وقد عبر فى جانب الرامين بصيغة المذكر (الذين) ، وفى جانب المرمى بصيغة المؤنث (المحصنات) ، ولا فرق بين الذكور والاناث فى الرامى والمرمى ، فمن رمى غيره بالزنا واستوفى شروط الحد وجب حده ، سواء أكان كل من الرامى والمرمى رجلا أم امرأة . وإنما اختير هذا التعبير للتغليب

أما فى الأول : فمن باب تغليب الذكور على الاناث ، فانهما متى اجتمعا فى حكم عبر بصيغة الذكور تغليبا لهم عليهن ، وأيضا فان الغالب أو المفروض أنه الغالب هو أن الرمى بهذه الفاحشة بعيد عن ألسنة النساء اللاتى ينبغى أن يحوطهن الحياء ، فلا يكاد يقع منهن هذا البذاء .

وأما الثانى وهو اختيار صيغة المؤنث فى جانب المرمى ، فلأن أكثر ماتوجه هذه التهمة الشنيعة للنساء ، فهى لهن آلم وأوجع ، ولا يرى بها

الرامى إلا للنيل من المرمى بآلم مايستطيع . وهذا لا ينافى مساواة الرجال لهن فى لحوق العار وإصابة الشرف وتنكيس العزة ، وعلى ذلك يكون قيد التأنيث المستفاد من صيغة الجمع بالألف والتاء لا مفهوم له ، بل مثلهن فى ذلك الذكور ، وليس هذا من باب قياس الرجال على النساء ، بل من باب إلغاء الفارق بين الفريقين ، ويسمى فى لسان الأصوليين بدلالة الفحوى للقطع بالغاء الفارق وهو الأنوثة والذكورة فى الرامى والمرمى . على أن الآية وردت فى واقعة هى رمى رجل امرأة بالزنا ، فجاء التقييد على وفق سبب النزول ، فانها نزلت فى هلال بن أمية لما رمى امرأته فقال عليه السلام : « البينة أوحد فى ظهرك » وإن كانت آية اللعان جاءت مخصصتها بماعدا رمى الزوج زوجته كما سيأتى

وقد أجمع الفقهاء على أن المراد بالرمى هنا الرمى بالزنا لعدة قرائن — منها مجىء الآية بعد آية الزنا ، ومنها التعبير بالمحصنات وهن العفائف ، ومنها قوله : (بأربعة شهداء) ومعلوم أن كون نصاب الشهادة أربعة إنما هو فى الزنا خاصة . وقد عرفت حكمة تخصيص القذف بالزنا بذلك من بين الرمى بالجرائم الأخرى . والمحصنات معناه العفيفات اللاتى أحصن فروجهن ، وقد يأتى الاحصان بمعنى التزوج كما فى قوله تعالى : « والمحصنات من النساء » فانه بمعنى المتزوجات ، وبمعنى الوطء فى زواج كالاحصان المعتبر فى الرجم ، فان معناه ذلك ، وليس هذا الاحصان شرطا فى حد القذف ، بل من قذف عفيفة سواء أكانت متزوجة أم لا استوجب الحد ، وإنما اشترط الفقهاء فى الاحصان هنا مع

العفة الحرية والاسلام والبلوغ والعقل. واستيفاء تفصيل الأحكام والشروط والخلاف فيها يطلب من كتب الفقه .

هـذا وقد رتب الشارع على قذف المحصن أو المحصنة ثلاثة أشياء : الجلد ثمانين جلدة . ورد الشهادة أبدا . والحكم عليه بالفسق : فأما الجلد فللزجر ، ولمقابلة الايذاء بالايذاء . وأما رد الشهادة فهى عقوبة لسانية تشبه قطع يد السارق ؛ فكأنه روعى أن جزاء هذا اللسان الذى اقترف ذلك الاثم العظيم أن يهدر ويقطع أثره فلا يعتد بما يقوله ويشهد به فيما بين الناس ، فهو والعدم سواء . وأما تفسيقه فهو مبالغة فى الزجر ، وإشارة الى أن مالقى من جزاء فى الدنيا من الحد ورد الشهادة لم يعفه من اعتباره فاسقا خارجا عن أمر ربه وطاعة بارئه . وناهيك بهذه الجزاءات دلالة على عظم الخطب وشدة الخطر . واذا كان هـذا فى الرمى بالزنا والاتهام به ، فكيف يكون حال مقترف هذا الجرم الفاحش الشنيع ! فهذا الحكم مع دلالته على ماسبق له يدل دلالة بالغة على تفظيع جرم تلك الفاحشة وتبشيع أمرها . وعناية الشارع بالتنزيه عنها والتنفير منها .

وقد أردف جل شأنه ذلك الجزاء باستثناء التائبين فقال :« إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فان الله غفور رحيم» . والتوبة الرجوع الى الله بعد الاعراض عنه ، والاقبال عليه بعد الادبار ، وكفى بالمعصية إعراضا وإدبارا ، بل فرارا من حظيرة قدسه وساحة رحمته .

والتوبة فى نظر علماء الأخلاق تنتظم معانى ثلاثة تؤدى الى تطهير القلب ، بل الجوارح أيضا من أدران الذنوب ، وهذه المعانى الثلاثة هى:

أولا ــ علم مافى الذنب من الاضرار إضرار النفس بإبعادها عن ساحة الرحمة ومنزلة الرضوان ، وإنه لابعاد لايقدم عليه الاعدو نفسه ، فلا تحصل التوبة دون أن يتحقق هذا المعنى الأول تحققا يقينيا وعلما حضوريا يملك عليه نفسه ، فلا تصدر عنه الأعمال إلا وفقه ، علما يشبه علمك أن فى هذا الطعام الذى اشتهيته سما مهلكا ، يخبرك به الطبيب الثقة ، أو أن فى هذا الطريق الذى سلكته سبعا ضاريا ووحشا مفترسا وقطاع طريق ، ينبئك بذلك الدليل الصادق الذى خبر هذه الجهة وعرف ما تحتويه ، ولا تشك فى خبره ، فماذا يكون حالك ، وقد تورطت فأكلت الطعام اشتهاء ، أو سلكت ذلك الطريق تهوراً ؟ أليس يدركك من الندم ما ترتبك معه وتخور له قواك ، وتجزع على هذا الاندفاع البعيد عن الاستبصار ؟ ألست تشعر حينئذ بحالة اكتئاب وجزع وحسرة على مافرط منك تقلب عليك لذتك ابتئاسا ، وغبطتك بالطريق الذى تورطت فيه استيحاشا ؟ ألست تذهل عن كل مايحيط بك ، وينحصر فكرك فيما يخلصك من هذه الداهية والمصيبة التى تورطت فيها ؟

فهذا هو المعنى الثانى ، وهو الندم على مافرط ، وليس مجرد الندم والحسرة ويقف الشخص مبهوتا غير مفكر إذا كان من أهل البصيرة ، كلا ، بل لايسمى ندما حقيقة ويصدق فى دعواه أنه ندم حتى يترتب على ندمه أثره الصحيح ، وذلك هو المعنى الثالث ، وهو عمل يتعلق بما مضى ، وبما هو حاصل ، وبما يستقبل من الزمن ، فيقلع عن الاستمرار فى تناول ذلك الطعام الشهى حالا ، ويعزم على

ألا يعود اليه فى المستقبل ، ويعمل على تخليص معدته مما سبق منه اليها فى الماضى . وكذلك يقطع السير فى هذا الطريق ويعزم على ألا يخترقه مادام كذلك ؛ ويكر راجعا من حيث أتى ، فيلغى سيره فى المسافة التى قطعها .

هكذا شأن التوبة من الذنوب ، فهى الاستيقان بأنه قد جلب على نفسه الضرر المهلك متابعة لشيطان هواه الذى يرديه فى الهاوية ، فيحيط به الندم والجزع الصحيح فرارا بنفسه مما لا قبل له به . وأين الوحوش الكاسرة وقطاع الطريق من الخلود فى النار ، والتعرض لغضب الجبار ، ومحاربة القهار ؟ بل أين السموم فى الأحشاء من التردى فى الموبقات المهلكات عند من عرف مقدار الحياتين ووازن بين السعادتين ، وإن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون !

ومقياس الندم الحقيقى الذى يميزه من دعوى الندم مغالطة وخداعا — ولا تخدع النفس إلا نفسها — مقياس ذلك أن يؤتى هذه الثمار الثلاث : الاقلاع فورا عن الاستمرار فى الذنب الحالى ، والعزم على ألا يعود فى المستقبل أبداً ، والمبادرة إلى التخلص مما فرط منه فى الماضى ، ومن ذلك أن ترد الحقوق لأصحابها . هذه هى التوبة الصحيحة المطهرة ، ومتى حصلت على هذا الوجه طهرت حقيقة ، وكانت مقبولة حتما كما وعد جل شأنه ، ووعده لا يخلف . وهذا معنى قولهم : التوبة تنتظم من علم وحال وعمل ، والعمل يتعلق بالحال والاستقبال والماضى .

تأمل هذا وقارنه بقول بعض الجهلة يلقن العامى التوبة ، فيقول :

قل كما أقول — تبت إلى الله ورجعت الى الله؛ وندمت على مافعلت؛ وعزمت على ألا أعود أبدا . فمثل هذا مثل أن تأمر خادمك أن ينظف ثوبك ، فيقول : أحضرت الماء والصابون وغسلته وكررت غسله حتى نظف، ويكرر ذلك القول سبع مرات كل يوم وليلة والثوب على حاله ، فهل يغني هذا القول عن نظافة الثوب شيئا ؟ اللهم اهد قومي فانهم لا يعلمون! وقد ورد في الحديث « الندم توبة » وهو من باب « الحج عرفة » فان الندم هو جماع هذه المعاني ؛ فانه لا يتحقق الا عن علم بعظم ما اقترف ، ومتى تحقق أقلع في الحال وتخلص مما مضى ؛ وعزم على عدم العودة في المستقبل .

والاصلاح إزالة الخلل والفساد الطارئ على الشيء . والمراد هنا إصلاح ذات البين التي أفسدها بينه وبين من قذفه . وذلك بأن يستحله مما فرط منه في حقه حتى يسامحه . وذلك شأن التوبة والتخلص من حقوق العباد ؛ وهو غير ما تضمنته التوبة من الندم على ما فرط ، وإزالة ماحصل بتكذيب نفسه في مسألة القذف؛ إذ لا يلزم من اعترافه على نفسه بأنه كان كاذباً في القذف أن تصفو نفس المقذوف من جهته ؛ فقد آذاه بلا وجه حق ؛ وقد قيل ماقيل إن صدقا وإن كذبا : فيجب أن يصلح ماأفسدته كلمته من صلات الأخوة الاسلاميه ، بأن يستسمحه حتى يسامحه ، ويستصفيه حتى يصفو له ؛ وهذا سر قوله : «وأصلحوا » بعد قوله : «تابوا » .

وأما قوله : «من بعد ذلك » والتوبة لا تكون إلا بعد الذنب؛ فان

سره التهويل وتفظيع ما وقع فيه وتكبيره ، وذلك كما تقول وأنت تروى قصة فتصل إلى جزء منها له أهمية خاصة فى القصة — تقول : « وبعد ذلك كله يجيء يقول لى كيت وكيت ». تستعمل هذه العبارة فى ألسنة الناس كثيرا لافادة هذا الغرض. ولعلماء البلاغة فى توجيه اسم الاشارة الذى يحضر المشار اليه بذاته كأنه يشاهد، ويلفت اليه النظر، مايعرفه من أخذ منها بطرف. وكذلك فى ذكر كلمة (من) فى قوله : «من بعد ذلك » زيادة فى تهويل شأن الأمر الذى حصل ، كما فى قوله تعالى : «ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذاً لمن الظالمين» . جاءت فى آيات تحويل القبلة بعد ما بسط على أحسن تفصيل حكمة القبلة القديمة ، ثم حكمة التحويل ،وأيأسه من متابعتهم ملته ، وغير ذلك من تنويع الهدى فى المسألة ، قال بعد ما أتم الكلام فيها : « من بعد ما جاءك من العلم» . وأما فى الآية السابقة عليها وهى قوله : « ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم» التى جاءت عقب قوله جل شأنه : « ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم ، قل إن هدى الله هو الهدى» فلم تأت بعد سوق أدلة فى الكلام السابق تكون موجبة لاستبعاد أن ينشأ من بعدها هذا المحذر منه ، بل كانت إشارة إلى ماجاءه من العلم والهدى واستقر فى نفسه حتى أصبح أمراً راسخاً ، وهذا شيء وذكره فى مقام التحذير شيء آخر . فالعظمة فى آية « بعد الذى» راجعة إلى المعلوم المستقر فى النفس، وفى آية تحويل القبلة راجعة الى البيان وبسط الأدلة.

بقيت مسألة نريد أن نلم منها بطرف وجيز حرصاً على فائدتها ، ونترك البسط فيها لمن شاء التوسع. فأمامه كتب الأصول تشفي غلته، وهي : ما هو مرجع الاستثناء في قوله تعالى: «إلا الذين تابوا »

قد اختلف الشافعية والحنفية في ذلك فيقول الحنفية : الاستثناء راجع الى الجملة الأخيرة ، وهي قوله : « وأولئك هم الفاسقون».وعلى هذا فمن حد في القذف لاتقبل شهادته أبداً ولو تاب . وقال الشافعية : بل هو راجع اليها والى ماقبلها ، فمن تاب بعد ماأقيم عليه الحد قبلت شهادته . وأصل الخلاف فيما اذا وقع قيد أو استثناء بعد جمل متعاطفة، هل يرجع للأخيرة ؟ بذلك يقول الحنفية ، أو يرجع للكل ؟ بذلك يقول الشافعية ، إلا أنه منع من رجوعها لايجاب الحد أنه حق لآدمي لا تسقطه التوبة ، ولكل من الطرفين أدلة على ما يقول وتفريعات لا يسع هذا المقام ذكرها .

تشر (والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين . والخامسة أن لعنت الله عليه إن كان من الكاذبين . ويدرؤا عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين . والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين . ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله تواب حكيم):

هذا من متممات الحكم السابق ، فبعد أن بين ما في جريمة الزنا

من الفحش والقبث وسوء السبيل . ومايستحقه مرتكبها من العذاب والتنكيل ، وكان الأمر الشنيع ممايترامى به الخصوم المتغاضبون غالبا وهم تحت تأثير الغضب، فينال المرء من خصمه في هذه الحال مايخدش به كرامته ، ويهدم به شرفه ، ويجلب العار على أسرته وذويه ، أردفه بعقوبة من يقع في ذلك السباب الفاحش، صونا للشرف والعرض والآداب أن تدنس وتمتهن ، فبين حكم من يرمى المحصنات أو المحصنين بتلك السبة الشنيعة على مامر

ولما كان الزوج عرضة لان يضطر الى رمى زوجته بهذا الأمر صونا لشرفه ، واحتفاظا بنسب أولاده ، وغيرة على كرامته ، وقد يكون صادقا في رميه إذيكون قد استيقن ولكنه عجز عن إثبات مارأى بحضور الشهود المطلوبين لاثبات مارمى به ، فان بين الزوجين من المفاجآت الانفرادية مالايكاد يتيسر معه إحضار الشهود في حال تلك المفاجآت المنكودة ، لطف الله بعباده ،فشرع لهم المخلص من هذه الداهية الدهياء بهذا الحكم حكم اللعان ، رحمة منه بالمصاب ، وإنقاذا له من هذه المآزق المحرجة.

روى أنه لما نزلت الآية السابقة في حكم القذف وكانت عامة للزوجين وللأجانب ففهموا منها العموم ، قال سعد بن عبادة : أهكذا أنزلت يارسول الله ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « يامعشر الأنصار ألاتسمعون مايقول سيدكم»؟ فقالوا : يارسول الله: لاتلمه فانه رجل غيور، والله ماتزوج امرأة قط إلا بكرا ، ولاطلق امرأة فاجترأ رجل منا على أن

يتزوجها لشدة غيرته ، فقال سعد : والله إنى لأعلم أنها حق ، وأنها من عند الله ، ولكنى تعجبت أنى لو وجدت لكاعا قد تفخذها رجل لم يكن لى أن أهيجه ولا أحركه حتى آتى بأربعة شهداء ، فوالله لا آتى بهم حتى يقضى حاجته ! قالوا فما لبثوا يسيرا حتى جاء هلال بن أمية ، وهو أحد الثلاثة الذين خلفوا وتاب الله عليهم ، فغدا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يارسول الله إنى جئت أهلى عشاء فوجدت عندها رجلا فرأيت بعينى وسمعت بأذنى ، فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أتى به واشتد غضبه ، واجتمعت الأنصار فقالوا : قد ابتلينا بما قال سعد بن عبادة ، الآن يضرب رسول الله عليه الصلاة والسلام هلال بن أمية وتبطل شهادته ! فقال هلال : والله إنى لأرجو أن يجعل الله لى منها مخرجا ، وقال : يارسول الله إنى أرى ما اشتد عليك مما جئت به والله يعلم إنى لصادق . فنزل على رسول الله عليه الصلاة والسلام الوحى ، وكانوا يعرفون علاماته ، فأمسكوا حتى فرغ من الوحى . فنزلت الآية ، فسرى عنه صلى الله عليه وسلم . فقال : « أبشر ياهلال فوالله لقد كنت أرجو ذلك من ربى » . ثم أرسل اليها فجاءت فتلاها عليها ، وذكرها عذاب الآخرة ، وأنه أشد من عذاب الدنيا ، فقالت : لقد كذب ، وأصر هلال على قوله ، فقال عليه السلام : « لاعنوا بينهما » . فكان ذلك سبب نزول الآية ، وكان لعانهما أول لعان فى الاسلام . وقيل نزلت فى عاصم بن عدى ، وقيل فى عويمر بن نصر العجلانى .

وإنما سقنا هذه القصة ، لأنها مع كونها بيانا لسبب النزول تبين

لنا كيف كان تشريع الأحكام تدريجيا على حسب الحوادث ، وأنه كان مترقبا لهم ، فيجيء الحكم وقد تشوفوا له ، فيتمكن فى النفوس فضل تمكن ، ويعين على امتثاله بقبول وفضل إيمان ، إذ تتجلى حكمة الحكم تجليا يبين مافيه من رحمة الله وفضله « ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله تواب حكيم » ويتجلى فيها ما كان يملأ نفوسهم من اليقين بحكمة ربهم ولطفه بهم ، حتى إن أحدهم ليقسم إنه يرجو أن يجعل الله له مخرجا ، ويظهر مع هذا عظيم خضوعهم واستسلامهم لما يأمر به ربهم ، وإن كان على خلاف ماتهوى نفوسهم ، وأنهم مهما قامت فى نفوسهم الشبه لن يؤثر ذلك فى إيمانهم بأن مايبلغهم الرسول حق وأنه من عند الله ، وكل مايبدو منهم هو التعجب لا الانكار ، ومنشأ التعجب ما عهدوه من اطراد الرحمة فى حكم الله بالنسبة اليهم فضلا منه ورحمة ، لا وجوبا عليه وإلزاما « ولو شاء الله لأعنتكم »

والتعبير بالرمى هنا وفيما مر للاشارة إلى أن الكلمة متى انطلقت من فم قائلها ، فقد افلتت زمامها من ملكه وأصبح لايملك ردها ، فهى كالسهم يرمى به فلا تعود اليد قادرة على رده ، فليحتفظ من يهم بالرمى والأمر فى يده حتى لايندم حيث لاينفعه الندم . وحذف المرمى به لعلمه من السياق لمجيئه بعد الآية السابقة ، وصونا عن تكرار هذا اللفظ الذى يحفه الفحش من كل ناحية ، فمن كمال الأدب عدم التصريح بالمستنكرات إلا بمقدار الضرورة ، أو فى مقام التشنيع والتهويل والتفظيع .

وقوله تعالى :« ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم » — الشهداء جمع شهيد ، وهو من يعلم علم الشهود والحضور لا الظن والتخمين ، ففيه الاشارة الى أن هذا أمر لا ينبغى الاقدام عليه لمجرد الظنة ، فانه أمر جلل ، وشيطان الغيرة قد يلعب بالنفوس فيقيم من الأوهام صرحا مشيداً ، فدفع هذا بالتعبير بالشهداء . وقوله :« إلا أنفسهم » أى إلا شهادة أنفسهم ، كأنه أقيم كل شهادة يقولها مقام شاهد مثبت ، والا فالشهادة فى العرف الشرعى هى الاخبار بحق للغير على الغير ، ويقابلها الدعوى ، وهى الاخبار بحق للنفس على الغير ، والاقرار بحق للغير على النفس .

وقوله : «فشهادة أحدهم » — المراد هنا كل واحد منهم ، فالأحد يتكرر بتكرر الرامين ، وقد قرئ أربع بالرفع على أنه خبر شهادة ، وبالنصب على أنه مفعولها لأنها مصدر ، ويكون شهادة مبتدأ محذوف الخبر ، أو خبرا لمحذوف ، أى فالواجب فى شأنهم شهادة ، أو فعليهم شهادة ، ولفظ بالله متعلق بشهادات ، ولا يضر فى ذلك أنه جمع والجمع يبعد المصدر عن شبه الفعل ، فان الجار والمجرور يكفى فيه رائحة الفعل على ما ذكره النحاة .

وقوله : «إنه لمن الصادقين» — أصله مجرور بعلى محذوف ، أى يشهد على أنه لمن الصادقين ، فحذف الجار وكسرت همزة إن وعلق الفعل باللام ، وإن كان خاصاً بالأفعال القلبية ، فان الشهادة متضمنة معنى العلم وإن كانت فعلا لسانيا ، فألحقت بأفعال القلوب ، ومن يرى أن هذه

الشهادة من باب القسم واليمين ، يرى كسر الهمزة لوقوعها فى جواب القسم.

ومعنى الآية أن من رمى زوجته بالزنا فقد قذفها ، فهو بين أن يثبت مارماها به فينجو من حد القذف ، وألا يثبت فعليه حد القذف كالأجنبية ، إذ يلحقها ويلحق قومها من جراء هذا القذف مالا يقل عاره ودنسه عن رمى الأجنبي ؛ ولكن لما كان الزوج من شأنه أن يتصل بزوجه على انفراد ويفاجئها ولا أحد معه فيشق عليه الاثبات بالشهادة ، فان تكلم تكلم بأمر خطير ، وإن سكت سكت على أمر جلل لايطيقه ولا يتحمله ؛ فانه يلحقه بذلك من تلويث فراشه ، وامتهان كرامته ، والاعتداء على حقه ، وإلحاق الأجنبي عنه بنسبه ، يشاركه فى ماله بوجوب نفقته عليه ، ويرثه بلاحق أو يزاحم ورثته كذلك ، كان من لطف الله بعباده أن شرع لهم حكم اللعان للتخلص من هذا الحرج ، وأباح للزوج أن يستقل بالاثبات بأن يشهد تلك الشهادات المكررة ويردفها بلفظ الجلالة تهويلا فى الأمر ، ثم يردف الشهادات الأربع ، باستيجاب اللعنة على نفسه ، واستحقاقه البعد عن رحمة ربه إن كان من الكاذبين.

ولما كان مثل هذا العمل لايستحيل أن يكون ناشئا عن ريبة أحسها الزوج ولم يصل إلى وقوع تلك الفاحشة ، وتكون نيران الغيرة والحمية قد نفخت فى منخره حتى خال التخمين يقينا . وقد قالوا ، « إن الحريص بسوء ظن مولع » فلو جعلت كلمته ضربة لازب على زوجه ، وحرمت من باب تنقذ نفسها منه أن لو كانت فى الواقع بريئة ، لكان

فى ذلك إجحاف بحقها ، شرع لهـا المخلص الذى يدرأ عنها العذاب ، وهو أن تقابل شهاداته بشهادات أربع مثلها ، وتأتى فى الخامسة بمـا هو أشد من خامسته ، وهو اسـتحقاقها غضب الله إن كان من الصادقين . والغضب أشد من اللعنة ، فإن اللعنة هى الطرد والبعد من الرحمـة ، وأما الغضب فهو السخط وإنزال المقت والعذاب ، ولايلزم من البعد عن الرحمـة إنزال السخط ، كما تقول : فلان لايستحق منى عطفا ، ولـكن لا أريد أن أضره . وإن كان الحرمان من رحمة الله ممـالاقبل لمخلوق باحتماله . فلمـا كانت هى أصل البلية ومنشأ هـذا الفجور بأطماعها وخيانتها أمانة من ائتمنها ، غلظ عليها باستيجابهـا الغضب على نفسها .

هذا على فرض كذبها . وعلى فرض كذبه هو يكون الواقع منه سب البرىء ، وهو أهون من ارتكاب فاحشة الزنا ، ولذلك اكتفى منه باستيجاب اللعنة على نفسه . وقد ذكر الفقهاء فى حكم اللعان أنه يجب التصريح بالمشهود عليـه ، وهو إرداف كلمة من الصادقين ، أو من الكاذبين بكلمـة «فيما رماها به من الزنا» ، ليكون المحلوف عليه ، أو المشهود عليـه واضحا جليا لالبس فيه ولا احتمال للتأويل والمخلص ، وهذا شأن مايجرى بين الناس فى كبريات الأمور ومخاطرها حتى لايكون عرضة للتلاعب بالتأويل . ولاينافى هذا عدم التصريح به فى الآية الكريمة ، لأن الآية من باب التعليم ، وذلك كاف فيها . وحسن الحذف أن الشنائع المستنكرة مما يحسن أن يصان عنه اللسان والسمع .

والتعبير بهذه الصيغة ، وهى « إن » المعقبة بلام التوكيد ، وجعل الخبر من الصادقين ، فيه من التأكيدات مافيه ، فانّ واللام أمرهما ظاهر ، وعبارة من الصادقين زيادة فى التوكيد ، كأنه جعل وصف الصدق ثابتا له يعرف به حتى ينخرط فيمن عرفوا بوصف أنهم صادقون.

وقراءة حفص برفع أربع والخامسة وتشديد أن ، وقرىء بنصبهما ، وقرئ بتخفيف أن ورفع لعنة .

وقوله تعالى : «ويدرأ عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين . والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين» يفيد أن العذاب والحد والرجم قد استحق عليها بلعان الزوج ، ولكن لها مخلص إذا سلكته تدفع عن نفسها ماوجب عليها ، وذلك مأخوذ من قوله : « ويدرأ عنها العذاب» فالدرء الدفع ، وإنما يكون بعد توجهه . وكلمة العذاب بأل تفيد أنه ذلك العذاب المستحق على مرتكب تلك الجريمة ، وهو الرجم إذا كانت محصنة .

وقد ورد أنه صلى الله عليه وسلم وعظهما أولا ، وخوفهما عذاب الآخرة ، فلما جاء دورها أعاد عليها العظة ، وقال : إن الرجم فى الدنيا أخف من غضب الله فى الآخرة . وروى أنه أمر من يضع يده على فيهما عند الخامسة ليحول بينهما وبين التورط فيما اندفعا فيه ، وليترك لهما فرصة للتبصر عساهما يتعظان ويرجعان ، ولكنها تمادت . وقد أخذ من ذلك أنه يسن للقاضى ألا يتركهما واندفاعهما ، بل يذكرهما ويعظهما ويسهل لهما سبيل الرضا بالحد ، بل يهيىء لهما فرصة ، وبخاصة عند الشهادة الخامسة .

ومتى لاعن الزوج حرمت عليه وقضى بالتفريق بينهما ، فقيـل الفرقة بتفريق القاضى ، وقيل مجرد اللعان موجب للفرقة وإن لم يقل القاضى فرقت ، ثم قيـل : إنها حرمة مؤبدة ، وقيل كالطلقة البائنة يجوز له أن ينحكها اذا عاد وكذب نفسه وحد . وقد قرىء بتخفيف أن ورفع غضب ، وقرىء بتخفيفها ولفظ غضب بصيغة الماضى .

ولما كان هذا الأمر على شناعته لابد من الابتلاء به. فان الانسان هو الانسان ، والشيطان هو الشيطان، والاغواء دأبه، وضعف الانسان وانهزامه أمام جيوش الشهوات ووساوس الشيطان لابد أن يكون ولو على وجه الندرة ،كان من الرحمة والفضل هذا التشريع ، فقال تعالى : «ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله تواب حكيم » . والفضل هو الزيادة فى الاحسان ، والرحمة هى الصفة التى يكون أثرها الاحسان . وكأن الاتيان بها بعد لفظ الفضل لبيان أن هذا الاحسان الذى تشهدون آثاره هو ناشىء عن صفة ذاتية لدى الحق جل جلاله ، لا يخشى عليه الانقطاع ، ولا يعتريه النفاد

وقوله : «وأن الله تواب حكيم » معنى التواب حين يسند الى الله تعالى ، الذى يقبل التوبة من عباده كثيراً ، فكلما تاب العبد توبة صادقة قبلها منه وإن وقع بعد ذلك فى جريمة . والحكيم الذى يراعى الحكمة فى أفعاله وأحكامه . وإنما حذف جواب لولا للاشارة الى أنه مع علمه على وجه إجمالى ، فهو مما لاتحيط العبارة بتفصيله ، ولتذهب

النفس فيه كل مذهب ممكن ، ورب محذوف هو أوسع دلالة من مذكور . وكأن المعنى : ولولا ماحفكم من فضل الله ومزيد إحسانه وأن ذلك مصدره الرحمة الذاتية التى كتبها ربكم على نفسه ، وأنه يعرضكم للتوبة ويفتح لكم سبلها ، ويهيء لكم فرصها ويقبلها منكم ، وأنه يراعى المصالح والحكم فى أحكامه ، لو لا ذلك كله لكان ما كان مما لاتطيقونه ولاتحتملونه ، ولاتحيط به العبارة . فقد تفضل عليكم بفتح المخلص من تلك الورطات الكبرى ، ورطة أن يفجأ الرجل بأشد ما يكره فى أعز مايحتفظ به ، فان قتل مهاجمه قتل به ، وإن سكت سكت على مالا يطيق عليه صبراً . وإن تكلم استوجب حد القذف وردت شهادته بين المسلمين ، فتفضل عليكم بتشريع هذا الحكم المنقذ له رحمة منه وفضلا ، ولم يهمل شأن المرأة ، وقدتكون مظلومة ، ففتح لها باب المخلص تدفع عن عرضها وشرف قومها ، فشرع لها اللعان ، ورحمهما معا بالستر على الكاذب منهما فى الدنيا ، وتعريضه للتوبة ، وربما صدق فيها فأحرز مع ستر الدنيا المغفرة فى الآخرة .

فأى حكمة ورحمة أوسع من هذا ؟ فهو الحكيم العليم ، التواب الرحيم نسأله أن يمن علينا بالدخول فى واسع رحمته ، وأن يجملنا بادراك سر حكمته فى شريعته ، فهو الوهاب ، لا مانع لما أعطى ، بيده الخير ، وهو على كل شىء قدير .

(إن الذين جاءو بالافك عصبة منكم لاتحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم لكل امرىء منهم ما اكتسب من الاثم . والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم . لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً وقالوا هذا إفك مبين . لولا جاءو عليه بأربعة شهداء فاذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون . ولولا فضل الله عليكم ورحمته فى الدنيا والآخرة لمسكم فى ما أفضتم فيه عذاب عظيم . إذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ماليس لكم به علم وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم . ولولا إذ سمعتموه قلتم مايكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم . يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبداً إن كنتم مؤمنين . ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم) : الافك

سبب النزول — كان من عادته صلى الله عليه وسلم اذا خرج الى غزاة أن يقرع بين نسائه ، فأيتهن خرجت عليها القرعة اصطحبها معه فى سفره ، فلما أراد الخروج لغزوة بنى المصطلق أقرع بينهن فخرجت قرعة أم المؤمنين عائشة بنت أبى بكر الصديق رضى الله عنهما ، فسافرت معه ، وكان ذلك فى سنة ست من الهجرة بعد نزول آية الحجاب ، فلما فرغ من الغزاة وقفل راجعا الى المدينة نزل منزلا قريبا منها . ثم أمر بالرحيل فمشت رضى الله عنها حتى جاوزت الجيش لقضاء بعض شأنها .

ثم أقبلت الى رحلها فافتقدت عقدا لها كان فى عنقها ، فرجعت تلتمسه حيث كانت ، فحبسها ابتغاؤه ، وجاء الرهط الذين كانوا يحملون هودجها فرحلوه على بعيرها وهم يحسبونها فيه ، وكانت حديثة السن ، والنساء اذ ذاك خفيفات اللحم ، فلم يستنكر القوم خفة الهودج ، فلما وجدت عقدها ورجعت إذا بالجيش قد سار وليس بالمكان داع ولا مجيب ، فأمت المنزل الذى كانت به ظانة أنهم سيرجعون اليها حين يفقدونها ، فجلست حتى غلبها النوم .

وكان صفوان بن المعطل السلمى يتخلف عن الجيش عادة ليتتبع منازلهم بعد رحيلهم عسى أن يكون أحدهم قد نسى شيئا فيحمله الى المنزل الآخر ، فلما أقبل عليها عرفها ، وقد كان يراها قبل نزول آية الحجاب ، فأناخ راحلته بجوارها وولاها ظهره ، وأخذ يسترجع ، شأن المؤمنين الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون ، فاستيقظت على استرجاعه فوجدت الراحلة بجانبها فركبتها ، وأخذ هو بزمام الناقة يقودها لكى لا يقع بصره عليها حتى وافى القوم وهم نزول فى المنزل الآخر ، فمر بجماعة فيهم المنافق عبدالله بن أبى ابن سلول ، فسأل فقيل هذه عائشة ، فقال كلمة الافك ، وفتن بكلامه نفر من المؤمنين ، فلما قدموا المدينة مرضت عائشة ، ومكثت شهرا لاتدرى مايقول الأفاكون ، قالت : وما كان يريبنى من رسول الله صلى الله عليه وسلم سوى أنى لم أكن أرى منه اللطف الذى اعتدته منه اذا كنت أشتكى ، فكان يدخل فيسلم ويقول : كيف تيكم (وتى إشارة للمؤنث) ثم ينصرف ، فلما نقهت خرجت مع أم مسطح لبعض شأنهما ، ولم يكن من عادتهم اذ ذاك اتخاذ

الكنف فى البيوت . فلما رجعنا عثرت أم مسطح فى مرطها ، فقالت : تعس مسطح ! وكان مسطح أحد الخائضين فى الافك . فقالت لها عائشة : بئس ماقلت أتسبين رجلا شهد بدرا ! قالت : أولم تسمعى ماقال ؟ قالت وماقال ؟ قالت : أما إنك من المحصنات الغافلات ، إنه يقول كيت وكيت ، وأخبرتها بافكهم ، فعاودها المرض أشد مما كان ، فدخل صلى الله عليه وسلم وسأل عنها كعادته فاستأذنت منه أن تأتى أبويها ، تريد أن تستيقن الخبر من قبلهما ، فأذن لها ، فأتت أمها وسألتها : مايتحدث الناس ؟ فقالت : يابنية هونى عليك فقلما كانت امرأة وضيئة عند رجل ولها ضرائر إلا أكثرن عليها ، فقالت : سبحان الله ولقد تحدث الناس بهذا ! وملكها البكاء ليلتها لا يرقأ لها دمع ولا تكتحل بنوم ، ومكثت هكذا ليلتين ويوما .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم استشار بعض الصحابة فى ذلك فمنهم من قال : والله مانعرف عن أهلك إلا خيراً ، ومنهم من قال : لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثير وإن تسأل الجارية تصدقك ، فسأل بريرة فقالت : والذى بعثك بالحق ماعلمت عليها أمراً أغمصه أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها فتأتى الداجن فتأكله ، فقام صلى الله عليه وسلم حتى أتى المسجد وصعد المنبر وقال فيما خطب : يامعشر المسلمين : من (١) يعذرنى من رجل قد بلغنى أذاه فى أهل بيتى ؟

(١) أصل معناه من يقيم لى العذر إن بطشت به وتكون إجابة سعد الآتية مبالغة فى إقامة العذر . إذ قد خلفه فيما يريد أن يفعله .

فوالله ماعلمت على أهلي الاخيراً — يريدعبدالله بن أبي — فقام سعد ابن معاذ وهو سيدالأوس فقال : أناأعذرك منـه ، إن كان من الأوس ضربنا عنقه ؛ وإن كان من إخواننا الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك ؛ فرد عليـه سعد بن عبادة سيد الخزرج وقد ملـكته الحمية وذكرى أيامهم الماضية التي أنقذهم الله منها وألف بين قلوبهم — وللشيطان مسالك ولـكن لايلبث الايمان أن يتغلب عليها — ثم تحرش الحيان بعضهما ببعض حتى همّا أن يقتتلا ، فخفض بينهما صلى الله عليه وسلم حتى سكتوا ؛ ثم دخل صلى الله عليه وسلم عليها وهي في بيت أبويها فتشهد ثم قال :

أمابعدياعائشة فقد بلغني عنك كذاوكذا ،فان كنت بريئة فسيبرئك الله ؛ وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي اليه ؛ فان العبداذاتاب تاب الله عليه . قالت : فلماقضى صلى الله عليه وسلم مقالته تقلص دمعي حتى ماأحس منـه قطرة . وذلك شأن البريء يستشعر بعـزة النقاء والبراءة ؛ ثم قالت لأبيها : أجب عني رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ قال : والله ماأدري ماأقول . وقالت لأمها كذلك فأجابت بمثل جواب أبيها ؛ فقالت : والله لقـد علمت أنـكم سمعتم ذلك القول حتى استقر في نفوسكم ، ولئن قلت لـكم إني بريئة — والله يعلم أني بريئة — لاتصدقوني ؛ وإن اعترفت لـكم بما يعلم الله أني بريئة منه لتصدقني ؛ والله لاأجد لي ولـكم مثلا الاقول العبدالصالح أبي يوسف : فصبر جميل والله المستعان على ماتصفون : واضطجعت على فراشها ؛ قالت : وأنا والله أعلم أن الله سيبرئني ؛ ولـكن ماكنت أظن أن سينزل في شأني وحياً يتلى ؛ ولقد كنت

أحقر في نفسي من هذا ، وإنما كنت أرجو أن يرى صلى الله عليه وسلم رؤيا في منامه يبرئني الله بها ، قالت : فوالله ماقام صلى الله عليه وسلم من مجلسه ولا خرج أحد من البيت حتى أنزل الله الوحي على نبيه ، فأخذه ما كان يأخذه عند نزول الوحي من البرحاء حتى إنه ليتحدر عنه مثل الجمان من العرق في اليوم الشاتي ، قالت : فوالله مافزعت وما باليت ، علما مني ببراءتي ، وأما أبواي فحسبت أن نفسيهما ستخرج فرقا من أن ينزل الوحي محققا ماقال الناس ، فسرى عنه صلى الله عليه وسلم وهو يضحك فقال : أبشري ياعائشة ، أما والله لقد برأك الله . فقالت أمها : قومي اليه ، فقالت : لاأقوم ولاأحمد إلا الله الذي برأني ، فنزلت الآيات العشر : (إن الذين جاءوا بالافك عصبة منكم) وقد كان مسطح قريب أبي بكر : كانت أمه بنت خالة أبي بكر ، وكان أبو بكر ينفق عليه لفقره ، فحلف أبو بكر أن لا ينفق عليه ، فنزل قوله تعالى :«ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولي القربى» الى قوله : «ألا تحبون أن يغفر الله لكم » فقال أبو بكر : بلى والله إني أحب أن يغفر الله لي ، وعاد للنفقة عليه .

ولقد سقنا هذه القصة على طولها ليتبين سبب نزول هذه الآيات ، وليتجلى مافيها من أخلاق كريمة من عائشة وأبويها ، وليظهر أن الذين كانوا يزعمون الايمان وهم خلو منه إبقاء على أنفسهم ، ما كانوا يألون جهدا في تتبع مايؤذي النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وكانت السياسة الشرعية والحكمة في الدعوة مدعاة للكف عنهم حتى لا يقال إن رسول الله يقتل أصحابه .

المفردات — الافك : هو أبلغ الكذب وأبعده عن الصدق . والعصبة : الجماعة المرتبطة بعضها ببعض لغرض يجمعها ، وهى من العشرة الى الأربعين ، وقيل من الأربعة فصاعدا . والخطاب فى منكم ولكم لجماعة المؤمنين . وقوله : «لاتحسبوه» : الحسبان الظن ، ويقال غالبا لظن خلاف الواقع .

والمعنى أن تلك الجماعة التى اختلقت ذلك البهتان وأتت به من عند أنفسها ماخرجوا عن أنهم عصبة منسوبة اليكم ومعدودة منكم ، فلاتثر أنفسكم عليهم كل الثوران ، فالمرء عادة عرضة لأن يصاب من أقربيه ، وأجمل شىء به حينئذ أن يغضى بعض الاغضاء ، ولا يبالغ فى الاستقصاء . والتسلى بهذا المعنى معهود عندالعرب كقول الشاعر :

قومى همو قتلوا أميم أخى   فاذا رميت يصيبنى سهمى

وأيضافانهم عصبة والعصبة جماعة قليلة تعصبت وائتمرت على أمر بيّتته وترابطت عليه ، وفى ذلك تهوين لشأنه ، إذ ليس التحدث به مستفيضا بنفسه بل بيتته قوم محصورون . فالغرض من هذا الاخبار بده التسلية لمن أصيبوا بذلك وهم من وُجّه اليه القذف ومن يتصل به : أى عائشة وصفوان وأبو بكر وزوجه والمصطفى صلى الله عليه وسلم . وقوله تعالى بعد ذلك :«لاتحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم »فيه من التسرية عنهم مايزيل أثر كل حزن ، فكفى بشهادته جل شأنه أنه خير لاشر فيه ، وكيف لا وقد حازت به عائشة رضى الله عنها شهادة ببراءتها يقينا ، وأصبح التصديق ببراءتها وطهارتها جزءاً من إيمان كل مؤمن . ومن

شك فيه فقد كفر ، إذ شك فى خبر الله عز وجل . وفيه التوعد لأولئك الذين اختلقوه باستحقاق كل منهم من الله جزاء ما كسب ؛ فالله القادر القاهر هو الذى تولى عنكم عقوبة من آذاكم ، وخص كبيرهم فى هذا بالعذاب العظيم . وفيه حسن التأديب لعامة المؤمنين بطلب ظن الخير وعدم المسارعة إلى سوء الظن ، والدعوة الى تطهير اللسان وصون الآذان ، والتحرز عن الخوض فى كبريات التهم بلا علم ، وتقدير بينات التهمة بحسب فظاعتها ، حتى لا يتخذ الناس الكيد بالاتهام الكاذب ذريعة للخدش والنكاية بلا حق .

فكل هذا من الخير الذى عاد على المقذوفين ومن اتصل بهم ، وعلى عامة المؤمنين بسبب هذه الحادثة ، ولله فى طى كل مصيبة نعمة ، فسبحان من لا يحمد على مكروه سواه ، إذ فى ضمنه محبوب ورحمة وإن لم يطلع على ذلك صاحبها . ولقد ترى من آثار الخير ما بدا من عائشة رضى الله عنها فيما بيناه فى القصة السابقة من استجماعها قواها وعدم تضعضعها وقت أن جد الجد حين عرض صلى الله عليه وسلم مقالته عليها ، ورجوعها أدبا منها لأبويها ليجيباه ، وتنحيهما عن أن يهجما على البت بأمر لا يتعلق بأنفسهما وإن كان متعلقا بأعز نفس عندهما ، احتراما للحق ، ووقوفا عند حد العلم .

وما أبعد هذا مما نراه متكررا من اندفاع الناس للدفاع عن أبنائهم وذويهم بغير علم ، واجترائهم على الحلف فيما لا سبيل لهم إلى علمه ، إلا مجرد حسن الظن أو ميل القلب لمن يدافعون عنه ! ثم قولها رضى الله عنها:

لقد سمعتم هذا القول حتى استقر فى نفوسكم ؛ وهى قاعدة مقررة أن تكرار القول من شأنه أن يترك كل مرة أثرا فى النفس حتى ينقلب من الانكار إلى الشك إلى الظن إلى الاستقرار ؛ ثم إباؤها التكلم بما لا ترى فى نفس مخاطبيها استعدادا كاملا لقبوله ؛ وردها الأمر إلى الله مستعينة بالصبر ؛ وثقة بمعونته جل شأنه ؛ فهذا مظهر من الكمال العقلى والخلق لم يكن يتجلى لولا هذه الحادثة . وإن من أراد أن يستنبط منها من صنوف الخير ليجده كثيرا ؛ على ما فى القصة من مكروه .

وذكر وعيد الأفاكين بعد بيان أنه خير ؛ لكى لا يبقى فى نفوس من لحقهم هذا الأذى شىء من الأثر ؛ فقد بان خيرهم وانتقم الله لهم ممن آذاهم . وقوله : « لكل امرئ » أتى باللام فى مقام على للاشارة الى أن هذا حق لازم لصاحبه لامفر من استيفائه . والتنصيص على أن الجزاء لاحق لكل امرىء منهم أشفى للنفس من أن يلحق بجملتهم . وغير خاف حال من تولى كبره منهم ؛ والكبر بكسر الكاف ؛ وقرىء بضمها مع سكون الباء فى كل : هو معظم الشىء ؛ وقيل كبر الشىء بالكسر بداءته ؛ وقيل الاثم . والذى تولى ذلك هو عبد الله ابن سلول ؛ وسلول أمه ؛ وكان رأس المنافقين ؛ كان يطمع فى سيادة قومه فلما جاء الاسلام وأسلم الأنصار ولم يقو على مناهضة هذه القوة العظمى انضوى تحت لوائها قهرا ونفاقا ، وما زال الحقد والنفاق يأكلان قلبه حتى مات ؛ وكثيرا ما كشف ستر الرياء عن نفسه الخبيثة ، فما كان يلوح

له فرصة فى التأليب على المسلمين أو إيصال الأذى اليهم الا انتهزها ، وكان مايخفيه صدره أكبر ممايبدو من فيه ؛ وعظم عذابه بقدر عظم جريمته .

« لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً وقالوا هذا إفك مبين » :

لولا للحث على الشيء وتأكيد طلبه ، وبيان أنه كان ينبغى أن يسارع اليه لو تنبهتم الى ما فيه من دواعى الأخذ به ، وتلك الدواعى هى أولا — أن من عمر الايمان قلبه من رجل أو امرأة وأحس من نفسه أنها تأبى الوقوع فى مثل هذا الفحش : ينبغى أن يقيس على نفسه من شاركه فى وصف إيمانه ؛ فقد وحد الايمان بين أنفسهم ، وهذا سر قوله : « ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا» فكأن ما تظن وقوع غيرك فيه ترى فى نفسك أنه قريب الوقوع منك ؛ فهل أنت أيها المؤمن كذلك ؟ وحقا إن المرء يتخذ نفسه غالباً مقياسا لغيره، ويحمل ما يصدر منه على حال نفسه ، كما قال الشاعر :

اذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه وصدق ما يعتاده من توهم

واستفزاز للحمية الرشيدة ببيان أن ما توهموا لحوقه باخوانهم فى الدين فقد جروا بذلك الريبة بمثله على أنفسهم ؛ فكأنهم رأوا الايمان غير كاف فى ردع النفوس عن شرورها ، ثم فيه تربية الأواصر والارتباط بين المؤمنين ؛ وأن أحدهم من صاحبه بمنزلة نفسه فينبغى أن يغار عليها غيرته على نفسه . وقوله : «وقالوا هذا إفك مبين » إرشاد للرد المنتظر ، بأن لا يكتفوا بظن الخير فى أنفسهم ، بل يجب

أن يتبعوه برد الفرية على صاحبها . واسم الاشارة القريب هنا للتحقير كأنه يصور بصورة الأمر الذى لا يتشوف اليه ولا تتبعه النفوس استقصاء، وذلك إنما يكون فى القريب المشاهد . وإفك أى كذب مختلق بلا أصل وقلب الأمور عن وجهها ، ومفاجأة بالبهتان . ومبين أى ظاهر فيه أمارات التكذيب لا يحتاج الى شدة تأمل ، وذلك أن من مقتضى الكرامة اللائقة بمقام النبوة أن تصان فرشهم عن هذا التلويث المزرى بمقام صاحبه ، وأنه إذا جاز أن تكفر امرأة نبى كامرأة نوح وامرأة لوط ، فلن يجوز أن تفجر امرأة نبى وهى على فراشه ، فان الكفر وإن كان أشد جرما من الفحش ولكن هذا الفحش أكبر منه عاراً ، وأشد تنفيراً ، وأوجب للاحتقار فى نظر الناس ، والأنبياء مصونون عن أن يلحقهم مايزرى بمقامهم ، ويهد من كرامتهم . ثم منبت عائشة رضى الله عنها ونشأتها وما عرف من خلقها وعقلها بين فى أنها رضى الله عنها أبعد فى نظر كل عقل عن أن تحوم حولها الشبه

على أن صدور هذا الافك عن قوم عرفوا بالنفاق ولهم سوابق فى الكذب والبهتان أمارة على أن ماجاءوا به كذب وافتراء، ومتى كانوا صادقين حتى يصدقوا فى هذا ؟ فكل ذلك من وجوه ظهور أن هذا إفك ماكان ينبغى أن يحل فى نفوس المؤمنين محل أن يغيظهم . ولا يعكر على الوجه الأول ، وهو أن هذا لا يحتمل فى مقام الأنبياء ، كونه صلى الله عليه وسلم اختلفت عادته فى ملاطفتها حال مرضها ، وأنه سألها ذلك السؤال أمام أبويها ، فهذا إنما كان من ضيق صدره عليه

السلام بكلام الأفاكين. وقد قال تعالى : « ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون » لا أنه تطرق اليه ريبة فى أهله ؛ فقد قال فى خطبته: والله ما علمت على أهلى الا خيرا ·

« لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء ؛ فاذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون »:

هذا من تأكيد فظاعة الأمر الذى اختلقوه ، وأنه من القذف الذى لا يحل أن يقدم عليه امرؤ أو أن يؤخذ به إلا اذا كان له من الحجج ما يناسب عظمه وفداحته ؛ وفى ذلك تأديب وتربية على أن تعطى كل دعوى ما يناسبها من الحجج . وقد شرحنا ذلك فيما سبق فى تفسير آية القذف . وقوله :« فاذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون » تقرير لكذبهم وتعليل له ؛ لأنه تعليق · فالمعنى هم الكاذبون عند الله فى هذا ؛ وكان حقكم أن تعرفوا كذبهم أو ألا تنخدعوا فى قولهم ؛ لأنهم لم يأتوا بالشهداء ؛ فليس هذا من باب عجز المدعى عن الاثبات ؛ وهو لا يستلزم الكذب ؛ بل من باب لوم من انخدع بكلامهم فى غير مظان الخديعة . والاشارة اليهم بأولئك لاستحضارهم بصفاتهم التى بها استوجبوا تسجيل الكذب عليهم ؛ بل انحصار الكذب فيهم ، كما يستفاد من الجملة المعرفة الطرفين المشتملة على ضمير الفصل ؛ كقولهم : هذا هو القاتل ؛ أى لا قاتل غيره ؛ فكأن كذبهم لشدة شناعته قد استأثر باستحقاق اسم الكذب ولا كذب غيره . ومثله قولهم : هذا هو الرجل أى لا رجل سواه . وكلمة (عند

الله) أى فى علمه وفى الواقع : فيها مزيد تقرير وتثبيت لهذا الحكم ، فأى أمر هو أثبت مما فى علم الله ؟ وعلى هذا يكون الكلام فى مورد القصة بعينه ، وهو قذف أم المؤمنين رضى الله عنها ، وتكون لولا للتبكيت والتأنيب لا للحض والطلب

وفى الآية وجه آخر وهو الحمل على العموم بحيث يشمل هذه القصة وكل مايماثلها من نوعها ، وإذاً تكون لولا لبيان مايطلب فى مثل هذه الحال . وقوله : «فاذلم يأتوا بالشهداء » الخ : يكون معناه أن من قذف ولم يقم البينة المطلوبة فهو كاذب عندالله : أى حكمه فى شريعة الله حكم الكاذب يقينا ، فيقام عليه حد الكاذب ، وإن فرض صدقه فى الواقع . فمعنى (عندالله) أى فى حكم شريعته ، والوجه الأول أنسب بالسياق .

«ولولا فضل الله عليكم ورحمته فى الدنيا والآخرة لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم » .

لولا هنا للربط والتعليق ، وهى التى يقال فيها حرف امتناع لوجود : أى دلت على ربط عدم مس العذاب بوجود الفضل والرحمة . والفضل : الزيادة فى الجود والكرم ، والرحمة : الرأفة ، وكلاهما فى الدنيا — : بافاضة النعم التى منها الامهال للتوبة والارشاد لطرق الخير ، وفى الآخرة بقبول توبة التائبين وإثابتهم على امتثال أوامره : وقيل: إن « فى الدنيا » يرجع للفضل «والآخرة» يرجع للرحمة ، ولاداعى له . والتعبير بالمس لتهويل شأن العذاب وأنه يكفى فى الازعاج به مسه ، لا التهوين الاصابة به . والافاضة : الخوض مع الاكثار ، كأنهم زادوا فى حديثهم حتى فاض

من جوانبهم كما يفيض الماء من جوانب إنائه . ووصف العذاب بالعظم ليكافىء عظم الخطب الذى وقعوا فيه . والخطاب لعموم الخائضين وإن كان فيهم ابن سلول ؛ فانه داخل فى الفضل والرحمة فى الدنيا ؛ وقد هيئا له فى الآخرة ففوتهما على نفسه باصراره بعدما تبين الحق . ويجوز أن يكون الخطاب لعامة المؤمنين على معنى أن هذا الذى وقع فيه من وقع لولا فضل الله ورحمته لكان من موجبات عموم العذاب ؛ كأنه من الفتن التى لا تختص نتائجها بالذين ظلموا . وقيل الخطاب للخائضين غير ابن أبى

وفى الآية نوع آخر من الخير وهو تنبيههم على نعمة الله عليهم ورحمته التى يجب أن يشكروها ويعرفوا قدرها فلا يغتروا بامهال عقوبته حتى يأمنوا مكر الله ، وإذا تورطوا فى معصية فلا ييأسوا من روح الله . فهذا ما فيه الخير لعامة المؤمنين ؛ وأما الخير الخاص بالمقذوفين ومن يتصل بهم ؛ فحسبك منه هذا التنويه العظيم بشأنهم ، إذ كاد سوء عمل أولئك القاذفين يرديهم فى سوء العذاب باقامة الحد لولا فضل الله ورحمته

«إذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم» :

اذ ظرفية متعلق بمسكم ؛ وفيها معنى التعليل ؛ فان ربط الفعل بوقت حادثة مشعر بأن حصوله بسببها ؛ أى مس العذاب لتلقى ذلك القول . والتلقى والتلقف والتلقن متقاربة المعنى ؛ أى أخذ الشىء بحرص واعتناء ؛ الا أن فى التلقى معنى الاستقبال له والتهيؤ لأخذه ، وفى

التلقف معنى السرعة فى الالتقاط . وفى التلقن معنى الحذق فى تفهمه واستقصائه. وقوله : «بألسنتكم» معناه أنهم كانوا حين ملاقاة بعضهم بعضاً يستثير أحدهم الآخر بسؤاله ماوراءك ؟ فكان يتلقى ذلك القول ويجتذبه بلسانه ، لا أنه مجرد سماع عفواً ، وبهذا يظهر ما فيه من معنى الجرم الذى هو أكبر من مجرد السماع أو الاسماع . وقوله :« وتقولون بأفواهكم » معناه أن هذا القول لم يكن له محل فى قلوبكم وأمارات تقره فى نفوسكم ، بل هو قول اذا رجعتم الى أنفسكم لا تجدونه يتجاوز أفواهكم ، فما لأحد منكم به من علم . فالتقريع فيه من جهة الاقدام على مالا علم فيه ، فهو كقوله تعالى : « يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم ». ويجوز أن يكون تشنيعاً عليهم ، كقولك : تقول هذا بفمك أو بملء فيك : أى تجاهر به ولا تخشى ما فيه من ضرر وخطر .

وقوله: « وتحسبونه هيناً » تنبيه على جرم آخر وهو استهانتهم بما وقعوا فيه ، فالمؤاخذة فيه فى ثلاثة مواضع : تلقى ذلك بالسؤال عنه ، وأنهم يقفون ما ليس لهم به علم ويملؤن به أفواههم ، واستهانتهم بما صدر منهم فلا ينعطفون الى الاستغفار والاقلاع مع عظمه عند الله . والخير فى ذلك لعامة المؤمنين : التربية والارشاد الى قبح ما وقعوا فيه : ليتعلموا دقائق الأعمال وما تحتويه من خطر حتى لا يترددوا فى مثلها فى المستقبل ، وآثار ذلك الارشاد واضحة جلية ألمع الى شىء منها فى الآية التالية ، وهى قوله جل شأنه : «ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم » فان فيها

تنبيهاً على ما كان ينبغي أن يصدر منهم حين سماعه من التحرز عن التكلم به فضلا عن الافاضة فيه ، وتلقيه بألسنتهم بحثاً عنه وجريا وراءه . ولولا هنا للحث المصحوب باللوم ، اذ كان حقهم أن يتفطنوا له من أنفسهم ، فان دلائله واضحة . فان فيه إيذاء لرسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد قال تعالى : «إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة » ، وقذفا لأم المؤمنين وما عهد عليها ولا على أحد من بيتها ما يريب ، وإقداما على ما يضر المقدم عليه بلا احتمال لنفعة عاجلة ولا آجلة ، ومثل هذا لاينبغي أن يصدر من عاقل فضلا عمن ملك الايمان قلبه ، وافتياتا بلاعلم على ثلم شرف هو أعز على صاحبه من كل شيء ، فكل هذه الوجوه كان من حقها أن تؤدى الى أن يقولوا : «ما يكون لنا أن نتكلم بهذا».وهذا من أبلغ طرق التربية والتعليم للمسالك التي يحسن بالمؤمن سلوكها ، والطريق التي يليق به أن يترسمها في كل شئونه . وقوله بعد ذلك : « سبحانك » فيه أولا تنزيه الحق جل جلاله عن أن يرضى لأكرم الخلق عليه صلى الله عليه وسلم بحلول هذه النقيصة بألصق الناس به ، أو أن يرضى عن طغيان أولئك الأفاكين . وقوله : « هذا بهتان عظيم » أصله من بهته اذا فاجأه بكذب مختلق بلا أصل ولا يخطر على البال، فان المرمي بهذا يبهت ويدهش، وعظمه لعظم خطره وشدة وزره

هذا وقد روى أن بعض الصحابة رضى الله عنهم حين سمع هـذا قال : ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم . فكان

فى الآية إشارة إلى حسن التأسى بهم ووجوب التفطن لما هو الأعظم قبولا فى نظر العقل ، والأشد انطباقا على الأخلاق الشرعية . ولا يعكر على هذا ما بدا على أبى بكر وزوجه من الجزع ، فما كان ذلك لريبة لحقتهما ، وإنما هو التأذى مما أصيبوا به من الكلام البذىء بلا وجه حق . وقد روى أن أبا أيوب قال لزوجه : ألا ترين مايقول الناس؟ فقالت : لو كنت مكان صفوان أكنتَ تظن بحرم رسول الله سوءا ؟ قال : لا ، قالت : ولو كنتُ مكان عائشة ما خنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعائشة خير منى وصفوان خير منك . فقال أبو أيوب : ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم .

«يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا إن كنتم مؤمنين ، ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم» :

هـذا كالنتيجة للآيات السابقة ، وإفادة أن ليس الغرض منها مجرد التقريع والتوبيخ ، وإنما يقصد منها العظة والتعليم حتى لا تقعوا فى مثل ما وقعتم فيه بلا تبصر . وقوله : «أبدا» أى ما دمتم أحياء . واقترانه بأن كنتم مؤمنين ، لبيان أن ذلك مقتضى الايمان وثمرته ، فاذا لم تتعظوا به فان الايمان لم يملك قلوبكم ولم يؤت ثمره فى نفوسكم . وقوله : «ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم» حث للعقول على التدبر فى أحكامه وحكمه ، ليعين ذلك على قبول النفس لها وعظم رغبتها فى الامتثال . وتكرار لفظ الجلالة فى الآية الكريمة لتمكين ذلك فى النفس فضل تمكن . والعليم : المحيط بكل شىء ومايترتب عليه . والحكيم : الذى يضع الأمور فى نصابها وتستتبع أفعاله الفائدة والثمرات المقصودة منها

الوعيد على إشاعة الفاحشة فى المؤمنين

(إن الذين يحبون أن تشيع الفحشة فى الذين آمنوا لهم عـذاب أليم فى الدنيا والآخرة ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون . ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رءوف رحيم . يأيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ، ومن يتبع خطوات الشيطان فانه يأمر بالفحشاء والمنكر ، ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبدا ، ولكن الله يزكى من يشاء ،والله سميع عليم):

وهذا باب آخر من أبواب الخير الذى أنعم الله به على الأمة بسبب هذه الحادثة الشديدة : حادثة خوض من خاض فى أم المؤمنين رضى الله عنها : ذاك هو هدايتهم الى شدة خطر هذا الجرم وعظيم هوله ، وقد كانوا يحسبونه هينا وهو عند الله عظيم . وإنك لاتجد من أنواع الجرم ما يقدم عليه صاحبه غافلا عن عظيم خطره إلا جرم اللسان : وكأن سهولة حركته بطبعه ، ولذة التحدث بالأمور المستغربة ، وحسبان أن الكلام لم ينتقص من المتكلم فيه شيئا محسوسا يذكر ، مع اعتياد الناس التساهل فى القول والسماع : كل أولئك جعل الناس يحسبونه هينا وهو عند الله عظيم .

إن من شاء أن يشهد عظمه يرجع الى ما يجده من نفسه حين ينقل اليه أن فلانا نال بكلام يكرهه وإن كان صادقا ، فانه يجد من غليان

دمه وثوران نفسه ورعدة جسمه مايحمل على الجزم بأنه لو تمكن منه ما أبقى عليه . فاذا كظم غيظه كظمه على حقد وحرض . وتربى له فى نفسه من المقت والكراهية ما يجعله يتربص به الدوائر . ويسره أن يراه فى أشد مكروه ؛ هذا إذا لم يشغل فكره فى الانتقام منه . وناهيك بضرر نزع الرحمة من قلوب متحابة ونفوس متآخية . هذا كله فى الكلام المستكره مطلقا ، فما بالك بالكلام فى العرض وهو مستقر الشرف ومستودع الحياة الحقيقية ؟ وكيف إذا كان من ينال من عرضه سيدة محصنة ؟ وكيف اذا كانت من أشرف الخلق صلى الله عليه وسلم بهذه المنزلة ؟ أفليس العقل لأول نظرة ، وأدب الدين لمن تمكن الايمان من قلبه ، يقتضيان أن يقولوا : ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم ؟

والشيوع : الانتشار . والفاحشة والفحش : الجرم المخزى المعيب ؛ وقد يكون الجرم شديدا كالقتل والكفر ولا يسمى فحشا وفاحشة . فانك لا تجد القاتل يلحقه من العار والخزى والاستخذاء وتنكيس الرأس خجلا وعارا مثلما تجده فيمن رمى بتلك الفاحشة . وإن أسلوب الآية من ربط العذاب الأليم فى الدنيا والآخرة بمحبة الشيوع مع أن الظاهر أن يقال : إن الذين يشيعون الفاحشة الخ . فيه مبالغة فى الزجر والتهويل ؛ وكأنه يقول : إن المحبة لهذه الخطة المرذولة والرضا بها موجب للعذاب فى الدنيا والآخرة . فكيف بالخوض فيها والعمل على نشرها بالفعل ؟ (وترتيب العذاب على محبة الجريمة المستلزمة

الاصرار عليها لا ينافي قولهم : إن الهم بالمعصية ثم تركها لاعقوبة فيه) . وهو في هذا منبه للمؤمن على أصل الداء من نفسه، وهو محبة هذا الأمر الشنيع الفظيع ؛ فمتى تنبه لأصل الداء عمل على المداواة منه ، واستأصل شأفة العلة قبل بدو آثارها . وإن فيه مع الارشاد الى العلاج الحاسم تنبيها لمنشأ المرض ؛ وهو ميل النفوس بفطرتها الى التسامي في الشرف والمجد ، وأن تفوق غيرها في كل فضيلة، فاذا شعرت بنقيصة عند الغير رأت ذلك موافقا لرغبتها وأثرتها ؛ وهو انفرادها بالطهارة حيث تدنس الغير؛ فيسترسل في الجريمة وهو لا يشعر . فانظر الى هذا التأديب العجيب والاعانة على تعرف مكمن الداء ليستأصل بأسهل دواء ؛ سبحانك لا نحصى ثناء عليك .

وإنك اذا تأملت في تعليق الشيوع بالفاحشة نفسها مع أن المراد شيوع خبرها والحديث فيها ؛ وجدت بابا آخر من الارشاد ؛ ذلك أن الأسماع التي لم يطرقها حديث الفحشاء تجد أصحابها في أكمل نفرة من خطراتها على نفوسهم ؛ فاذا ما طرق سمع أحدهم حديث فحش مرة اشمأزت نفسه وأكبرت الأمر ، وملكه من الهلع والذعر الشيء الكبير . فاذا ما تكرر على سمعه مرة أخرى كان اشمئزازه أخف ونفرته أقل . فلا يزال يتكرر حديث الفحش حتى يصبح أمرا مألوفا لا يستنكره ولا ينفر منه ، وقد يزيد حتى يستمرىء الحديث ويصغي اليه ؛ وهنا تنفتح أمامه هوة التدهور فيتردى فيه ؛ وقد مات حارسه وهو عاطفة الاستنكار والنفرة . فترى بذلك أن حب شيوع الحديث كحب شيوع نفس الفاحشة .

فلاجرم عبر به عنه . ومما يزيدك استبصارا فى هذا ماترى من تحرج الآباء عن ذكر مثل هذه الأخبار أمام أبنائهم الأحداث . فما ذاك إلا لما وقر فى النفوس من أن ذكر الفحش يلفت النفوس اليه فيردى فيه . وهل يشك أحد فى أن من أساليب الترغيب فى الشيء خيرا كان أوشرا تكرار ذكر حوادثه وتفاصيل شئونه ؟ وهل يربى الشجاعة والكرم فى النفوس مثل أخبار الشجعان والأجواد ؟ فهذا من سر التعبير بقوله :« يحبون أن تشيع الفاحشة » الخ .

واذا كان ذكر الفاحشة مستكرها على كل حال فان للتعبير بهذا اللفظ هنا جمالا ياله من جمال : فقد بين به مايحمل على النفرة منه : واختير على لفظ الزنا تحاميا عن ذكره فى هذا الموطن ولو بطريق النفى مبالغة فى تطهير من جاءت هذه الآيات لتطهيرها ، ثم ليعم جميع أنواع الفحش .

وأما قوله جل شأنه :« فى الذين آمنوا » ففيه إثبات ماهو كدليل البراءة للمرميين والتكذيب للأفاكين ؛ وهو إيمان من وجه اليهم هذا الرمى الشنيع ، وما كان المؤمن الصحيح الايمان مظنة لهذه المنكرات ، كما أشير الى ذلك بقوله عزوجل فيما تقدم :« لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا » . وفيه مع هذا لفت نظرهم الى مافى أنفسهم مما يمنعهم من هذا الفحش : وإنهم ليجدون من أنفسهم أن إيمانهم يمنعهم من مقارفته : فحقهم أن يقيسوا إيمان من رموهم على إيمانهم : وهذا كما يفهم من التعبير عن المرميين (بأنفسهم) فى الآية السابقة .

وقوله : « لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة » قالوا : إن التعبير بأنهم

فيه إشارة الى أن هذا حق من حقوقهم ملازم لهم لايعدوهم ولا يخلصون منه؛ فهو نصيبهم من عملهم . والعذاب المتوعد به في الدنيا شامل لحد القذف ، ولما يصيب المتعرض للأعراض غالبا من مصائب الدهر ؛ ولحوق المخزيات ؛ وتسليط الألسنة على عرضه تثير منه ما كمن بالباطل وبالصحيح ، ومن غربل الناس نخلوه ؛ ومن فتش عن عوراتهم فضحوه ؛ ومن لايتق الشتم يشتم . أما عذاب الآخرة فهو أشد وأبقى . ويبين جانبا من خطره ما شرحناه آنفا في شديد وزره وقبح أثره . فالجزاء على قدر العمل .

وأما قوله تعالى : « والله يعلم وأنتم لاتعلمون » فهو تتميم لهذه الارشادات منزل منها منزلة قوله فيما سبق : « وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم ». كأنه يدفع بها خاطر من يظن أن مجرد الكلام كثير عليه أن يستتبع كل هذا الوعيد ؛ فما خرج عن أنه كلام ؛ والكلام فيه الصادق وفيه الكاذب ؛ فجاءت هذه الجملة الجميلة لتبين لهم أن الله عليم بالأعمال وآثارها ، وما يترتب عليها في نفس من وُجهت اليه ، وفي نفس من وجهت منه ؛ وفي نفس السامعين ، من مضار كثيرة ، وقد أشرنا فيما سبق إلى شيء منه ؛ فكأنه تعالى يدعونا الى أن نتمسك بهدايته فيما تبين لنا وجه الحكمة فيه وفيما خفي علينا ؛ فهو العليم الحكيم ؛ وهو الرءوف الرحيم ؛ فلا تتركوا علمه الحق الى أوهامكم الباطلة ؛ فلذلك أردفها بقوله جل من قائل : « ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رءوف رحيم » فقد تفضل عليكم وأرشدكم الى ما فيه خيركم ؛

وزجركم عما يقطع أوصالكم ، وينفر قلوبكم بعضكم من بعض ، ويربى الضغينة والتقاطع والتدابر فى نفوسكم ، وأقل ثمرة من ثمراته أن يجعل أحدكم يحب الضرر لصاحبه ، ويجعله يفرح به ولو لم يكن من ناحيته ، فكفى بهذا شؤما ، فضلا عما ينشأ عنه من استهتار النفوس الضعيفة فى الفحش ، واستهانتها بالوقوع فيه ، لتكرار ذكره أمامها ، أو لنسبته الى من كان يظن فيه الخير ، فيقول فى نفسه : وأين أنا من هذا ؟ اذا كان هو قد حصل منه فلم لا يحصل منى ؟ فيكون بأس المربى !

ولا تتوهم أن فى قوله : « وأن الله رءوف رحيم » تكراراً مع قوله : « ولولا فضل الله عليكم ورحمته » فان فى الأول ذكرا للآثار اللاحقة بالعباد والرحمة المسبغة عليهم تفضلا منه وإحسانا ، وفى الثانى ارتقاء بذهنهم ليشهد واصفته تعالى الثابتة القارة التى هى مصدر تلك الآثار وعنها تنشأ جميع النعم ، هذه الصفة التى يقرّب فهمها قولهم فى جانب المخلوقين : ملكة راسخة فى النفس . فكأنه لفت نظرهم أولاً للآثار المتجلية الواضحة ، واستطرق الى ماهو منها بمنزلة المدلول من الدليل ، وهو صفة الرحمة القائمة به تعالى . وحذف جواب لولا يفيد مالا يفيده أى ذكر ، فكأنه قيل : لولا الفضل والرحمة لوقعتم فى أشد المهالك ، ولضلت بكم المسالك ، ولكان بعضكم على بعض شراً ووبالا ، ولساءت حياتكم حالا ومآلا ، فالحمد لله على فضله ورحمته .

«يأيها الذين آمنوا لاتتبعوا خطوات الشيطان ومن يتبع خطوات الشيطان فانه يأمر بالفحشاء والمنكر» :

هذا إرشاد جديد، وتنبيه أوسع دائرة مما سبق، وتحذير من عدو بعيد وهو الشيطان، بعد التحذير من العدو القريب وهو النفس، فقد أشير في الأول الى بعض أسباب هذه الجريمة ، وهو محبة النفس وميلها الى الاستئثار بالشرف، والانفراد بمجد الطهارة ، وبيّن لهم ما في هذا الأمر الذى تحبه نفوسهم من طلائع المقت والغضب الالهى، والعذاب الأليم في الدنيا والآخرة . وأشير هنا الى سبب آخر وهو ما يلقيه الشيطان من الوسوسة في النفوس والهواجس المنكرة ، وأن له تحديثا خفيا مع النفوس المصغية اليه، فيوقع في وهمها من منكر القول وزوره ما تعلق به ويعلق بها، فتسترسل فيه وتزيد عليه من فروضها واحتمالاتها ، وتستن في ذلك شوطا بعيدا جريا وراء الخطوة الأولى التى رسمها لها الشيطان وخطاها أمامها . ولاشك أن تنبيهك الغافل الى ما سيتردى فيه ، والى أن قائده هو عدوه الأكبر الذى عاهد الله على إغوائه ، وأن يخترط عليه كل مسلك ، وأن يأتيه من بين يديه ومن خلفه ، وعن يمينه وعن شماله ، هذا التنبيه بلا شك يرد الى العاقل عقله ، فيقيه شر الشرك الذى نصب لاصطياده . ومن يتبع خطوات الشيطان ضل سواء السبيل ، وأشرف على غاية هي الدمار والهلاك في الدنيا والآخرة ، «فانه يأمر بالفحشاء والمنكر» ، وأمره إغواؤه وإغراؤه ووسوسته بتزيينه الشر والقبيح ، وإبداء ما قد يرغب فيه من اغتنام لذة عاجلة ، أو تشف من نفس مكروهة .

وإنك إذا علمت أن الشيطان مخلوق حي ذو فهم وتصرف وإن كنت لا تراه ، ونظرت الى أنه يجرى بين الناس تفاهم على أوجه شتى ، من نظرات وإشارات وتصنعات ، بل قد يجرى بينهم ماهو أدق من هذا فى التفاهم ، إذ قد يتفاهم اثنان بجريان الخواطر بين نفسيهما ، وإن كان قليل من الناس من يعرف هذا أو يعترف به ، أقول اذا علمت هذا سهل عليك تصور وسوسة الشيطان للنفوس ، وإلقاء المغريات بالشر فى روعها ، وتذكيرها بمحاسن المفاسد ولذات الفواحش ، وشغلها عن التفكير فى عواقبها ، واستعانته عليها بما وقر فيها من عواطف ، حتى إذا كانت عواطف خير قلبها الى الشر واستخدمها .

ومن أمثلة ذلك ما يحكى أن عابدا كان فى صومعة ، وكان بجواره رجلان لهما أخت جميلة ، فعنّ لهما أن يسافرا فاستودعاه أختهما ليتولى إطعامها وليحميها ويحرسها ، فكان فى كل يوم يجيء بطعامها يضعه على باب صومعته فتجيء تأخذه . فحسّن له الشيطان أن يكرمها بوضع الطعام على باب بيتها حتى لا تتجشم المشى الى صومعته وقد يقابلها فى طريقها مايؤذيها ، ففعل . ثم بدا له أن يزيدها إكراما بأن يناديها لتأخذه منه حتى لا يتعرض الطعام لما قد يفسده ، ففعل . ثم رأى أن فى طول مقامها منفردة وحشة مسئمة ، فقد يكون من الخير أن يسرّى عنها بالتحدث إليها فترة وجيزة ، ففعل . وهنا تمكن الشيطان أن يحجل بينهما ، فما خلا رجل بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما ، فوقعا فى التهلكة .

فلقد جاءه الشيطان من طريق الخير ، ووجد من نفسه ميلا الى ذلك ، وأغفله عما سيجره اليه من سوء المصير .

وقوله تعالى بعد هذا البيان والارشاد : « ولولا فضل الله عليكم ورحمته مازكى منكم من أحد أبداً » فيه تنويه بهذه الهداية العظمى ؛ ليتمسك بها ويعمل جهد الطاقة على امتثالها . ومن الحق أن من وقع فريسة ضعيفة بين هذين العدوين القويين الخفيين : النفس والشيطان ، لا يكاد يزكو لولا فضل الله عليه بالتزكية والتطهير ، وأنى له أن يزكو وهو يستمرىء ما تدعوه اليه نفسه ويدفعه اليه شيطانه ؟ فكيف يستمسك وهو بين قائد ضال ودافع أضل ؟ ولكن الله يزكى من يشاء ، فهو يختار من عباده من ينقذهم من سلطان الشيطان ويصطفيهم عبادا له . والله سميع عليم ، فهو لا يخفى عليه شىء مما يجرى من حديث النفس أو وسوسة الشيطان ، ولا يخفى عليه شىء من استمساك نفوس الأصفياء الأخيار ، وردهم الشيطان مذموما مدحورا ، وقمعهم نفوسهم يحفظونها من التردى فى الهاوية ، فيذكرون ما يؤمنون به من أن الله سميع عليم ، يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، وأنه قدير عظيم ، فهو مالك ناصيتهم ، فان شاء سلبهم حياتهم أو قدرهم ، وإن شاء أمهلهم حتى يوقع بهم شديد العذاب ، وأنه ذو الجلال والاكرام الذى من حقه أن يستحيا منه ، فلا يقدم على مايكرهه ولو لم يكن خائفا عذابه ، كما قيل فى صهيب : « نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه »

هذا وفى ختم هذه الآيات بقوله تعالى : « ولكن الله يزكى من يشاء والله سميع عليم » فتح عظيم لباب التوبة ، ودعوة واسعة الى

الدخول فى حظيرة التزكية ، وتشويق الى ذلك ببيان أن الله سميع لما يجرى منكم من خير أو شر ، فاجعلوا مايسمعه منكم مما ترجون به رحمته . عليم بكل شىء ؛ ومن جملة ذلك نياتكم التى تعقدونها على الخروج مما تورطتم فيه من المعاصى . وإنك لتجد فى هذه الارشادات المتوالية والتربية العالية مايشرح لك قوله جل شأنه فيما مضى :« لاتحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم » . نسأل الله تعالى أن يهدينا للخير ، وأن يزكينا بفضله ورحمته ، إنه سميع مجيب !

(ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله ،وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم . إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا فى الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم . يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون . يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين . الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات أولئك مبرءون مما يقولون لهم مغفرة ورزق كريم) :

تقديم مرضاة الله على رضا النفس

لما نزلت الآيات العشر السابقة ببراءة عائشة رضى الله عنها حلف أبو بكر الصديق رضى الله عنه ألا ينفق على مسطح ، وكان

ابن خالته ، وكان فقيرا مهاجرا بدريا ، وكان ممن خاض فى الافك ، فنزل قوله تعالى : «ولا يأتل أو لو الفضل منكم والسعة » الى قوله : «ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم » فقال أبو بكر : بلى إنى لأحب أن يغفر الله لى ، ورجع الى مسطح النفقة التى كان ينفقها عليه وقال لاأنزعها منه أبدا . وإن من ينظر الى جريرة مسطح من إيذائه لأبى بكر فى أعز شىء عليه وهو عرض ابنته ، مع قرابته منه ، وقد قيل :

وظلم ذوى القربى أشد مضاضة على النفس من وقع الحسام المهند

ومع موالاة إحسانه اليه ، ولا شىء أصعب على النفس من مقابلة الاحسان بالاساءة ، ومع بقاء احتياجه اليه ، وليس أدل على السخافة وأوجب للدهشة من مهاجمة المحتاج من يحتاج اليه فى أعز عزيز لديه بلاموجب ، ومع كونه بلا وجه حق ولا دليل إثبات ، وما كان لمؤمن أن يهجم فى كبريات الأمور بلا تثبت ، ومع علاقة الأمر برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإنها من أعظم مايجب الاحتياط فيه والتبصر فى شأنه قبل الاقدام ، نقول : إن من ينظر الى ماصدر من مسطح على هذه الصفات التى ذكرناها ، لايستنكر من أبى بكر رضى الله عنه أن يحلف أن لاينفق عليه بعد . وأى نفس بشرية تستطيع التسامح والاغضاء عن هذه الجريرة التى هى مجمع جرائم جمة ؟ ومع ذلك لم يتعد فى يمينه حقا من حقوقه وهو قطع إحسانه عنه ، وليس بواجب عليه بخصوصه أن ينفق عليه (ماعلى المحسنين من سبيل) ، فلم يزد أمر مسطح عن أنه فقير ، وليس

أبو بكر مكافا أن يعول الفقراء : ورابطة قرابته به وهى أنه ابن خالته لاتجعله واجب النفقة عليه . ولو أن رجلا غير أبى بكر لكان له كل العذر عادة إذا أضمر له الشر وصمم على أن ينتقم منه مااستطاع ، ولو ليجازيه على كفر نعمته عليه ، ومقابلته الاحسان بالاساءة اليه

مع هذا كله كان أبو بكر أسرع شيء الى إجابة داعي اللهفقال : بلى إنى لأحب أن يغفر الله لى ، وعاد الى سابق إنفاقه متعهدا ألا يقطعه عنه ، بل روى أنه ضاعف له ما كان يجريه عليه . وهذا أعظم مظهر لتمكن الايمان من قلبه وأنه ممن ينطبق عليه قوله تعالى : «إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة » ، وأن مرضاة الله فى طاعة أمره أحب اليه من متابعة عوامل نفسه . وإن هذه المسارعة بدون تردد ولاتلكؤ لأعظم برهان على أنه كان يتلقف كل مايعلم تقريبه من ربه ليسارع الى جنته ورضوانه ؛ وإن الضغط على النفس حتى تنزل على ماأراده الله وأمر به لأصعب أنواع الجهاد حتى سمى ذلك فى الحديث الشريف جهادا أكبر ، فقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال حين رجع من غزاة : « رجعنا من الجهاد الأصغر الى الجهاد الأكبر » . وأين مجاهدة الانسان لعدوه يستجمع له كل قواه الظاهرة والباطنة ويراه وجها لوجه من مجاهدته لنفسه التى بين جنبيه تزين له القبيح وتأخذه على غرة وعلى غفلة من أمر دينه ؛ وما أكثر الغفلات ! وتستعين عليه بداعى الهوى والشهوات ، ويعينها الشيطان بتحسين أو تهوين السيئات ، والتنفير من الحسنات ، إلا من عصم الله ؟!

وإنك لتجد فى هــذه الآية الـكريمة بابا آخر من أبواب اليمن والخير يساق لنا بمناسبة هذه القصة فيحقق معنى من قوله تعالى : «لاتحسبوه شراً لـكم بل هو خـير لـكم» : ذلك هو تعويد النفوس احتمال الأذى ، وتحذيرها من أن تجعل منه قاطعا وصارفا عن فعـل الخير ، فانه من عمل صالحا فلنفسه ، ومن أساء فعليها ، وما ربك بظلام للعبيد ، فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ، ولن يكون الخير خالصا تمام الخلوص لوجه الله حتى تبتعد عنه حظوظ النفس ، وأى خير هو أبعد عن حظ النفس وهواها من أن تحسن إلى من أساء اليها ؟ ولذلك قيل : « ليس الاحسان أن تحسن إلى من أحسن إليك ، وإنما الاحسان أن تحسن الى من أساء إليك » . ذلك أن الاحسان للمحسن وإن كان جميلا وفيه معنى الشـكر ، إلا أن فيه شائبة المعاملة والمقايضة ، وليس هذا فى الاحسان إلى من لم يحسن إليك ، بله المسىء ، فقد جاءت هذه القصة مصورة أشد إساءة تلحق الانسان من الانسان ، ومع ذلك أمر المساء اليه بمعاودة إحسانه إلى من أساءه ، فامتثل طيب النفس قرير العين بما يوصـله الى رضا ربه . ومما يدل على طيب نفس أبى بـكر رضى الله عنه وقرة عينه تعهده أن لايقطع ذلك عنـــه أبدا . وما روى من مضاعفته له ما كان يعطيه إياه .

من هذا السياق تفهم أن معنى لايأتل : لايحلف ، من الألية بمعنى

الحلف ، يقال آلى على كذا حلف عليه . ويؤيده قراءة : ولا يتألَّ ، على وزن يتفعل . وهو المناسب لسبب النزول على ماسمعت . وقوله : أن يؤتوا ، أى على ألا يؤتوا ، وحذف لا النافية فى القسم مستفيض فى لغة العرب . قال تعالى : «قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف» أى لا تفتأ ، وقال الشاعر :

فقلت يمين الله أبرح قاعدا ولو قطعوا رأسى لديك وأوصالى

أى لاأبرح . وقال بعضهم : إنه بمعنى يقصر ، من قولهم : لا يألو يفعل كذا أى لايقصر . ودعاهم الى هذا مازعموه من أن افتعل يأتى من فعل لا من أفعل ، كقولهم : رضيت وارتضيت وكسيت واكتسيت ، ولا يقال أعطيت واعتطيت ولاأكرمت واكترمت . وقولهم : التزمت بكذا هى فى مقابلة ألزمه لابمعناها ، يقال ألزمه فالتزمه . وأيضا فان الحلف كان على ألايؤتوا ، لاعلى أن يؤتوا . وقد عرفت جواب هذا الأخير وهوشيوع حذف لامع القسم . وأما جواب الأول فيكفى فيه النقل عن جمهور المفسرين فى الصدر الأول كابن عباس رضى الله عنهما وغيره ، بل جميعهم على أنه بمعنى يحلف ، وكل واحد منهم حجة فى اللغة ، فكيف بمجموعهم !

والفضل : الزيادة . وإنما تكون فى زيادة الخير والمحمدة ، ولذا يفسر بأنه ضد النقص ، والمراد الزيادة فى الدين حتى لا يتكرر مع قوله : « والسعة » فانها بمعنى الزيادة فى المال ، والمراد هنا نهى أهل الفضل وسعة الرزق مطلقا عن الحلف على منع الخير عمن اتصف بتلك الصفات

الآتية . ودخول أبي بكر رضي الله عنه في ذلك مقطوع به على ماقاله الأصوليون من أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، ولكن دخول الواقعة التي هي سبب النزول مقطوع به . وكذلك قوله : « أولى القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله » يراد به كل من اتصف بصفة من هذه ، وهي واردة في مسطح ، وقيل في جماعة منهم مسطح . وعلى كل حال فدخول مسطح في هذا دخول أولى . وإنما ذكر هذه الصفات بطريق العطف مع أن الموصوف بها في سبب النزول واحد ، وهو مسطح ، للدلالة على أن كل صفة منها كافية في استيجاب العطف عليه وموالاة إحسانه ، فكأنه يقال : لولم يكن له إلا قرابته أو إلا مسكنته أو إلا أنه مهاجر في سبيل الله ، لكان بذلك جديرا أن يعفى عنه ويداوم على الاحسان عليه ، فكيف وقد اجتمعت هذه الصفات كلها فيه ؟ وهذا المعنى لا يستفاد اذا أتى بالصفات مترادفة بدون عاطف ، فانها قد يفهم منها أن المنهى عن قطع صلته هو من اجتمعت فيه تلك الصفات .

هذا وإن في وصف أبي بكر رضي الله عنه (بأولو الفضل والسعة) باطلاق ، دليلا على علو قدره في الدين والخير ، فان في الفضل معنى الزيادة في الخير ، وفي السعة فوق سعة المال معنى سعة الصدر والقلب وأنه بحيث لا ينبغي أن يضيق صدره لأمر فرط من أحد في حقه . وقد حاول بعضهم أن يأخذ من الآية أنه رضي الله عنه أفضل الخلق بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فارتكب تمحلات متعسفة لا يسهل

أخذها من الآية . وفضله رضى الله عنه ثابت وأدلته كثيرة ، ولكن هذا شيء وإعطاء الآية مايريدون شيء آخر .

والقربى : القرابة . والمسكين : من لاشيء له أوله مالايكفيه ، كأن الفقر قد أسكنه وأبطل حركته . وللفقهاء فى الفرق بينه وبين الفقير وأيهما أسوأ حالا كلام كثير ، أحسنه أنهما اذا اجتمعا افترقا واذا افترقا اجتمعا ، أى اذا اجتمعا فى اللفظ افترقا فى المعنى وكان لكل منهما معنى يخصه ، واذا افترقا فى اللفظ بأن عبر بواحد منهما كان معناه شاملا للفريقين . والمهاجرون فى سبيل الله : هم من هجروا ديارهم وأهليهم وأترابهم وأصحابهم فرارا بدينهم ، وكأن الهجر حصل من الجانبين : جانبهم وجانب أهليهم . والمراد بهم من هاجروا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة الى المدينة ، ومنهم مسطح : بل كان مع هجرته من أهل بدر . وما ورد فى شأن أهل بدر من مثل « لعل الله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ماشئتم فانى قد غفرت لكم » ليس معناه عصمتهم ولا خروجهم عن دائرة التكليف ، وإنما معناه أن الله علم أنهم يموتون على إيمان وتوبة ، فلا مانع أن يلم منهم بالذنب من يلم ويتوب فيتوب الله عليه .

وقوله تعالى : « وليعفوا وليصفحوا » : اللام فيه لام الأمر ، وهى غالبا لأمر الغائب . والعفو : محو الذنب ، من قولهم عفت الريح رسم الديار وآثارها أى محتها . والصفح : الاعراض ، فكأنهم أمروا أن يمحوا أثر الذنب فلا يؤاخذوا عليه ، وأن يعرضوا عنه بتاتا فلا

يذكروه ولا يلتفتوا اليه . وما أشبه هذا الأمر بأمره تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم بقوله : «فاعف عنهم واصفح» ! وإنها لمزية جليلة القدر لأبى بكر ، وفيها من عظيم الترغيب فى القدوة الحسنة بالتجاوز عن المسىء والصفح عنه ما فيها ، فكيف وقد أردفت بقوله تعالى : «ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم» ؟ ومن ذا الذى لا يشعر كل وقت بأنه فى أشد الحاجة الى أن يغفر الله له ؟ومن ذا الذى لا تذوب نفسه حسرات كلما ذكر سيئاته فى حق مولاه المنعم عليه ، المتفضل بالاحسان اليه ، الممدله بكل ما لديه من قوة ،فبها يعصيه ويجاهره بالمعصية، وهو مطلع عليه لاتخفى عليه منه خافية ؟ وكان من حقه أن يخاف بطشه فى كل حين ؛ أو أن يستحيي من عصيانه بنعمته التى أنعم بها عليه ، أو أن يخجل من جلاله وعظامته فلا يفرط منه ما ينكره عليه، وما من امرىء إلا وهو واقع فى شىء من هذا ، إلا من عصم الله :

من ذا الذى ما ساء قط ومن له الحسنى فقط

فباب مغفرة الله لك هو أن تغفر لمن أذنب اليك ، بدلالة هذه الآية الكريمة « وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم » .

ومن جمال الأسلوب فى الآية الكريمة أن أتى الأمر والنهى فى صدرها بطريق الغيبة معلقا بالصفات التى من حقها أن تدعو الى امتثال الأمر واتباع الارشاد : من كونهم أولى فضل وسعة ، وكون من طلب منهم العطف عليهم أولى قرابة ومسكنة وهجرة . ثم لما جىء الى

باب الترغيب والتشويق واجتناء الثمار ، عدل الى طريق الخطاب تقريبا لمنزلتهم ، وليوليهم عظيم الشرف بالزلفى حيث يقول لهم مخاطبا: «ألا تحبون أن يغفر الله لكم» . وإن فى هذا من التشويق مايصعد بالنفوس الصافية الى عليين فيكاد يطير بها فرحا وتلهفا على إحرازهذه المنزلة ، وتحليقا فى سماء العز فتنسى كل شيء فى سبيل الحصول على مقام الخطاب الأسمى ، فلا بدع أن كان من أبى بكر رضى الله عنه ما كان من مضاعفة الانعام والاحسان . وما أحسن ختامها بقوله: «والله غفور رحيم» ! ذلك الختام الذى يشوق أعظم تشويق الى التخلق بأخلاق الله ، والاقتداء بصفاته التى رضيها لنفسه ، ودعانا الى التمسك بها : من الغفران ، والرحمة ، والاحسان .

« إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا فى الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم . يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون . يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين» :

تضمنت الآية السابقة (ولا يأتل أولو الفضل) الخ تعطيفا على قوم ممن وقع فى هذه المهاسكة ، فغير بعيد على الأذهان أن يتطرق اليها أن فى هذا التعطيف تهوينا ما لشأن تلك الجريمة ، فعاد اليها مفظعا أمرها ، مشنعا على من وقع فيها ، شارحا عظم خطرها وشديد وعيدها ، وأى وعيد أشد من اللعنة فى الدنيا والآخرة واستحقاق العذاب العظيم ، وتقرير ذنبه بشهادة جوارحه عليه بما يخزيه ويقطع حجته

ويسد عليه باب التنصل من ذنبه . وحسبك بإردافه بأن سيوفي جزاءه الحق ، ويعلم — إن لم يكن قد علم — أن الله هو الحق ؛ وأن وعيده هو الحق ؛ وأن قوله هو الحق المبين ؛ فقال جل شأنه : « إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات » . وقد سبق لك القول بأن مثلهم في الجزاء من يرمون المحصنين الغافلين المؤمنين ، وأن تخصيصهن بالذكر لأن أكثر مايوجه مثل هذا القول اليهن ؛ لأنهن عرضة لهذه الظنة غالبا ، ولأن تأثرهن بهذا الرمي أشد ، ورميهن به أفحش ؛ ولأن النساء غالبا لايكاد يتعلق بهن أمر من أمور الحياة العامة كالظلم والعدوان أوما يماثلها ، وإنه إذا جرى ذكرهن اتجهت الأذهان في شأنهن الى أمر العرض .

وإن التشديد في الوعيد في هذه الآية بذكر اللعن في الدنيا والآخرة مع العذاب العظيم ؛ ثم ذكر شهادة الجوارح الخ بالقياس الى ماذكر في الآية السابقة «إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة» ليناسب كل من الوعيدين ماذكر في جانبه أتم مناسبة ؛ فان محبة الشيء وإن كانت تستدعي غالبا الوقوع فيه ، مغايرة لايقاعه بالفعل ؛ خصوصا بصيغة الرمي والقذف . وما أحسن التعبير بصيغة الرمي : فان الناطق بهذه الكلمة يقذفها لايدري من أصابت في طريقها : من محصنة وأبيها وأخيها ، وزوجها وبنيها ، وعشيرتها التي تؤويها ؛ كل أولئك قد نالهم ما نالهم من قذيفته الطائشة ؛ وهو ناعم البال لايدري من آلام أولئك شيئا

ثم التعبير بهذه الصفات أنسب ما يوافق هذا المقام : فالمحصنات : أى المصونات التى بولغ فى صونها حتى كأنها جعل عليها حصن منيع . والغافلات : أى المنصرفات الذهن عن التفكير فى هذه المفاحش : فلا تتجه إليها نفس منهن بتفكير ؛ فضلا عن التوجه إليها برغبة ؛ بله الوقوع فيها والمقارفة لها . والمؤمنات : معناه أولئك اللائى آمنّ بما أنزل على الرسول من أحكام وأذعن لها بالطاعة ، والتزمن حدود الايمان ، فهن أبعد إنسان عن أن ينال منهن هذا المنال الفاحش . وبهذا يتبين لك سر تقديم (المحصنات الغافلات) على لفظ (المؤمنات) مع أن الايمان أصل الفضائل بجملتها ؛ ذاك أن استنكار الرمى مع صفتى التحصن وغفلة النفس عن تلك السيئة أقوى منه مع وصف الايمان . وكون وصف الايمان أصلا على الاطلاق مستحقا للتقديم بالذات لا يمنع أن يكون لغيره تقدم خاص فى موضع من المواضع .

واللعن : الطرد من رحمة الله . ولعنهم فى الدنيا إما على لسان الملائكة والمؤمنين ، وإما على معنى طردهم عن الرحمة باستحقاق الحد والتعذيب ؛ وألا تأخذهم بهم رأفة فى دين الله . وأما لعن الآخرة فهو استحقاق العذاب العظيم ، فان صاحبه أبعد ما يكون من رحمة الله ؛ وعظم العذاب بقدر عظم الجرائم . واللعن فى الدنيا والآخرة جزاء ما أقض من مضاجع ، ونال من كرامات ؛ وثلم من شرف ، وآذى من أبرياء « إن الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون » .

وقوله جل شأنه : «يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون» .

لفظ يوم متعلق بما تعلق به قوله : « ولهم عذاب عظيم » ، أى يستحقون ذلك العذاب يوم تشهد عليهم الخ . وكأن فى هذا إشارة الى أنهم يحاولون الانكار والتنصل مما اقترفوا حين يرون ما يحل بهم من عذاب عظيم ، فيختم الله على أفواههم أن تنطق باختيارهم ، ثم ينطق ألسنتهم وجوارحهم بما اقترفوا ، قطعا لحجتهم وتسجيلا للخزى عليهم نظير ما أخزوا الأبرياء . وإنطاق الألسنة والجوارح بالشهادة لا ينافى الختم على الأفواه أن تتكلم بارادة أصحابها ، فقد عقلت الألسنة أن تتخذ آلة للتحدث عن إرادة أصحابها ، ولكن أنطقها الله الذى أنطق كل شىء . فهذه الشهادة يصح أن تكون باللفظ كما هو ظاهر النص ، ولا داعى لتأويله بصرف الشهادة إلى الشهادة بلسان حالها كما يقال : نمت عليك عيناك ، وكما فى قوله تعالى : « تعرفهم بسيماهم » . وقد دعا الى هذا التأويل الوقوف عند المألوف من أن المتكلم عادة إنما هو الشخص التام الخلقة والتكوين المستقل بهما ، وهو غير متعين ، فليس الوقوف عند المألوف بمقتض لصرف النصوص عن ظاهرها. وأيا كان فالمستيقن هو أن الجوارح تشهد . والظاهر هو أن الشهادة بالقول ، إبقاء للنص على ظاهره ، وإن كان البحث عن كيفية الأمور الغيبية بأزيد مما ورد لا يخلو عن مجازفة ، والله أعلم . وقوله : « بما كانوا يعملون » فيه تنبيه على أن شهادة الجوارح على أصحابها لا تقتصر على القول المذكور ، بل ستعم ما كان

منهم من جرائم الأعمال كلها ؛ فتشهد كل جارحة على صاحبها بما صدر منها وما صدر من غيرها أيضا . والتعبير «بكانوا يعملون» فيه إشارة الى أن تلك الأعمال كانت ديدنا لهم وعادة ، ففرق بين عمل كذا وكان يعمل كذا .

« يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين » :

أجل : حينذاك تخنع نفوسهم ، ويتبين ماحاولوا المراء فيه ؛ وتحق عليهم الكلمة ، وتنقطع عنهم الحجة . حينئذ يتبين الحق من الباطل ، وينصب الجزاء الحق على الذنب الذى انكشف وانجلى ولم يبق فيه مراء . يومئذ يوفيهم الله القادر القاهر ، من بيده ملكوت كل شئ وهو محيط بكل شئ ، يوفيهم دينهم وجزاء أعمالهم ؛ والدين يستعمل بمعنى الجزاء كقولهم : كما تدين تدان . والحق : العادل الذى لا يزيد على جريرتهم ويقتنعون بحقيته وعدالته ، ويعلمون أن الله هو الحق فيما أرسل على ألسنة رسله من أمر ونهى ووعد ووعيد ؛ فقد بين لهم فى الدنيا ، وأقام لهم البينات جلية ظاهرة على يد رسله ؛ لكيلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ؛ ولكنهم كذبوا عناداً واستكبارا ؛ أو انصرفوا غفلة فتدهوروا فى الجرائم استهتارا ؛ أو جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكباراً ؛ فهاهم أولاء اليوم قد تبين لهم الحق جهارا ، وغشيهم من الهول مالا يستطيعون منه فرارا ، وعلموا أن دينهم الحق ، وأن جزاءهم هو العدل ، وأن الله هو الحق المبين ؛ المحق فيما حكم ؛ المبين لما شرع ؛ العادل فيما رتب من جزاء فيلحقهم الندم حيث لا ينفع الندم . وتخصيص علمهم بهذا اليوم لأنه

يصير علما ضروريا لامرية فيه ولا تردد ؛ ولا يتوقف على استدلال ، فلاينافى نسبة ذلك لعصاة المؤمنين

وبعد فقد اختلف المفسرون فى المراد من المحصنات الغافلات فى هذه الآية : أهو كل محصنة غافلة مؤمنة ، وإن كان سبب النزول قصة عائشة ، لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ؛ أم هو خاص بعائشة رضى الله عنها وحدها ، أو مع باقى أمهات المؤمنين رضى الله عنهن نظراً الى شدة الوعيد باللعن فى الدنيا والآخرة ، وعظم العذاب وشهادة الجوارح ، وترك ذكر التوبة ؟ وذكر بعضهم أن الآية فى كفار قريش ، إذ كانوا يرمون المؤمنات المهاجرات بأنهن هاجرن للفجور .

والذى يظهر رجحان الوجه الأول ، وأن المراد كل من اتصف بتلك الصفات : أى كل محصنة غافلة مؤمنة ، وعظم العقوبة على قدر عظم الجريمة ، فاستحقاق اللعنة وعظم العذاب وشهادة الجوارح ليست مقصورة على الكافرين ، وإنما المختص بهم الخلود فى العذاب ، وهو لم يذكر فى الآية . وقد نيطت اللعنة فى آية اللعان السابقة بالكذب وليس كفرا ، وإن كان من أشد الجرائم ، وبخاصة الكذب فى رمى المحصنة بالفاحشة . وعدم ذكر التوبة هنا لا يفيد عدم قبول توبة من تاب ، فباب التوبة مفتوح ، حتى التوبة من الكفر بالايمان ، وذلك معلوم من عموم النصوص الداعية للتوبة ، وليس بلازم تكرارها مع كل وعيد .

ومن طريف النكت ما ذكره بعضهم أن القاذف مطالب فى

الدنيا لتصديق دعواه بأربعة شهداء ، فالقاذف يوم القيامة يقوم فى وجهه لتكذيبه خمسة شهود من جوارحه : لسانه ويداه ورجلاه ، تنكيلا له وفضيحة لشأنه . جزاء وفاقا على محاولته فضيحة المحصنات الغافلات المؤمنات .

«الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات أولئك مبرءون مما يقولون لهم مغفرة ورزق كريم» :

هذا مبنى على سنة الله فى خلقه ، وحكمته الغالبة فيما بين الناس ؛ وأكبر مظاهرها ذوو القدر العظيم والخطر الكبير ، وهم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ومعناه أن الخبيثات من النساء لايلقن إلا بالخبيثين من الرجال ، والخبيثون من الرجال لايقعون إلا على الخبيثات من النساء ، فكل عن مثيله يبحث ، وإليه يرد ، والطيبات من النساء إنما يهدين للطيبين من الرجال ، والطيبون من الرجال يوفقون للطيبات من النساء .

هذه سنة الله الغالبة فى خلقه التى تظهر فيها حكمته البالغة ، فاذا تخلفت بحسب بادىء الرأى فى نظرنا لحكمة خفيت علينا فى بعض الحالات ، فهل يمكن أن تتخلف فى أطيب الخلق على الاطلاق ؟ بل هل يقبل العقل أن يصاب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وهم الدعاة الى الله ، المنتصبون لجمع القلوب على محبة الله : هل يمكن أن يصاب أحد منهم بمثل هذا الوباء المنفر للطباع من الاتصال بمن أصيب

به ؟ فكيف بصفوتهم وخيرهم وأفضل الخلق على الاطلاق ؟ وعلى هذا يكون المراد بالخبيثات والطيبات النساء ، وبالخبيثين والطيبين الرجال ، ويكون « أولئك » إشارة الى الطيبين والطيبات ، والاخبار عنه بصيغة المذكر فى قوله « مبرءون » للتغليب ، وتكون الآية كختم القصة بحكم عام مقرر فى السنة الالهية والحكمة المرعية ، وهى أن يختار الله لكل فئة ما يناسبها ويليق بها ، فلا يمكن أن يختار أخبث الخبيثات لأطيب الطيبين . وهذا قريب مما سبق فى آية « الزانى لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك » على ما سبق تقريره ، ويكون ذكر هـــذه الآية كتقرير النتيجة للآيات السابقة .

وذكر بعضهم أن الخبيثات والطيبات ، أى من الكلام ، للخبيثين والطيبين ، أى من الناس رجالا ونساء ، والمعنى أن خبيث القول إنما يوجه للخبيث من الناس ، والخبيث من الناس هو المستحق للخبيث من الكلام ، أو الذى يصدر عنه ذلك ، وكذلك الحال فى الطيبات والطيبين ، والاشارة فى أولئك للطيبين والطيبات تغليبا كما سبق ، وضمير يقولون للخبيثين أو الأفاكين . والذى يظهر هو الوجه الأول ، وكلاهما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما

ووعد الله لهم بالمغفرة والرزق الكريم أى الجنة ، فيه أعظم بشارة للصدّيقة رضى الله عنها ، وفيه شهادة لها بأنها من أهل الجنة .

فالآية وإن كانت عامة ولكن دخول صورة السبب فى العموم دخول أولى مقطوع به على ما ذكره علماء الأصول .

هذا وإن من تأمل فيما تضمنته هذه الآى الحكيمة من حكم مفصلة ، وتعليمات قيمة ، وإرشادات بالغة ، وتربية للنفس ، وتهذيب للأخلاق ، وشفاء لأمراض القلوب ، وتنبيه على كيفية العلاج الشافى ، وتوجيه للنظر الى مغامز الشيطان ومكامن الداء ومن أين أتى ليجتنب ، كل ذلك مع التنويع فى التربية وحياطة الأخلاق بالسياج المتين . نقول : من تأمل فى ذلك علم كيف كانت الشريعة المطهرة تتعهد النفوس من جميع نواحيها بالتغذية والتربية والعلاج وتقويم الحياة من جميع مناحيها ؛ وتجلى له أن بث الارشاد ومختلف الأحكام بحيث يأخذ بعضها بحجز بعض هو الغاية القصوى فى التربية والتعليم الحكيمين ، وأن ما يتوهم بعض قاصرى النظر من جمال ضم كل نوع الى قرينه بباب وحده هو خرق فى الرأى ، وقصر فى النظر ، واغترار بالجهل ، فلا يسع عقل عاقل أن يعمد امرؤ فى تنشئته ناشئا قد عهد اليه به أن يجعل له يوما للغذاء بلا شراب ؛ ويوما للشراب بلا غذاء ؛ ويوما يكسوه ولا يغذوه ؛ ويوما يعالج داءه ويهمل غذاءه ؛ لو أنه فعل ذلك لكان من الحمق فى المكان المكين ، وإنما الحكيم العليم من يتعهد من فى عهدته بجميع حاجته ، فيمزج هذا بذاك ، ويضيف إليه من التعليم والتقويم ما يكفل له الكمال فى كل ناحية . فسبحان الحكيم العليم ، ذى الحكمة البالغة ، والحجة الدامغة !

نسأله جل شأنه أن يهدينا الى سواء السبيل ! وهو حسبنا ونعم الوكيل

آداب دخول منازل الغير

(يأيها الذين آمنوا لاتدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون . فإن لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم والله بما تعملون عليم . ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتاً غير مسكونة فيها متاع لكم والله يعلم ماتبدون وماتكتمون):

وهذا حكم آخر من أحكام هذه السورة المباركة التي وصفها جل شأنه في فاتحتها بقوله جل من قائل : «سورة أنزلناها وفرضناها» وهذا الحكم له مزيد اتصال بماقبله ، فإن من متممات الاحتياط لصيانة الشرف والعرض المستفادة من الآيات السابقة تشريع هذا الحكم العظيم ، المتضمن من آداب المعاشرة ومخالطة الناس بعضهم بعضا مافيه صون كرامتهم وسمعتهم ، وشرفهم ، ودوام الارتباط بينهم ، على أنقى الوجوه وأبعدها عن الريبة والتألم والتأذي .

ومناسبتها للآيات السابقة جلية واضحة ، فقد ذكر في أول السورة حد الزنا مبينا مافيه من الشناعة والفظاعة ، مؤكدا في التشديد على من وقع في جريمته ، مبعداً له عن أن ينال برأفة ورحمة ، ثم أردفه ببيان حد القاذف المتعدي على شرف الناس وسمعتهم ، وساق تلك القصة التي كانت فتنة لكثير ، ولكنها تضمنت من التعليم خيراً كثيراً كما سبق تفصيله وتوضيحه ، وجاء في هذه الآيات بتشريع الأحكام التي تساعد

على سد هذا الباب ودفع مافيه من المفاسد والشرور ، فقال جل شأنه :
« يأيها الذين آمنوا لاتدخلوا بيوتاغير بيوتكم حتى تستأنسوا » .

وذكروا فى سبب نزولها أن امرأة شكت الى النبى صلى الله عليه وسلم أنها تكون فى بيتها على الحالة التى لاتحب أن يراها فيها أحد : لاوالد ولاولد ، فيأتيها آت فيدخل عليها ، فكيف تصنع ؟ فنزلت «يأيها الذين آمنوا لاتدخلوا » الخ . ومن ذا الذى يخلص من هذه الحالة ؟ فما من أحد رجل أوامرأة إلا وهو عرضة لأن يكون على حالة لايحب أن يراه فيها أحد : لاوالد ولاولد ، فيسوءه أن يفاجئه مفاجىء فيطلع على مالايحب أن يطلع عليه أحد ، فاذا فوجىء على هذه الحالة تألم وكره القادم ولوكان قدومه برأيه ، فليس أكرم على المرء من صون نفسه وشرفه ، وعدم تعريضهما للافتضاح وانكشاف الستر . وفوق هذا تجد هذا الأدب متضمنا لقطع ألسنة السوء ومظنة الريبة ، فاذا دخل امرؤ بيتا بلا استئذان ، وكان ذلك مباحاً ، فقد يراه حال دخوله أوحال خروجه من يتهمه ويتهم أهل البيت المدخول عليهم بمالم يخطر لهم ببال ، ولقد يصادفه حال خروجه رب الدار وليس فيها إلا امرأته مثلا — فتذهب به الظنون كل مذهب . ويجد الشيطان له فى نفسه مرتعا خصيبا ، ربما جر الى خراب البيت وإلحاق أطفالهما بالأيتام ، وتتسع المقالة لضعفاء الايمان ، فيخوضون فى الأعراض بما ليس لهم به علم . فتشريع هذا الحكم من أعظم مظاهر الرحمة فى تشريع الحنيفية السمحة .

والبيت : المسكن لأن المرء يأوى الى مسكنه ليلا عادة ، فهو فى الأصل من بات يبيت ، مقابل ظل يظل ، فالأولى لليل ، والثانية للنهار . والاضافة فى بيوتكم للاختصاص بالسكنى أوالملك ، أى ملك المنفعة لاملك العين وحده ، حتى إن من أجر بيتا لغيره أوأعاره له ، فليس لمالك البيت الدخول حتى يستأنس ويسلم .

وقوله تعالى : «حتى تستأنسوا » معناه حتى تستأذنوا ، فهو إما من الأنس ضد الوحشة ، لأن من دخل بيتا غير بيته تلازمه الوحشة حتى يؤذن له فتتبدل وحشته أنسا وطمأنينة ، فيكون المعنى : حتى تطلبوا الأنس بالاذن ، أى وتصلوا إليه ، بدليل « فان لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم » الخ ، أوحتى تأنسوا وتطمئنوا بالاذن لكم بالدخول ، وإما من قولهم : أنس بالشيء وآنسه أى علمه ، كقوله تعالى : «آنس من جانب الطور ناراً » أى رآها وأبصرها ، فالمعنى حتى تستعلموا : أفيها أحد ، أوحتى تعلموا أن فيها أحداً ؟ وهو كناية عن تنبيه أصحاب الدار بالقدوم عليهم ليكون لهم الخيار فى الاذن والرد ، أوحتى تستعلموا الحال التى أمامكم وينكشف لكم الأمر ، أأذنتم بالدخول أم منعتم منه ؟ والمعانى متقاربة فى الغاية وإن اختلفت فى طريق الدلالة .

والاستئذان يكون بوسائل متعارفة ، كقرع الباب ، أوالنداء لمن فى البيت ، أوصريح الاستئذان ، أوالتنحنح ، أوالتسبيح ، والتحميد وما يجرى مجرى ذلك ؛ فالمقصود ظاهر ، والوسائل معروفة . وكما

لايجوز الدخول قبل الاستئذان لايجوز النظر الى داخل البيت قبل الاستئذان ، فقد ورد « إنما جعل الاستئذان من أجل النظر » وليس معنى الحديث أن من لايبصر كالأعمى له الدخول بلا استئذان ، فان فى معنى النظر العلم مطلقا ، وقد يطلع الأعمى بسمعه على مالايحب أهل البيت أن يطلع عليه ، خصوصا مع ماهو معروف عن كفيفى البصر أنهم يعتمدون على حاسة السمع فى تعرف أشياء بطريق الحدس قد لاتخطر للمبصرين على بال . ومنع الدخول قبل الاستئذان عام فى الرجال والنساء، مع المحارم وغير المحارم ، فما من امرىء إلا وله حالات يكره أن يطلع غيره عليها ، رجلا كان الغير أو امرأة ، محرما أو غير محرم . وقد قال رجل للنبى صلى الله عليه وسلم : أأستأذن على أمى ؟ قال: نعم. قال : ليس لها خادم غيرى أ أستأذن عليها كلما دخلت ؟ قال : أتحب أن تراها عريانة ؟ قال: لا ، قال : فاستأذن عليها .

وقوله تعالى :« وتسلموا على أهلها» ظاهر فى أن السلام بعد الاستئذان ، وهو الموافق للعادة من أن القادم قد لايعلم أفى الدار أحد ؟ فاذا استأذن وأذن له ، سلم ودخل . ولايعارض هذا ماروى الترمذى عن جابر بن عبدالله أنه صلى الله عليه وسلم قال : «السلام قبل الكلام »؛ فقد يحمل الكلام فى هذا على مايجرى بين الناس وقد تقابلوا وتلاقوا بعد الاذن أو فى الطريق ونحوه . نعم روى البخارى فى الأدب المفرد عن أبى هريرة فيمن يستأذن قبل أن يسلم ، قال : لايؤذن له حتى يسلم، وكذلك روى عن زيد بن أسلم قال : أرسلنى أبى الى ابن عمر فقلت : أألج؟

فقال : ادخل ، ثم قال : مرحبا بابن أخي : لاتقل : أ ألج ، ولكن : السلام عليكم : فاذا قيل : وعليك ، فقل : أ أدخل ، فاذاقيل : ادخل فادخل . فظاهر هذاوماقبله يدل على أن السلام قبل الاستئذان .

وقد رأى بعضهم تفصيلا حسنا فى ذلك ، وهو أنه إن وقعت عينه على من فى البيت بأن كانوا ظاهرين ، قدم السلام ، وإلاقدم الاستئذان . وقوله تعالى : «ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون » فيه إرشادالى ماحوى هذا الحكم من عظيم المصلحة التى ترجح على مايتوهمونه من أن فى الاستئذان وانتظار الاذن مذلة ومهانة للمستأذن المنتظر ، وقد يكون فى غنى عن هذه الزيارة ، أوقدتكون زيارته لصالح المزور أونحو ذلك ، فلماذا يتحمل مذلة الاستئذان والانتظار ، وهكذا من مظاهر النعرة التى كانت تتملك نفوسهم ، فأفادناجل شأنه : أن تشريع الحكم للعموم على هذا الوجه خير لكم من عزة كاذبة تتمسكون بها ، فكما منعتم من الدخول على غيركم بلا إذن منع غيركم من الدخول عليكم كذلك ، ومامنكم من أحد إلا وهو عرضة لمثل هذا ، وفيه استبقاء المودة وعدم التأذى من زيارتكم بخلاف مالوكانت هجوما ، فقديكون قصدكم منها البر فتنقلب الى شر . وقوله : «لعلكم تذكرون » جاءت بعد قوله : ذلكم خير لكم للتعليل الذى فيه دعوتهم للتذكر . و «لعل» الآتية للتعليل فى القرآن الكريم تخالف لام التعليل من جهة أن التعليل فيها منوط باختيار المخاطبين : على معنى أنه هيء الأمر لمن يريدأن يتذكر أويتفكر أويتق ، مثلا . وأما اللام فهى للتعليل المحتوم ، أى ليس الأمر

فيه منوطا باختيار الشخص . فكن على ذكر من هذا . والمعنى أنه بسط لكم الحكم وأرشدكم الى خيريته لتتذكروا وتتعظوا وتعلموا فتحرصوا على امتثاله ، فباب التذكر مفتوح أمامكم لمن شاء .

هـذا ولا يبعد أن يلتحق ببيوت السكن حجر القائمين بالأعمال العامة ، فانها وإن لم تكن سكنا ولا محلا لانكشاف عورات ، ولكن قد يكون المنوط به عمل من الأعمال العامة بحاجة الى خلوة يستجمع فيها ذهنه لينجز ما عهد اليه به ، فلو أبيح الدخول عليه بغير إذنه تعطل عن عمل واجب عليه إنجازه ، وقد يكون مع ذى مصلحة يجب أن يفرغ لها ليتمها على أتم وجه ، أو يكون مع صاحب حاجة يكره أن يطلع عليها غيره ، فكل هذا وأشباهه مدعاة الى احترام من فى مركز العمل أن يدخل عليه بغير إذن ، روى أن أبا سفيان استأذن على عثمان رضى الله عنهما فى زمن خلافته فلم يأذن له مع ما بينهما من صلة النسب ، فقيل له : أنت أبو سفيان رأس العرب فى الجاهلية والاسلام و يحجبك عثمان بن عفان ؟ فقال : لاعدمت من قومى من أحجب ببابه ! فانظر الى هـذا الجواب السديد الذى رد كيد ذلك المحرش عليه ، ودفع الحمية والنعرة الكاذبة عن نفسه ، وبين له أن ما فيه من عزة عائد على فهو من قومى ، وهذا الخطاب ليلاقى اعتراض المعترض ، فقـد جاءه من ناحية العزة والحمية ، فأجابه من ناحيتها أيضا ، وهو أنه من قومه فيعتز به ، وإلا فقد كان حجبه لمصلحة العمل .

قال تعالى : « فان لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم » :

هذا تتميم للحكم الأول من جهة أنه فى البيوت التى فيها أصحابها وهـذا فى البيوت التى ليس فيها أصحابها ، وقوله : « فان لم تجدوا فيها أحداً » الخ غير أن يقال : فان لم يكن فيها أحد ، فانّ « فان لم يجد أحدا » معناه لم يعلم أن فيها أحـدا وإن كان فيها أحد ولم يحب أن يظهر نفسه . وقوله : «فلا تدخلوها حتى يؤذن لـكم » وجهه أنه قد يكون فى البيت الذى ليس فيه أحد أشياء لا يحب أصحابها أن يطلع أحد عليها ، فليس المنع من أجـل العورات الشخصية فحسب ، بل مثلها الأمتعة والممتـلكات والمرافق . يعرف ذلك كل من رجع الى شئونه الخاصة وكان حريصا على كرامته . وقوله : حتى يؤذن لـكم ، أى ممن يملك الاذن بالدخول فى هذا البيت ويدرى مايقول ، فلا يعول على إذن صبى إلا إذا علم أنه مأذون من قبل أهله فى البيت.

وقوله تعالى : «وإن قيل لـكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لـكم » بيان لأن هذا الاستئذان حقيق لا صورى ، فللمستأذن عليه أن يأذن وأن يرفض ، وعلى المستأذن أن يمتثل لـكلتا الحالتين ، فلا تأخذه العزة بالأثم ، فيلح فى الاستئذان ، أو يلج بلا إذن ، أو يقف على الباب ، فان فى هذا مضيعة لمصلحة الحـكم وقد شرع لمنفعة الجميع ، ورب متأذ من هذا الحـكم يوما قد احتاج اليه فى اليوم التالى . وقوله : « هو أزكى لـكم » إما معناه أطهر لنفوسكم من دنس الدناءة والرذالة والثقل ، أو أنفع لدينـكم وأكمل لآدابكم ، على أن أزكى من زكا يزكو بمعنى طهر أو بمعنى نما .

و بعد : فالحكم المذكور فى الآيتين مخصوص شرعا بما اذا لم يكن فى البيت منكر تجب إزالته ؛ أوحادث خطير تجب المبادرة بالانقاذ منه ، كشبوب حريق ؛ أوهجوم لصوص ؛ أوشروع فى قتل ؛ أوإيذاء بلا وجه حق أو أمثال ذلك ، فله حق الدخول لازالة هذه الحالات .

«والله بما تعملون عليم» فهو الذى يعلم خائنة الأعين وماتخفى الصدور ؛ فيجازى كل امرىء على حسب ماعمل وقصد ، فقد يدخل متظاهرا بنية إطفاء حريق مثلا ، وهو ينوى أن ينهب ماتصل اليه يداه ؛ أو أن ينظر الى ماحرم الله ، فما أجمل ختم هذه الآية بقوله : والله بما تعملون عليم اومن نظر فى هذه الآية الكريمة علم أن هذا المبدأ الذى يترنم كثير بأنه من آثار المدنية الحديثة وهو احترام المنازل والبيوت قد دعا اليه القرآن الكريم على أبلغ وجه . فالحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله .

قال تعالى : «ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتا غير مسكونة فيها متاع لكم والله يعلم ماتبدون وما تكتمون» :

هذا فى البيوت العامة المعدة لمصالح الجمهور كالخانات والحمامات ؛ ومحال البيع والشراء ؛ فقد روى فى سبب نزول الآية أن أبابكر رضى الله عنه لما نزلت الآية السابقة قال : يارسول الله فكيف بتجار قريش الذين يختلفون بين مكة والمدينة والشام وبيت المقدس ولهم بيوت معلومة على الطريق ؛ فكيف يستأذنون ويسلمون وليس فيها سكان ؟ فنزل قوله تعالى : «ليس عليكم جناح» الآية . وقوله : فيها متاع لكم ، إما صفة لبيوت ؛ وإما مستأنف كالتعليل لنفى الجناح ؛ أى أن البيوت العامة

لاحرج عليكم فى دخولها فان فيها متاعا لكم ، أى أعدت لمنافعكم واستمتاعكم ، إمابقضاء ماتبتغون منهامن شراء أمتعة أونحوها ، أو بالايواء اليها بأنفسكم ودوابكم ومتاجركم ، أوقضاء بعض مصالحكم كالاستحمام أوالحلق ، أوخياطة الثياب أوماماثل ذلك .

وقوله تعالى : « والله يعلم ماتبدون وماتكتمون» نسقه كنسق قوله فيما تقدم : والله بما تعملون عليم . والداعية اليه هناقوية ؛ فان إباحة الدخول المبنية على غرض قديتخذها بعض الناس ذريعة لأغراض خفية سيئة ، فجاء قوله : والله يعلم ماتبدون وماتكتمون ، ليذكرهم حين أباح ماأباح لهم أنه عليم بما يجرى فى نفوسهم ، فهو يعلم خائنة الأعين وماتخفى الصدور ، ويعلم ماتبدون وماتكتمون . نسأله تعالى أن يوفقنا لعمل الخير ، وقصد الخير إنه سميع مجيب !

قال تعالى . (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون . وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ماظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بني إخوانهن أو بني أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولى الاربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولا يضربن بأرجلهن ليعلم مايخفين من زينتهن وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون) :

عن النظر الأجانب

وهذا حكم من أحكام صيانة الأبضاع : وحفظ الأنساب : وحياطة أواصر الأسرة من أن تلعب بها الأهواء ، وإحكام الروابط حتى لاتعبث بها يد الفساد .

أجل : فالنظر رسول الشهوة ، وبريد الزنا ، ورائد الفجور ، ورب نظرة كانت بذرة لأخبث شجرة ، ورب شهوة ساعة أورثت حزناً طويلا .

ولله من يقول :

كل الحوادث مبداها من النظر ومعظم النار من مستصغر الشرر
والمرء مادام ذاعين يقلبها في أعين العين موقوف على الخطر

كم نظرة فعلت فى قلب صاحبها   فعل   السهام بلا قوس ولا وتر
يسر   ناظره   ماضر   خاطره   لامرحبا بسرور جاء   بالضرر

لقد طال الجدال ، وكثر المقال فى هذا الموضوع ، حتى أصبح الكلام فيه كالحديث المعاد ، بل لقد ظفر نصراء السفور وأعداء الحجاب بنتائج خطيرة فى سنوات قليلة ما كانوا يحلمون بها . ولا غرو فقد نبهوا ايقظا من الأهواء ، واستثاروا امتلهفا متشوقا من نفوس متعطشة للشهوات ، فسرعان مالبت النداء ، وهبت تتسابق ركضا لأجابة ذلك الداعى الذى يدعوها الى ماطال اشتياقها اليه ، فما هو إلا أن اخترقت أول حجاب حتى هوت فى أعمق هاوية ، فلما أحست شدة الانحدار أخذت تصيح مستغيثة ولا مغيث ، وتصرخ متندمة ولات ساعة مندم !

لقد زين أولئك الدعاة أمر السفور بشتى الوسائل ، حتى أخذوا يتلمسون له أدلة من الدين الحنيف ، وما كان أمر الدين فى الحقيقة ليشغل من بالهم كثيرا أو قليلا ، ولكن ليهوّنوا على البسطاء ممن لا يزال للدين أثر قوى فى نفوسهم أمر الانحدار معهم فيما انحدروا فيه ، وهم مهما لوّنوا فى دعايتهم وأكثروا من حججهم فلن تعدو دواعيهم أمرين :

الأول : تمكن حب التقليد للأمم الغربية من نفوسهم ، ذلك الحب الذى شوه فى نظرهم قديم مجدهم ، وزين لهم السوء فى قبائح غيرهم ؛ وهذا داعية أصحاب النية الحسنة

والأمر الثانى : إجابة نزعات نفوس نزاعة للشهوات ، فهى تريد أن تخترق تلك الحجب حتى لا يعوقها عائق عن نيل رغائبها والوصول الى مشتهياتها ، وذلك شأن الغالبية الكبرى من تلك الطائفة المارقة .

وبالشديد الحسرة من تلك الصيحات والولولات التي انبعثت هذا العام من شواطىء رمل الاسكندرية ،و بخاصة تلك المنطقة المسماة «ستانلي باى» فلقد انفرط العقد وتردت الأسر فى قرار الهاوية ، وليت شعرى هل لهذه الهاوية من قرار تقف عنده؟ إن أكبر الظن أن لاقرار لها ، وأنها كبئر لانهاية له ، فكلما انحدر الواقع فيــه الى حد تطلبته حــدود بعده هى أعمق منــه ؛ ومتى وصل أحد أولئك المستهترين فى الشهوات الى درجة ، أصبحت أمرا عاديا فى نظره ، وأصبح طعمها تافها فى ذوقه ، فتطلعوا الى طعم حريف مستغرب يرضون به شهواتهم المتعطشة دائما ، ويحيون بها أذواقا أماتها تتالى الطعوم الحريفة ، ولذلك لايفتر دعاة تلك الشئون عن ابتكار أبواب جديدة من الفجور تعجز عنها الأبالسة

سمعنا تلك الصيحات المنبعثة من شواطىء البحر الأبيض المتوسط، وضجت الجرائد اليومية أعلى ضجيج،حتى أقضت المضاجع،وأزعجت من بأقاصى البلاد ، منذرة بالويل والثبور ، وانحلال كيان الأمة إذا بقى شىء من هــذه المنكرات العلنية ، والفضائح التى لايستحى منها أصحابها .

تطالعنا صيف هذا العام الجرائد اليومية ، والأنباء الشفوية ، بأخبار فى تلك الجهات تسيل من الغيورين أحرّ العبرات ، ومايدريك فلعلها تسـيل لعاب الأهواء والشهوات من المتطلعين لها من فتيان وفتيات ، فيطم الكيل ويعم السيل. اللهم رفقا بالأمة ، اللهم لطفا باالعباد فانك بعبادك لطيف خبير !

لقد بدأت تلك الطائفة ، الطاغية على محاسن العادات ومكارم الأخلاق ومحاسن الدين ، بدأت حملتها بهنات هينات ، فحملت على براقع كانت ضعيفة ضئيلة ، فشوهت أمرها ، واتخذت من ضعفها سلاحا لازالتها ، وبينت أن تلك البراقع لاتستر زينا ، ولا توارى شيئا ، فتجب إزالتها ، ثم قالت : إن عزلة الجنسين أحدهما عن الآخر مضيعة لكليهما ، مزيل لتمام التساند بينهما المبنى على التعارف والتآلف ، مزيح لنصف(١) العالم عن أن ينتفع به مجموع العالم ، وهكذا دواليك من سموم مغشاة بأنسجة من حلوى ، وأخذوا يقارنون بين المرأة الشرقية والمرأة الغربية ، مجردين الأولى عن كل صفة كمال ، مفرغين على الثانية كل حلل المجد والفخار ، فعموا أوتعاموا عن المهام التى تقوم بها المرأة الشرقية من الأمور التى لابدمنها للحياة الاجتماعية : من تدبير منزل ، وتربية أطفال ،وعكوف على إصلاح شئون داخلية لاتستغنى الأسرة عن معالجتها والسهر عليها ، ناظرين بعين واحدة الى الأناقة والرشاقة والمناظر الجذابة التى تتحلى بها المرأة الغربية ، معروضة للأنظار ، متفننة فى اصطياد العقول والألباب ، فلم يحسوا أن للكرامة والصيانة والعفاف وحفظ الأنساب من تطرق الشكوك والريب ، أقل نصيب من العناية ، ولا أتفه حظ من الاهتمام . ولقد ساعد على ذلك ماوقر فى نفوس البشر قاطبة من تطلع المغلوب لمحاكاة الغالب ، وولع النفوس

(١) يريدون النساء

: وبخاصة نفوس المترفين ، بالاستغراق فى اللـــذائذ والمشتهيات ، فبحت أصوات المحذرين والمنذرين ، وتعرضوا للشتائم والتبكيت ، والرمى بالجمود ، ومعاوقة الاصلاح ، والوقوف فى سبيل الترقى ، وهلم جرا ، حتى انتهى الأمر بهم أن يقول قائلهم : اللهم قد بلغت ، اللهم فاشهد ! واليوم وقد تبينت العاقبة الوخيمة صح أن يقول عنهم الناصح :

أمرتهم أمرى بمنعرج اللوى فلم يستبينوا الرشد إلا ضحى الغد

وما كان يروع إذ ذاك إلا زعم زاعميهم أنه لا حجاب فى الاسلام ، فكأنما ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ، فلم يفقهوا ولم يسمعوا الآيات والنذر ، ولم يبصروا ذلك النور المتلألىء الذى بثه الله فى سوره ، فلم يقرأ أحد منهم قوله تعالى :

«قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون . وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن » الخ .

ولنبدأ ببيان الحكم الشرعى فى عورة الرجل والمرأة فى الصلاة وخارجها حسبما استنبطه الأئمة من الكتاب والسنة ، ومراعاة المعنى الذى من أجله شرع الله الحكم ليقاس عليه ما شاركه فى معناه ، ثم نعود الى تفسير الآية الكريمة ببيان ما فيها من دلالة وإرشاد ونور يضىء لمن كان له عينان يرى بهما ، أو قلب يفقه به ، والله ولى التوفيق :

أما عورة الرجل في الصلاة التي يجب سترها متى قدر عليه وتبطل الصلاة بتركه فهى مابين السرة والركبة ، ومثله فى ذلك الأمة . وأما عورة الحرة فما عدا وجهها وكفيها . ويرى مالك أن قدمى المرأة فى الصلاة ليستا بعورة . وأما خارج الصلاة فاما أن يكون الكشف مدعاة للفتنة مثيراً للشهوة فهو حرام ، والنظر الى المكشوف محرم كذلك لمن خشى الفتنة أو أثيرت بالنظر شهوته ، مالم تكن النظرة الأولى التى تجىء عفواً بلا قصد فلا حرج فيها ، ولافرق فى الحرمة حينئذ بين عورة المرأة مع الرجل أومع المرأة ، وعورة الرجل مع المرأة أومع الرجل .

وأما إذا أمنت الفتنة فالعورة أربعة أقسام ، لأنها إما عورة المرأة بالنسبة للرجل أو بالنسبة للمرأة ، وإما عورة الرجل بالنسبة للمرأة أو بالنسبة للرجل . فأما عورة المرأة بالنسبة للرجل ، فالمرأة إما أن تكون أجنبية ، أوذات رحم محرم ، أوعلى استمتاع أى زوجة أوأمة ، فالأجنبية عورتها جميع بدنها إلا الوجه والكفين ، حيث أمنت الفتنة كما سبق ، ومع كون الوجه والكفين ليسا بعورة ، فانه لايجوز تكرار النظر إليهما اذا لم يتعلق بالنظر غرض صحيح ، كالمبايعة ، وتحمل الشهادة ، والخطبة ، فاذا تعلق بالنظر غرض من تلك الأغراض ، جاز النظر بمقدار تحصيل ذلك الغرض ، واذا لم يكن غرض جازت النظرة الأولى ولم يجز التكرار ، ومع كون ماعدا الوجه والكفين عورة ، يجوز النظر اليه اذا دعت الضرورة ، كانقاذها من غرق ،

أو كنظر الطبيب للعلاج . فانه يجوز ويتقدر بقدر الضرورة .

هذا كله اذا كانت المرأة حرة . فان كانت أمة فعورتها ما بين السرة والركبة، وقيل عورتها مالا يبدو عندمزاولة الاعمال المنوطة بها كالساقين والساعدين ، أما البطن والظهر على هذا فهما عورة منها ، بخلافهما على القول الأول اذا كانافوق السرة وما يسامتها .

وأما عورة المرأة مع الرجل المحرم فهى ما بين السرة والركبة ، وقيل مالا يبدو عند المهنة ، وأما مع الزوج أو السيد الذى له حق الاستمتاع بأن كانت أمة مملوكة له وحده غير متزوجة ، فلا شيء من بدنها بعورة — إلا أنه يكره النظر الى الفرج ، بل يكره نظر المرء الى فرج نفسه .

وأما عورة الرجل مع المرأة ، فان كان محرما فعورته مابين السرة والركبة ، وإن كان زوجا أوسيداً له حق الاستمتاع ، فلا شيء من بدنه بعورة إلا كراهة النظر الى فرجه كما مر فى عورتها معه ، وإن كان أجنبيافقيل عورته مابين السرةوالركبة ، وقيل ماعدا الوجه والكفين كعورته فى الصلاة — إلا أنه لايجوز لها تكرار النظر اليه بدون حاجة ، لما قدينشأ عنه من فتنة لم تكن فى حسابها . والفرق أن الرجال منوط بهم من الأعمال مايشق معه الاحتجاب ، بخلاف مايناط بالنساء .

أما عورة الرجل مع الرجل والمرأة مع المرأة ، فما بين السرة والركبة فى الأجانب والعورة المغلظة وهى الفرجان فى المحارم . وحيث

قلنا : لايجوز النظر ، فلا يجوز اللمس أيضا من باب أولى ، لأن الضرر في الملامسة أشد منه في النظر ، ولذلك حكموا بأن الانزال بمجرد النظر لايفطر الصائم ، بخلاف الأنزال بالملامسة فانه يفطر ، وكذلك تحرم المضاجعة في فراش واحد ، ولو بين رجلين أوامرأتين ، لقوله صلى الله عليه وسلم : «لايفضى الرجل الى الرجل في ثوب واحد ، ولاتفضى المرأة الى المرأة في ثوب واحد» ، هـذا وللحكم تفصيلات واختلافات بين الفقهاء محل استيفائها كتب الفقه .

و بعد هذا نرجع الى تفسير الآية الكريمة :

قال تعالى : « قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم » :

قد عرفت مابين هذا الحكم والأحكام السابقة من سبب متين وصلة قوية ، فلا يزال الكلام فيما يكفل صون الأنساب وحفظ الأعراض ، وفي توسيع الحرم الذى يصون تلك الحُرم المقدسة عن أن تمتهن أو تقترب من الامتهان ، وكلما عظم خطر الشيء حسن توسيع حرمه وتقوية حماه . وقد شرحنا لك مايترتب على النظر من عظيم الضرر .

وتوجيه الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ، لأنه من باب هيمنة المربى على المربّى ، فقد يفرط من المرء من ذلك بعض المنهيات وهو غافل ، فالهوى يقظان دائما ، والعقل قدتغفله الشهوات ، فكأن

الأمر بحاجة الى هيمنة البعض على البعض ، وبخاصة متى كان للبعض حق الهيمنة العامة . وذلك شأنه صلى الله عليه وسلم مع المؤمنين، ويلحق به كل من له الاشراف ، بل المؤمنون فى مثل هذا بعضهم على بعض رقيب ، فذلك من باب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فهذا من الأساليب المقوية للتماسك بين جماعة المؤمنين ، وكأنها تجعل بعضهم فى كفالة بعض .

وتخصيص الحكم بالمؤمنين ، لأنهم هم الذين ينتظر منهم الامتثال تدينا وللاشارة إلى أن وصف الايمان من حقه أن يحمل على اتباع هذا الهدى ، وليكون لقوله : « ذلك أزكى لهم » موقع المناسبة التامة ، وإلا فالكفار إذا وقع منهم هـذا : استوجب ذلك عقوبتهم فوق عقوبة الكفر ، على رأى من يقول إنهم مخاطبون بفروع الشريعة ، وإن كان لا يقبل منهم الامتثال المثاب عليه إلا بعد الايمان .

وقوله : « يغضوا من أبصارهم » مجزوم فى جواب الأمر ، كأنه قيل قل لهم : غضوا يغضوا ، أى إن قلت لهم ذلك غضوا من أبصارهم كما تقول : علمه يستفد ، وأكرمه يتبعك . والغض : الكف ، ودخول « من » المشعرة بالتبعيض ، لأن غض البصر جملة متعسر شاق ، فالمراد أن يكفوا من أبصارهم مايتجاوز حـد الاباحة ، لا أن يغضوا أعينهم تماما . وتقديم الأمر بغض البصر على المقصود بالذات من الأمر وهو حفظ الفرج ، من باب تقديم الوسيلة على المقصود ، وفيه فضل تقرير للأمر بحفظ الفرج ، فانه حيث علم أنه قد أمر قبل حفظ الفرج بسد

الطريق التى قد تفضى الى امتهانه ، علم أن له فضل عناية عند الآمر .

وحفظ الفروج : أى عن أن تقع فى الفجور والمنكر . وقيل : المراد هنا سترها ، وأن هذا المعنى خاص بهذه الآية ، وأن كل ماورد فى القرآن من الأمر بحفظ الفروج معناه حفظها من الزنا ، إلا هذه الآية ، فالمراد الستر . ولكن الظاهر أن المراد فى الجميع واحد ، وهو حفظها من الوقوع فى منكر : من كشف ، أو لمس ، أوزنا ، أو ما ماثل ذلك ، وكأن تلك المنكرات متلفة لها ، فصونها عنها حفظ لها من التلف والفساد .

وقوله تعالى : « ذلك أزكى لهم » أى أوجب لطهارتهم من دنس الريبة ، أو أنفع لهم فى الدين والدنيا . والاتيان بصيغة أفعل قد يكون للمبالغة فى الطهارة أو النفع ، لا على معنى التفضيل على شيء آخر فيه ذلك ، بل على معنى أنه يوجب من الطهارة حظا وافراً .

وقوله جل شأنه : « إن الله خبير بما يصنعون » من أحسن الاختتامات وأنسبها بهذا المقام ، فان جولات الأبصار لايحيط بها إلا من لاتدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ، وقد يسارق الشخص النظر الى ناحية وهو متظاهر بالتوجه الى غيرها ، وكذلك الأمر المتعلق بالفروج لا يخفى أن من يريد مخالفته يعمل كل جهده فى إخفاء ذلك عن جميع الناس ، فجاء قوله جل شأنه : « إن الله خبير بما يصنعون » ليسد طرق الحيلة على من تحدثه نفسه أن يتحايل على إخفاء شناعته عنه ،

بتفهيمه أن الله خبير بكل مايصدر منه وإن خفى ، مهما حذق فى إخفائه ومهر فى تدبيره ، كما يفهم من لفظ يصنعون ، فهو مشعر بالحذق والمهارة . يقال : إن رجلا راود امرأة فلما اقترب منها انتفضت . فقال لها : م تخافين ولا يرانا إلا الكواكب ؟ فقالت له : فأين مكوكبها ؟ ! ففر منها . وحقا قال الله تعالى : «وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين » .

وأما قوله تعالى : « وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن » فانه أعيد الحكم مع المؤمنات مع أن أغلب الأحكام ترد فى شأن المؤمنين فتشمل المؤمنات تغليبا ، أو مقايسة ، لأمرين : (الأول) أن خطر الأمر فى هذا الموضوع بالنسبة الى النساء أشد ، فهن أصل البلاء فى هذا الباب . و(الثانى) أن الحكم يستدعى مزية تفصيل هو الآتى بعد ، وهو قوله :« ولا يبدين زينتهن » الخ .

والزينة المراد بها ماتتجمل به المرأة مما يتصل بجسمها أتم اتصال كالتكحل والاختضاب ، أو مايلابسه ، كالحلى ، والثياب . وقال بعضهم : بل هو كل ماعاد عليها بالحسن والجمال حتى خلقتها . وسواء أكان هذا أم ذاك فالزينة هنا مقصورة على ما اتصل بجسمها ، فلاحرج فى الزينة أن ترى اذا لم تكن ملبوسة ، واذا كانت متصلة بجسمها ، فالحرمة فى الحقيقة واردة على جسمها لا على نفس الزينة ، وإنما أوردها على الزينة للمبالغة فى صون محلها عن أن يرى ، فكأنه قيل : اذا كانت الزينة قد نهى عن إبدائها ، فكيف الحال فى المزدان بها ؟ أو هو من باب الكناية . وهو الشأن فى المواضع المبنية على الستر ، فقد

جرت العادة أن يكنى عنها لا أن يصرح بها ، وكأن ذلك من باب ستره ذلك أيضا حتى عن السمع أن يطرقه : فى بالك بالبصر أن يلمحه ؟

والمراد بما ظهر منها ماجرت العادة بكشفه لاقتضاء الضرورة ذلك ، وذلك هو الوجه والكفان ؛ لأنه لاغنى عن كشفهما غالبا ، ويلتحق بهما القدمان عند بعضهم .

وقيل المراد بها الثياب والجلباب ، ويشهد له قوله تعالى : « خذوا زينتكم عند كل مسجد » فان المراد مايستتر به من الثياب .

وقد اختلف فى هل المراد نفس الزينة أو محلها ، ولكن لم يقل أحد إن الزينة المنفصلة عنها يحرم النظر إليها ، وإنما الكلام فى المتصلة كما سبق ، فمن قال : إن المراد المحل ، يكون المراد : ولا يبدين شيئا من جسمهن مما هو موقع للزينة . واختيار هذا الأسلوب فى التعبير للتنبيه على علة الحكم وهو الصون لما ينبغى أن يضن به . وأما من قال : المراد نفس الزينة ، فيقول : إن الأمر بسترها مبالغة فى الأمر بستر المواضع ، فانه إذا أمر بستر مايتصل بالشىء ، كان ذلك أبلغ فى الدلالة على الأمر بستر نفس الشىء . وأياما كان فالذى يظهر عادة هو ما اتصل بالوجه أو باليد : من نحو كحل ، أو خاتم ، وخضاب ، والذى لا يظهر عادة ما اتصل بعضد أو ساق : كدملج وخلخال .

وقوله تعالى : « وليضربن بخمرهن على جيوبهن » إرشاد إلى كيفية إخفاء بعض المواقع التى كانت العادة جارية بظهورها . فتخصيصها بالذكر مع دخول المستور بالخمر حينئذ فى قوله : ولا يبدين زينتهن إلا ماظهر

منها ، لاقتلاع تلك العادة التى كانت متفشية فيهم ، فكأن الآية تشير الى أن النحور والصدور وإن كانت مما اعتيد ظهوره عندكم ، ولكنهما ليسا مما تقضى الضرورة بكشفه كالوجه واليدين ، فلا يدخلان فى قوله : «إلا ماظهر منها»

والخُمر : جمع خمار ، وهو ماتغطى به المرأة رأسها ، مأخوذ من الخمر بمعنى الستر ، وكان من عادتهن أن يضعن الخمر على رأسهن ويسدلنها على ظهورهن فتبقى نحورهن وصدورهن عارية . والجيوب : جمع جيب ، وهو فتح فى أعلى الثوب يبدو منه بعض الصدر . والضرب بالخمر على الجيوب معناه إلصاقها بهذه المحال وجعلها ملازمة لها كضرب الخيمة فى المكان

قال تعالى : « ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن » الخ :

هذا إعادة للحكم ، زيادة فى تقريره بالتكرير وتربية للعناية ، وتوطئة للاستثناء ، استثناء آخر ، وذلك أن المستثنى فى الأول كان من جنس المستور ، والمستثنى فى هذا من جنس من يطلب الستر عنهم ، فالمستثنى منه هنا محذوف ، وفيما سبق مذكور ، كأنه قيل هنا : ولا يبدين زينتهن لأحد إلا لبعولتهن . وقد بدأ بالبعولة أى الأزواج لأنهم أحق الطوائف ألا يستر عنهم شىء ، ولأنه يباح لهم النظر لجميع البدن ، والملامسة كذلك ، وإن كره بعضهم النظر إلى الفرج فليس لأنه عورة فى حقه ، بل لأن محاسن الآداب تنبو عنه ، والنفوس ينبغى أن

تصان عن مثل هـذا التغلغل فى الشهوات البهيمية ، وقد قيل :إن النظر اليه يورث الطمس ، والعياذ بالله .

وقوله : « أوآبائهن أوآباء بعولتهن » المراد به مايشمل الأجداد ، سواءأكانوا أجدادا لأب أم لأم . وقوله : « أوأبنائهن أوأبناءبعولتهن » كذلك : المراد بهمايشمل الابن وابن الابن وابن البنت وإن نزلوا

وقوله : « أو إخوانهن أو بنى إخوانهن أوبنى أخواتهن » الاخوان والأخوات لافرق فيهم بين الأشقاء ، وأولادالعلات أى الأخوةلأب، وأولاد الأخياف ، أى الاخوة لأم ، وبنوهم وبنوهن يشمل الابن المباشر وابن الابن أوابن البنت وإن نزل . ولعل فى مغايرة التعبير فى الأبناء تارةبلفظ الأبناء وتارةبلفظ بنى ،أن لفظ الأبناء يقال فى الكثير للأشخاص الذين يتفقون فى صنف القرابة ، ولفظ بنى يقال فيماهو أوسع من ذلك . فيقال مثلا : بنى تميم ولايقال أبناء تميم ، فلما كانت الاخوة والأخوات فيها من السعة ماليس فى أبنائهن ولا فى أبناء بعولتهن لأن تعدد الأخوة والأخوات أكثر عادة من تعـدد البعولة ، عبر بالأبناء فى الأول ، وببنى فى الثانى .

ولم يذكر فى الآية الأعمام و لأخوال ، وألحقـهم أكثر الفـقهاء بالمذكورين لأنهم محارم . وقيل : بل الأحوط إلحاقهم بالأجانب . وهذا الحـكم كمايجرى فى محارم النسب يجرى فى محارم الرضاع . فلها أن تبدى زينتها لأبيها من الرضاع ، أى زوج مرضعتها ، وكذا ابنها وأخوها من الرضاع ، وهلم جراً .

وقوله تعالى : « أو نسائهن » المراد به النساء الحرائر المؤمنات ، فهن اللاتى يسمين نساءهن ، أى المختصات بهن من النساء ، أما الأماء فسيأتى دخولهن فيما ملكت أيمانهن . وأما المرأة الكافرة فقيل : هى من المسلمة كالأجنبى ، وقيل : تنظر مايبدو عند المهنة ، وقيل : بل هى معها كالمسلمة ، وعلى هذا يكون تخصيص النساء بهذه الاضافة ، كأنه لما أن الحمل فى النظر أولا وبالذات إنما يصح أن يختص بالمؤمنات ، فاذا أبيح شىء من ذلك الذميات فمن باب رفع الحرج أو نحوه ، أو الاضافة ليست للتخصيص ، بل هى معممة ، وكأنه قيل : النساء اللاتى هن من جنسهن ، فلاحرج .

وقوله : « أو ماملكت أيمانهن » قيل : إن ذلك خاص بالاماء ، فلا يحل للعبد أن يرى من سيدته ، وقيل بل لعبدها أن يرى منها مايراه محرمها . واستدل أصحاب هذا القول بأن عائشة رضى الله عنها كانت تمتشط بحيث يراها عبدها ، وبأنه صلى الله عليه وسلم أهدى غلاما لفاطمة رضى الله عنها فأخذت تستتر . فقال عليه السلام : ليس عليك من بأس إنما هو أبوك وغلامك . أى إنما الحاضر أو الناظر هما الاثنان ، ولا بأس عليك من رؤية أبيك ولا من رؤية غلامك . واحتج الآخرون بقوله عليه السلام : لايحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تسافر سفرا فوق ثلاث إلا مع ذى محرم . والعبد ليس بذى محرم منها أيضا ، فملك المرأة للعبد ليس كملك الرجل للأمة ، فلا يحلل ما كان محرما قبل الملك .

وقوله تعالى : «أوالتابعين غير أولى الأربة من الرجال» هم المسنون الضعفة الذين يتبعون الناس ليصيبوا من فضل طعامهم ، أوالبله الذين لايفهمون من أمور النساء شيئا ، أوالممسوحون الذين قطعت مذاكيرهم جميعها .

وقوله جل شأنه : «أوالطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء» فيه كلمة يظهروا : إما بمعنى لم يفهموها ولم يعرفوا من أمرها مايعرف الرجال ، من قولهم : ظهر على كذا أى اطلع عليه وعرفه ، وإما بمعنى لم يقدروا عليها ولم يصلوا الى درجة معالجتها ، من قولهم : فلان ظهر على فلان أى تفوق عليه وقدر عليه ، ومعناه الذين لم يقدروا على الجماع . فالمعنى الأول يقتصر على من لم يميز ، والثانى يشمل ماعدا المراهق المشتهى .

قال تعالى : « ولايضربن بأرجلهن ليعلم مايخفين من زينتهن » :

ماأجمل إتباع هذا الحكم لما قبله ! فقدسد على المتصنعات طريق الحيلة ، وأبان لهن أن الله محيط بما يحاولن من التطلع لخرق هذا الحجاب الذى هو فى مصلحتهن ، وبه صونهن ، بل عليه يتوقف أمر الرغبة فيهن ، والاتجاه الصحيح نحوهن ، وأنهن اذا تعجلن الوصول الى الرجال باختراق هذا السياج ، حرمن من غايتهن التى سعين لها ، وانقلب سعيهن وبالاً عليهن .

ولا يفوتنا أن نشير الى ماابتليت به الأمة فى زماننا هذا من إعراض الرجال وبخاصة الشبيبة المتعلمة عن الزواج ، بل تحاميهم الوقوع فى هوته السحيقة ، مما ضج بالشكوى منه كل ذى أسرة .

وإن السبب فى هذه النكبة التى حلت بالأمة لايعدو ماتدهور فيه النساء من ذلك التبرج الممقوت ، الذى جر الى مالاتستبيح الأقلام أن تخوض فيه ، فكان أن ساءت ظنون الرجال بأغلب النساء ، وكان أن خمد ميل الرجال إليهن ، وصدق عليهن قول الشاعر :

عرضنا أنفساً عزت علينا عليكم فاستخف بها الهوان

ولو أنا منعناها لعزت ولكن كل معروض مهان

قال جل شأنه : «وتوبوا الى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون» :
هذا أحسن مايختم به مثل هذا الحكم الذى مهما بالغ المرء فى امتثاله فلا يكاد يسلم من مقارفة شىء منه ، ولو فى حال الذهول عن نفسه ، وداعى الهوى يقظان دائما . فقد يفرط من المرء فى غفلته مايفرط ، فلا يتنبه إلا وقد سبق السيف العذل ، وهذا شأن النفس البشرية ، ولاسيما فى مثل هذا المقام ، فجاء الأمر بالتوبة للمؤمنين جميعا تلافيا لماعساه أن يفرط ، وعقب بأن التوبة مما يرجى معه الفلاح الذى هو نهاية المقاصد ، وبالله التوفيق

الترغيب في النكاح والرفق بالارقاء

(وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله والله واسع عليم . وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً حتى يغنيهم الله من فضله والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً وآتوهم من مال الله الذى آتاكم ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ومن يكرههن فان الله من بعد إكراههن غفور رحيم . ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات ومثلا من الذين خلوا من قبلكم وموعظة للمتقين):

لقد مضى الكلام آيات تلو آيات فى التحذير من قربان الزنا وشرح مضاره ، وما يتصل بذلك من الأحكام اتصالا قريبا أو بعيدا : من الأمر بغض البصر ، وإخفاء الزينة ، والاستئذان عند دخول المنازل ، ومن صون الأعراض عن أن تنالها الألسنة بسوء من هذا القبيل ؛ فأخذ من مجموع ذلك أن لهذه الفاحشة من الآثار السيئة مالا يقبل الهوادة فى العلاج ، ولا التسامح فى المظان ، فطبع له بذلك فى النفوس صورة من أقبح الصور وأوجبها للبعد . ولا تكاد تجد الشارع الحكيم حظر على الناس أمرا مما تميل اليه الطباع البشرية إلا عوضهم عنه

ماهو خير منه : فبعد إشباع القول فى الزجر عن الزنا يجيء الكلام فى العوض الذى هو خير منه استمتاعا ، وأثبت أصولا ، وأنمى ثمرة ، ذلك هو النكاح ، إذ يصل المرء الى بغيته المنشودة وهو هادىء النفس مستريح البال لايزعج ولايزعج . ولاتحدثه نفسه بأنه آذى أو تعرض للأذى ، وتجد الحياة بينهما مستقرة ، مبناها تبادل الحب الصادق ، وتعاون الطرفين على مصلحة الطرفين ، فينتج من بينهما بنون وبنات يقدمون على أبويهما بالسعادة والهناءة ، فيتلقيانهم بالبشر والترحاب والفرح العظيم ، لا كذلك المولود القادم على المسافحين نذيرا بهدم اللذات ، وتفريق الجماعات ، وتنغيص العيش ، والتذكير بعقبى الطيش ، فيتلقى كما يتلقى الغريم ؛ بل ينظر إليه كأنه الشيطان الرجيم ، وكأنه يقول لهما : فضحتكما وهتكت ستركما ، فأين تفران منى اليوم ولات حين مناص ، ولاينفعكما الندم ! وهنا تدور تلك المعركة الطاحنة المشئومة ، وكثيرا ماتقضى على ذلك النذير الضعيف ، فيقتلانه عمدا وهو فلذة كبدهما ، وقطعة من حشاشتهما ، فياالهول المنظر ، ويالبؤس تلك النفوس ، ويالوخز الضمير !

وتصور كيف ينقلب النعيم إذذاك جحيما ، وكيف يتحول ذلك القلب الرحيم شيطانا رجيما ، وأى مظهر من مظاهر الشيطان أشنع من أن يبطش المرء بنفس منفوسة لم تجن ذنبا عليه ولا على غيره فيقتلها، ويراها صريعة أمام عينه تسأله : ماذنبى الذى استحققت به بطشك ، ثم تذهب الى ربها بريئة مظلومة ، تشكو اليه ظلم أقرب الناس

اليها ؛ ومن كان هو أولى الناس بالمحافظة عليها وطريق اندراجها فى هذه الحياة مكتفية بترديد قول القائل :

هذا جناه أبى على م وماجنيت على أحـــد !

وفكر بعد ذلك فى لحظات يقوم فيها ذلك الجانى من نومه مذعورا ، إذ يبدو له شبح جريمته ، ويتمثل له شخص فريسته ، يذكره بما صنع به ، فيشرد عنه النوم ، ويمزق عنه لباس الراحة والهدوء ، ويطرده عن مخيلته فلا يطرد ، ويبعده عن ذاكرته فلا يبتعد — أفتراه بعد هذا كله تتجه نفسه الى تلك النفس التعسة التى شاطرته هذه الجريمة فيحبها ويتصل بها ؟ أم أنه يراها مبعث الشقاء وأصل الداء ، فيصب عليها اللعنات وهى تقابله بالمثل ، فما أشبههما بأهل النار : كلما دخلت أمة لعنت أختها : ومن يكون من أهل النار اذا لم يكن هذان المجرمان أحق بها وأهلها ؟ : فلا معنى للشبه هنا ، وإنما هما من عماد أهلها .

هذا اذا قويا على الفتك بمهجتهما وثمرة قلبهما . فاذا أدركهما الخور واكتفيا بإبعاده عنهما ، فقد عرضاه للعار والشنار والاحتقار ، وتربى سبة على نفسه وعلى شقيين متواريين تنزل عليهما اللعنات وهما يستمعان ولا يجرؤان أن يعترضا على لاعنهما . ولا أن يقتصا لأنفسهما ، كلا ، بل لا يقدران على التظلم والشكوى . وقد يريانه ابنهما ويعرفانه كما يعرفان أبناءهما . ولكنهما يفران منه أشد الفرار .

تأمل هذا ، وماخفى فهو أعظم . وقارنه بما تقرؤه فى قوله تعالى : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل

بينكم مودة ورحمة » فجعل الصلة بين الزوجين وما تضمنت من أسباب السعادة آية من آيات الله ؛ إذ تضمنت حكمة أنها من أنفسهم ، وأنها تطمئن إليها النفوس وتسكن الخواطر ، وبها يزول عن المعيشة أسباب الاضطراب والتقلقل ، وقد حفهما جل شأنه بشعار المودة والمحبة ، وقرب بين نفوسهما بالمحبة الصادقة الثابتة ؛ وأسدل عليهما ستائر الرحمة تكتنفهما ، فيحوط كل منهما صاحبه بما يحوط به نفسه ؛ ويرى حياته رهن حياته ، وسعادته صنو سعادته ، وهناءته قرين هناءته ؛ صدق الله العظيم : «ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » .

وهنا أستميح القارىء قسطا من سعة صدره ؛ وأستمنحه جزءا من أناته وصبره ، لأتلو عليه كلمة كتبتها فى موضوع الزواج واستحكام أزمته ، وأجلو له صفحة عالجت فيها هذا الموضوع الذى تشكو الأسر من ركوده ورقدته ، والله المستعان:

قال الله تعالى : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة » وقال جل شأنه : وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله والله واسع عليم » :

الزواج مبدأ تكوين الأسرة ، ومدار استمرار العمران ، وعليه التعويل فى بقاء الكون ونمو الأمم . عون على نظام الحياة ؛ باعث للهمم الى العمل ؛ وسيلة لهناءة المعيشة وجعل الحياة سعيدة . وحسبك

منه أنه قاطع لجرثومة الفساد فى الأخلاق ، وعون على صون الشرف والأعراض ، وقاطع لدابر الشرور والخصومات ، والعداوات بين الأسر والجماعات ، بل هو فاتح للتواد والتحاب بين الناس أسرا وأفراداً . فكم من شخص كان فذا فى حياته لانصيرله ولا عضد ، فكان بالمصاهرة عزيز الجانب ، مخطوب المودة محفوظ الغيبة ، كثيرا بالمصاهرة ، عزيزا بما استحدث من أسرة ، وبمن انضم اليه من جماعة . وكم ترى من خامل النفس ميت العزيمة متراخى الهمة ، قد اشتد بالزواج أزره ، وانبعثت من رقدتها همته . وتحركت نحو العمل عزيمته . وأصبح فى الحياة عضوا عاملا نشيطا يسعى ويجد ، ويعمل ويكد ، لأن الزواج أشعره بواجبات كان فى غفلة عنها ، وناط به مصالح كان لاصلة بينه وبينها . فتكسب أمته من نشاطه وحياته العملية أكثر مما تكسبه منه من أبناء وذرية . ولا تسل عن حفظ المرء صحته بالزواج ؛ سواء من جهة ابتعاده عن الخنا الذى يجر الى شر الأمراض ، ومتعاصى الأدواء ، أم من جهة انتظامه فى معيشته على الوجه الذى أعد له ؛ فيستكمل نظامه الحيوى الذى عليه مدار بقاء الفرد وبقاء النوع على وجه لاغبار عليه . ولاخوف منه ولاخطر فيه . فاذا ما رأى بعد ذلك منزله وقد عمر بالأبنا والبنات ؛ ودبت فيه روح الحياة الجديدة . فيصبح ويمسى يشاهد من نعم الله عليه مايشرح صدره ، ويقر عينه ، ويدخل السرور الى قلبه ؛ ويزيل الهموم عن صدره ، ويبعث الحياة جديدة فى دمه ، سمت روحه وعلت

نفسه ، وأصبح شعوره قويا بمعنى الحياة وسموها . وهنا يجد النشاط الى نفسه أقوم سبيل ، وينفتق فكره عن وسائل الترقية في الأعمال الحيوية لأمته . لا لشخص أمته ، بل لأنه يرى في خدمته لأمته الوسيلة الوحيدة لخدمة أمته له . وهل الرزق إلا قيم الأعمال التي يقدمها المرء للمجموع ، فيأخذ ثمنها من المجموع على حسب قيمة ما أدى اليه ؟

كل هذا إذا أضفت اليه السلامة من الطغيان ، ووساوس الشيطان ، ومعصية الرحمن ، والوقوع في الخسران ، وجدت الأمر أعلى من أن يتنازع فيه ، وأكبر من أن يستهان به . فكيف وقد دعت اليه الطبيعة السليمة . بل يكاد يكون مغروسا في بعض الفصائل الحيوانية بالفطرة .

إذا كان الأمر على هذا الوجه من الوضوح والخطورة ، فما الذي أزمة الزواج قد استحكمت حلقاتها ، وشاع بين شبابنا — وبخاصة في المدن العامرة — الأعراض عن الزواج ، بل التبرم به والتأفف منه لمن تزوج ، والفرار والخوف منه بالنسبة لمن لم يتزوج ؟ إنه لأمر عجب ، ولكن ما من حدث إلا وله سبب . وإنا نريد أن نعرض لشرح تلك الأسباب بحسب ما نستطيع ، وإن كانت أسباب ذلك من التنوع والتفرق والكثرة بحيث تشذ عمن أراد الأحاطة بهـا . ولعلنا نوفق للالمام بأهمها وأكثرها شيوعا وأعمها أثرا . ولنحصر الأسباب الآن في أربعة :

(١) انحاط الآداب .

(٢) التغالى فى المهور والاسراف فى الجهاز .

(٣) تراخى المودة الزوجية بسبب إعنات النساء للأزواج فى السرف والبذخ وشتى المطالب .

(٤) التطلع لسعة الحياة المادية ومحاولة ضمان ذلك للذرية .

السبب الأول انحطاط الآداب ، ولعل ذلك أهم الأسباب :

من القواعد الاجتماعية المطردة ولوع الأمم المغلوبة بمحاكاة الأمم المتفوقة فى عاداتها ومقوماتها مهما كانت قبيحة أو مشوهة أو منكرة . وقد جدت أسباب وعوامل أدت الى أن تكون للأمم الغربية حضارة مادية قوية ذاقوا لذتها ، فعكفوا عليها وتوسعوا فيها؛ فجنوا منها ثمارا لا يستهان بها ، واستخرجوا من كنوز الأرض والقوى التى بثها الله فى الكائنات ماشرح قوله تعالى : « خلق لكم مافى الأرض جميعا » شرحا باهرا ؛ فكانوا بحق أساتذة أهل العصر فى اجتناء الثمار المادية ، واستخدام الأسرار الكونية التى رفهت الحياة وسهلت كثيرا من مستصعباتها ؛ فبهرت الأمم لما دان لهم من هذه المستكشفات والمخترعات ؛ حتى نسوا ماجاء عن طريق الشرق من حضارة روحية ومدنية معنوية كان لها أعظم الأثر فى سعادة البشر .

إن الحضارة نوعان مافى ذلك شك : حضارة روحية قوامها تصفية النفوس ، وتهذيب الأخلاق ، وبث الفضيلة ، ونشر التعاطف ،

والتودد بين الناس ، والسمو بالنفس الانسانية الى المستوى العظيم اللائق بها ، وهو إخلاص العبودية لله ، والتحرر من الرق لأحد سواه ، وتعديل مزاج قوتيها الشهوية والغضبية ، حتى تسير على قانون العدل فى كل شئونها ، ودفعها الى العلم والحكمة لتحيط بما به سعادتها فى الدنيا والآخرة . وهذا النوع من الحضارة قد استأثر به الشرق ، مهبط الشرائع ، ومبعث الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام . والنوع الثانى: الحضارة المادية ، وقوامها استنبطاط الأسرار التى بثها الله فى المادة وهيأها لنفع الانسان فى هذه الحياة : من آثار البخار والكهرباء ، والآلات السريعة الأعمال ، والدقيقة الآثار ، وما يلتحق بها أو يتفرع عنها . وأستاذ هذا النوع فى عهدنا الحاضر هو الأمم الغربية من غير منازعة ولا إنكار .

وإن السعادة الكاملة فى هذه الحياة الدنيا ورغد العيش للنوع الانسانى مرتبط بهذين السببين بدون شك . ولكن أيهما ألزم لهناءة الحياة وسعادة المعيشة ؟ للجواب عن هذا يصح أن نتصور انفكاك أحد السببين عن الآخر ، فلنتصور الأمم فقدت مظاهر تلك المدنية المستحدثة ، فلم تتمتع بالقطار السريع ، ولا بالضوء الكهربائى ولا بالطرب للحاكى (الفونغراف) وحرمت تسجيل صورها بالمصور الشمسى (الفوتغراف) ولم يكن لديها من آلات الجراحة الدقيقة أو أجهزة الأشعة الكاشفة أو الوسائل المدمرة فى الحروب ، الفاتكة فى النفوس : من غازات خانقة ، ونسافات وطيارات ،

وما يتصل بذلك . نتصورها حرمت ذلك كله ؛ ولكنها ساد بينها الوئام والمحبة والقناعة ؛ والثقة والتراحم والمعاونة ؛ سادها الاخلاص لله فى العبادة ؛ ورضيت بميسور الرزق ؛ مع ترقية نفسها وأبنائها فى الأخلاق والآداب . ثم نتصور الأمم مرة أخرى قد أخذت بأكبر قسط من هذه الحضارة المادية ؛ والمستحدثات التى تمخض عنها هذا الزمان الحاضر ؛ ولكنها حرمت صفاء النفوس بين أفرادها ؛ وحرمت شيوع الأمانة فى معاملتها ، واستفاض الكذب فى مخاطبتها ؛ وغلبت شهواتها واسترسلت فى أحكام غضبها حتى تغلغلت فى إجرامها ؛ ولم يردعها الخوف من ربها ؛ وكان الحكم فيها لقويها على ضعيفها ؛ ولم ينتصر لمظلومها من ظالمها ؛ فأى العهدين أحق بأن يكون عهد سعادة وحياة ناضرة ؟ إنا لانشك فى أن الكفتين غير متوازيتين ؛ وأن الأثرين غير متكافئين . وأن شظف العيش مع صفاء النفس لايخل بالسعادة ؛ وأن حياة الترف مع فشو الأجرام لايجعل للحياة قيمة ؛ وأن الانسانية قد استفادت من الشرق مالا غنى لها عنه ؛ وقد أخذت من الغرب مافتح عليها باب شر فى الحياة لامنتهى لأمـــده ولا وصول لحده ؛ فاندفع الى الانغماس فى شهواته والمسارعة لرضا نفسه بشكل لايبقى على الهناءة .

وإن من عرف حياة المترفين المستغرقين فى تتبع مشتهياتهم ، يجدهم قد وصلوا إلى حالة ضاع معها الشعور بلذة ما كانوا ينعمون به ،

والتمست أذواقهم طعوما أخرى أشد لذة ممـا هم فيه ، فاذا أعوزهم ذلك عادوا الى بعض ما كانوا يأنفون منه . كأنهم يحاولون تجـديد أذواق ماتت عندهم ، فاذا فاتهم مايؤملون عادوا بحسرة وتنغيص . وخذ لذلك مثـلا بنى إسرائيل إذ سئموا المن والسلوى ، والتمسوا البقل والقثاء والفوم والعدس والبصل ، تعرف به حال أولئك المنغمسين ، فقـد أصبحت الأطعمة الفاخرة واللذائذ النادرة عندهم مألوفة تافهة ، بل مسئومة مملولة كالمن والسلوى عند بنى إسرائيل ، فما يظن لذة عندهم ويتوهم أنهم به منعمون ، هم فى الحقيقة به برمون ، ومنه متململون .

هذا هو شأن الانغماس فى المشتهيات والاستغراق فى اللذائذ ، يصل بصاحبه إلى درجة أن يضعف الأحساس بها حتى يتلاشى وحتى يسأم ويمـل . فاذا أضفت الى ذلك أن هذا المنغمس يستولى عليـه الضعف فى عزيمته ، وتصبح همته واهنة واهية ، كانت الخسارة فيه أشد والمصاب به أتم . ولقد قال بعضهم : الترف مرض اختيارى تجلبه النعم ويأخذه من يشاء . فاذا كان هـذا قصارى الثمرة المستفادة من حضارة الغرب ، فقد آلت بنفسها الى أنها شر ونقمة ، بدل أن تـكون خـيرا ونعمة ، فـكيف إذا ضممت اليها الحرمان من تلك الفضائل الروحية ، والمزايا النفسية ، والآداب الشرعية ، التى تنهض بالنفس الى المستوى الرفيع ، وتسمو بها إلى أعلى عليين ، وتجذب أطراف الانسانية بعضها الى بعض حتى تنظمها فى سلك التواد والتراحم

والتعاطف والتعاضد : وتجعلها كأعضاء الجسم الواحد إذا اشتكى عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر ؟

لقد استطرد بنا الحديث حتى كدنا نبتعد عما سيق الكلام له ، وعذرنا أن المقارنة بين الشرق والغرب وأيهما أعود على الانسانية بالخير والمنفعة ، مما خفى على الكثير حتى من المفكرين والمتصدرين للزعامة ، والزاعمين أنهم هداة قادة ، فقد اغتروا بتلك الآثار الخلابة ، وأسلموا عقولهم وأفكارهم لأصحابها ، ووقفوا جهودهم على تأييدها والدعاية الى التمسك بأهدابها ، وتقليد أهلها حتى فى أخس المنكرات وأحط الآداب ، وغفلوا عما يجره ذلك عليهم وعلى أمتهم من الشر الوبيل . فمن ذلك تلك الدعاية الممقوتة التى استفاضت على ألسنة الكثير من المفكرين ، وهى الدعاية إلى السفور ونبذ الحجاب ، وتحبيذ اختلاط النساء بالرجال والرجال بالنساء . لقد استعملوا كل قواهم وتعاضدوا من كل جانب لتلك الدعاية ، وتترسوا فيها بأن السفور باب العلم ، والحجاب قفل ذلك الباب ، وأن الداعى للتمسك بالحجاب حائل بين الأمة وبين العلم النافع . ومن يستطيع أن يرى نفسه قد وقف حائلا بين الأمة وبين العلم النافع ؟ ومن يقبل على نفسه لقب أنه عدو للعلم وهو مانصب نفسه للارشاد إلا بما أوتى من العلم ؟ كان ذلك التذرع بنشر العلم سلاحا حاداً استعمل بدهاء ومكر شديدين وساعد قوته ميل النفوس ، وبخاصة نفوس الناشئين ، الى فك العقال واطراح القيود ، والايغال فى بيداء الاطلاق ، فاندفعت فئة ممن

لايبالون بمركز أدبى أو عادات متمكنة أو آداب مرعية ، فزجوا بأنفسهم فى التجربة الأولى . فلما لم يجدوا رادعا تبعتهم فئة أخرى ، ثم كان من المترفين جولة جريئة باسم المدنية التى هم رافعو لوائها ، فتبعهم من يحاول اللحاق بهم ، حتى انفرط العقد ، وأصبح السفور عادة غير منكرة .

فهل وقف الأمر عند هذا الحد ، وقنع الشر بما اكتسب من القضاء على فضيلة الأمة الراسخة ؟ ! إذاً كان الخطب هينا ، وكنا نقول : بعض الشر أهون من بعض . ولكن ما العمل وبذرة الشر سريعة الانبات ، والنفوس الشهوانية تربة صالحة للغراس ! لقد جر هذا الى إحراز الشباب أمنيته . فقد تفتح أمامه سبيل الشيطان ، وزين للناس باب آخر هو من السفور بأمتن صلة ، ذاك هو الاختلاط فى الأندية والمجالس والمحافل ، ثم الانفراد أو الاجتماع الانفرادى (لا أدرى بما ذا أسميه) أقول : ثم تأبط الشاب ذراع الفتاة والابتعاد بها عن الرقباء والعيون ، يرتادون الخلوات ، ويتجولون فى المتنزهات ، ويعمدون فى بعض الأحيان الى دور الملاهى والملاعب ، يتلقيان دروس الغرام ، ومناظرات الحب والهيام ، ودور القبلات وأصناف المعانقات ، والمغازلات والمغاضبات . كل أولئك دروس تجرئ الهيوب منهما على الاقتحام ، ثم ينصرفان لا ندرى إلى أى مأوى ، ولايدرى أهلهما أين هما ولايجرءون أن يسألوهما . إنك ستنفر من سماع هذا الكلام ، وستنكر على الكاتب أن يسطر هذا على

صفحات مجـــلة نور الاسلام ، ولـكنها حقيقة تجرى بين فئات من الفتيان والفتيات ، ويخشى إذا استمر الحال أن يتسع خرقها ويتفاقم شرها .

وإذا كان مجرد ذكرها قد جر الى اشمئزاز القارىء إلى هـــذا الحد ، فكيف يكون مجراها وفشوها . وكيف مصاب الأسر الشريفة بها ، أوسريان عدواها اليها ، أو على الأقل تسرب التهم الباطلة نحوها ونحو أبنائها ، والناس سريعو التصديق لمااعتادوا رؤيته ، وكل يعيش على طبعه؟! وهل التعامى عنها سيقتلع جذورها ؟ إذاً لـكان الواجب السكوت عليها ، ولـكن طم الـكيل وعم السيل . هذا شىء موجود فى بلدنا ، وهو أصل كبير من أصول بليتنا فيما نشكو منه من أزمة الزواج ، وهو الموضوع الذى عرضنا للكلام عنه ، وإن تطوحت بنا السبل ، وتشعبت علينا المسالك ، فلقد كان من نتائج هـذا فى المدن أمران :

(الأول) الزهد فى النساء اللاتى كن محتذبات بسبب البعد فأصبحن مبتذلات بسبب القرب .

ولقد قال القائل :

عرضنا أنفسا عزت علينا　　عليكم فاستخف بها الهوان
ولو أنا منعناها لعزت　　ولـكن كل معروض مهان

(والثانى) إساءة الظن بهن وقياس الغائب على الشاهد ، فظلمت البريئات ولا يزلن يؤلفن الـكثرة العظمى فى الأسر ولله الحمد ، ولكن رب مستهترة جلبت سوء الظن على ألف مستترة ، فكان هذا السلاح

ذا حدين خطرين : أحدهما الاعراض عما سهل تناوله ، وثانيهما إساءة الظن بمن خفي أمره ، فأعرض الشباب عن الرغبة في الزواج ، والتمس لنفسه من المعاذير ما إذا حاولت إرجاعه عنه كنت تضرب في حديد بارد . وإنا نرجو القارىء عندوصوله إلى هذه النقطة أن يسكت قليلا ، ويفكر فيما يحيط به من معارف وجيران ، ويستعرض ما يقع نظره عليه وما يسمعه من الأفواه ، ويستنبط من نفسه مدى هذا الموقف وخطورته ، ثم يستنجد الحمية الاسلامية والغيرة الدينية والمصلحة القومية ، لعله يتوفق إلى طريق فيه إيقاف هذا السيل الجارف ، ولا أحد أصغر من أن يعين ، ولا أحد أكبر من أن يعان ، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه .

— السبب الثاني التغالي في المهور والتنافس في الجهاز :

هذا سبب له دخل في أزمة الزواج ، ولكن إلى حد ما ، فقد يكون الراغب في الزواج صادق النية في تكوين أسرة وتعمير بيت ، ويريد أن يعيش عيشة صالحة ، ويرى ألا سبيل إلى العيشة الصالحة إلا الزواج من زوجة صالحة ، فيدور بعينيه يمينا وشمالا يرتاد من يليق به مصاهرته من الأسر التي تناسبه ، فيجد نفسه بين أسرة كريمة ذات شرف وحسب ، وصيانة وأدب ، فيرغب في الاتصال بها ، ويعمد اليها يخطب مودتها ، فيجدها قد اعتدت بمركزها ، واعتزت بحسبها وأدبها بين الأسر المشتهرة ، وعفافها بين الفتيات الخليعة ، وثروتها بين أقوام فقيرة . وهكذا من المميزات الصحيحة المعتد بها ، والخاطب

يؤمن على ذلك ويغتبط به ، ولكن يروعه المفاجأة بتقدير الصداق الذي فرض ثمناً لذلك كله ، وإذا به ممايئنوء بالعصبة أولى القوة ، فمابالك بالفرد الناشىء وهو على أبواب الحياة العملية ؟ فاذا ما تبرم واستعظمه قيل له : إنا سنستحضر كيت وكيت : الأثاث والرياش ومايتعلق به ، فاذا قال : كل هذا لاحاجة لى به بل سيرهقنى ويكلفنى مالاطاقة لى به . قيل له : وهل تنقص عن كريمة فلان وزوجة فلان ، أو عن عمتها أو أختها ؟ وهكذا فاما أن يقبل وهو مالايستطيعه ، وإما أن ينصرف بنية أن يتروى وهوما يكون غالبا ، وقلما يكون له بعد ذلك عودة . فاذا اتجهت نفسه الى من لايغالى فى المهر وجد من المنفرات فى الآداب والعوائد مالا يحتمل ، فاذا ما استشار أحد أصدقائه للخروج من هذا المأزق وحل هذه العقدة ، كان أقرب جواب له : مالك وللزواج . أما أنت عاقل ! ألم تر ألم تسمع ! ويأخذ يقص عليه من أنباء الزيجات السيئة مايحل عزيمته ويحول دفة اتجاهه ، ومايدريك فلعله يقيض له من قرناء السوء من يزين له أسوأ الأعمال ، فيرتكس فى شر الأحوال ، ثم تبقى المخطوبة منتظرة مترقبة ، فربما طال عليها الأمد ، فلا ندرى أتصبح عانسا ترضى بالقليل ، أم تمسى بائسة يائسة لاحليل ولاخليل !

هذا سبب من الأسباب يساعد فى كثير من الأحوال على تفاقم ذلك الشر ، وإن كان أصله من عدم التبصر لامن نية السوء ، وهو وإن لم يصل الى ماقبله فله دخل لايستهان به .

السبب الثالث :

إعنات الزوجات أزواجهن في باهظ المطالب من ملابس غالية الثمن لايقصد بها الا التبرج عند الخروج من المنازل ، ومن أدوات التجمل التي قلما يكون للزوج نصيب منها ، ومن طموح الى ارتياد دور الملاهي على مختلف أنواعها ، أو المتنزهات العامة أو الخاصة . يضاف الى ذلك عند بعض الأقوام مصاريف حفلات استقبال أسبوعية أو شهرية بلا داع ولا مناسبة ، مما يرهق ويضيق الصدر ، فاذاما تهاون الرجل في أداء تلك المطالب الفارغة ، ثار بينهما نزاع ينغص الحياة ، ويقبض الصدر ، ويجعل المعيشة تعيسة متعبة .

يجري هذا للرجل فيشكوه لصديقه ، وهذا ينقله عنه متفكها متعجبا ، فيزيد الحديث بمستملحات تترد على الألسنة حتى تعم دائرة الأصدقاء . فتشوه الحياة الزوجية في نظر الجميع ، حتى يعد المقدم عليها مجازفا بهنائه وسعادته ، فتكون النتيجة تقوية فكرة الامتناع عن الزواج والحذر منه ، والخوف الشديد من الوقوع فيه .

السبب الرابع :

هو يقتصر على فئة يزعمون أنفسهم من المفكرين تفكيرا عميقا وبعيدا ، يرون أن الحياة قد كثرت مطالبها واشتد الزحام في نيلها ، فلا يأمن إذا ماتزوج أن يعقب أبناء وبنات يعرضهم ويعرضهن لهذا المعترك القاسي ، وليس لديه من التراث ما يكفي لترفيههم ، فيكون

بذلك قد قسا عليهم وزج بهم فيما لاقبل لهم به ؛ وكأنه يتمثل بقول المعرى متبرما بالحياة ومتاعبها :

هـــذا جناه أبي علـ ـي وماجنيت على أحـــد

بل إنه شبيه بمن وجه اليه النهي في قوله تعالى : « ولاتقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم » . فأمثال هؤلاء قد انعكست بصائرهم وعميت عليهم الطـرق ؛ وظنوا أن دولاب الزمان في أيدي العباد ؛ وأن تقـديرهم وتدبيرهم هو الذي يحول اتجاه الفلك ويقدر الأرزاق والأعمار . فابئسما سولت لهم أنفسهم وما أوقعتهم فيه عمايتهم وجهالتهم ! فمثل هؤلاء لايعتد بأفكارهم وإن كانوا يزعمون أنهم فوق مستوى الناس في تفكيرهم . ومن محاسن الاتفاق أن هؤلاء قليلون ؛ وعدواهم مأمونة ؛ وأفكارهم مقصورة عليهم .

والذي يعنينا هو الأسباب الثلاثة الأول ، فلعل شرحها وتبيانها يلفت أولي النظر السليم الى تلافي ضررها والخلاص منه ؛ والله يتولى هدانا الى سواء السبيل . ولنرجع الى تفسير الآية الكريمة :

من هذا يتجلى لك بأعظم وضوح تناسق هذه الآية الكريمة مع ماسبق . يقول تعالى : « وأنكحوا الأيامى منكم » — النكاح : هو عقد بين الزوجين يحل به الاستمتاع بينهما . وهو حقيقة في العقد مجاز في الوطء . وأصله بمعنى الضم ؛ يقال : نكح النعاس عينه إذا أغمضها . والأيامى : جمع أيم ، فقيل أصله أيايم على وزن فياعل كما هو قياس

جمع فيعل ، فدخله القلب المكانى ، أى قدمت الميم على الياء وفتحت لتصير ألفا . وقيل وزنه فعالى من أول الأمر ، وهو جمع شاذ ولا قلب فيه . والأيم : من لا زوج له ذكرا كان أو أنثى ، سبق له زواج أم لا ، كان خلوه من الزواج بموت أو غيره . وقيل من فقد زوجه بموت أو طلاق، فلا يقال للبكر أيم . وقيل خاص بالأنثى . واستدل له بما روى : «الأيم أحق بنفسها والبكر تستأذن » . والمعنى : زوجوا من لا زوج له من الأحرار والحرائر . «والصالحين من عبادكم وإمائكم». والمراد بالصلاح الصلاح الشرعى ، وهو القيام بحقوق الله الواجبة عليه : من امتثال أوامره ، واجتناب منهياته . وإنما خص بالصالحين فى الأرقاء وأطلق فى الأحرار لأن الصالح من الأرقاء هو الذى يستحق أن يطلب من سيده تزويجه ، على ما فيه من تفويت بعض منافع السيد والتزام بعض النفقات . وأما الأيامى من الأحرار فنفقاتهم على أنفسهم ، فالترغيب فى تزويجهم محمول على إطلاقه ، وكثيراً ما يحملهم الزواج على استقامة السير وتعديل العوج .

والأمر هنا لطلق الطلب لا للوجوب ، إذ لم يقل أحد إنه يجب على السيد أن يزوج عبده ، فلا وجوب فى الثانى اتفاقا ، فلو حمل الأول على الوجوب لكان اللفظ الواحد مستعملا فى معنيين متغايرين دفعة واحدة ، وهو مما لا يقول به الكثير من أئمة اللغة . وأيضا فقد استفاض فى عصره صلى الله عليه وسلم ومن بعده وجود الأيامى بدون نكير . نعم قد يجب فيما إذا تاقت نفسه ، ووجد مئونة النكاح ، وظن

الوقوع فى الزنا لو لم يتزوج ، فهذا من الوجوب لعارض . أما إذا لم تتحقق هذه الصفات فقد يكون مندوبا ، كما إذا تاقت نفسه ووجد مشقة فى زجر نفسه ووجد النفقة ، وقد يكون مكروها كمن خشى التفريط فى بعض ما يجب عليه بالزواج ، أو تفويت غرض صحيح تعين عليه القيام به ، وقد يكون حراما كمن تحقق بالزواج ارتكاب محرم كسرقة نفقته أو تضييع زوجه ، أو نحو ذلك ، وقد يكون مباحا فيما إذا تعادلت المقتضيات والموانع ، أو فيمن يقدر على النفقة ولا يجد عنده توقانا له ، ولكنه قادر على القيام بحقوق الزوجة . أما العاجز فقد قيل بكراهة التزوج له ، لأنه قد يمسك الزوجة ولا يعفها فربما تعرضت للمعصية . وعلى الجملة فاستيفاء الأحكام الشرعية فى هذا الباب ، وبيان أيهما أفضل: التزوج ، أو التخلى للعبادة ، موضعه كتب الفقه .

والأمر هنا موجه للأولياء والسادة بالنسبة للأرقاء ، أو موجه لجميع الأمة ، ويكون معنى الأمر بالانكاح الأمر بالمعاونة عليه ، والتمكين منه ، والتوسط فيه ، كأنه أمر للأمة بمجموعها أن تسهل طريق أمر الزواج فى بنيها . وهذا هو الأظهر .

قال تعالى : «إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله» — سد لباب التعلل فى تعطيل النكاح ، ولا تكاد تجد معطلا للنكاح إلا وهو يتعلل بضيق ذات اليد كما فصل فى السببين الثانى والثالث ، فرد عليهم هذا التعلل بأن الغنى والفقر بيد الله ، فلا خوف من التزوج ، فقد يكون الزواج مدعاة للغنى كما وعد جل شأنه . وإن فيما تجرى به العادة من حث الزوجة زوجها على السعى والعمل ،

ونفخها فيه روح الهمة والعزيمة ، وشعوره من ناحيته بأنه صار مكلفا بغيره ومسئولا عن راحة ومئونة من معه ، وأنه على وشك أن يكون له أولاد يتطلبون كافا كثيرة ، وما علا قلبه بعد التزوج من النخوة والحمية ، واستنكاف التضعضع والانهزام ، كل أولئك ينأى به عن الكسل والبطالة . ويدفعه طوعا أو كرها لأن يغامر فى سبيل الحياة ويكدح كما يكدح أمثاله ، وهو طريق عادى من طرق تحقيق الله وعده بالغنى لمن يتزوج . ولقد كان يلتمس الغنى بالزواج ، ويلتمس المجد بالزواج ، وتلتمس الاستقامة بالزواج . ولقد يضيع الأيم من المال ومن فرص إحراز المال بسبب الانغماس فى شهواته الدنيئة مالو احتفظ به لكان من الموسرين .

وقوله تعالى : « والله واسع عليم » تقرير لهذا الوعد الكريم ، فسعة فضل الله لا تضيق برزق هذين بعد اجتماعهما وقد وسعتهما حال افتراقهما ، فلا نفاد لنعمته ، ولا حد لقدرته . وإنما اختير الوصف « بعليم » دون كريم مثلا ، ليبين لنا أن ما يجريه جل شأنه على الزوجين من غنى أو فاقة إنما هو بحسب مشيئته وواسع حكمته ومقتضى علمه ، فهو مدبر الكائنات بعلمه ، ومنظمها بمشيئته ، وسع كل شىء علما . فربما كان من مقتضى حكمته أن يبقيا على فاقتهما ، أو أن يشتد فقرهما ، فلا اعتراض على حكمه ، ولا تعرض لمشيئته ، ولا نقض لما أبرم ، ولا دفع لما حكم : لا يسأل عما يفعل وهم يسألون .

لا يقال: إن الغنى بالمشيئة للأيم والمتزوج ، فما الذى أفادته هذه الآية؟ لأنا نقول:

إذاً لاتخش من الزواج فقرا ، ولا تبتعد عنه لهذا السبب ، فلا يصلح مانعا ، بل إذا جعلته سببا لسعة الرزق ، على مافصلناه فذلك صحيح منك ، غاية الأمر أنك لاتغالى فى سببيته وتجعله وحده الكفيل بجلب الرزق ، فان ذلك منوط بعلمه تعالى وحكمته ، فاسلك سبيل العمل المتقن ، والله لايضيع أجر من أحسن عملا ، ولافرق بين عمل الدنيا وعمل الآخرة .

وإذ كان تسبب الغنى عن الزواج هو بهذه المثابة ، من أنه مظنة لمن سلك سبيله لا أنه من الموصل جزما ، فلا تعارض بين الآية وبين قوله تعالى : «وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته » فلكل حالة حكمها فى علم الله تعالى ومشيئته ، ويتبين أيضا حسن موقع قوله تعالى : « وليستعفف الذين لايجدون نكاحا حتى يغنيهم الله من فضله » فانها لدفع غرور من يتوهم أن هذا هو الباب المضمون الموعود به الوعد الجازم ، كلا ، فذلك إنما هو المظنة ، أو على الأقل إزاحة التعلل به فى طريق إيقاع الزواج لمن يجد أصل المكنة .

ومعنى وليستعفف : ليطلب العفة بالعمل على مايحققها : من ضبط النفس ، وحفظ الجوارح والحواس عن الاسترسال فى طريق الشهوات ، ومنعها من الاشتغال بتذكر تلك اللذات ، وقد جاء « يامعشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فانه له وجاء » أى من وجد مايقدر به على تحصيل المستمتع فليتزوج فانه أحصن لدينه ، ومن عجز عن وجدان وسائله فليقطع عنه شواغل

الشهوة بالصوم ، فانه بتواليه مضعف لهذه الشهوة التى لايثيرهاإلا الامتلاء . ومعنى « لايجدون نـكاحا » لايجدون وسائله الموصلة اليه ، فعبر بعدم وجدانه وأراد عدم وجدان الوسائل الموصلة اليه .

وقوله تعالى : « حتى يغنيهم الله من فضله » فى التعبير بقوله حتى يغنيهم شبه وعد لمن كف عما يحب امتثالا لأمر ربه أن يمكنه الله من نيله متى صدقت نيته ، وذلك من فضله لمن يشاء ، والله ذو الفضل العظيم . ومن الأمر بالاستعفاف هنا أخذ بعض الفقهاء أن الاشتغال بالعبادة لمن تاقت نفسه للزواج ولم يجد ماينفقه ، أفضل . ورأى بعضهم أن الكد لتحصيل أقل مايلزم للزواج أفضل . وليس هذا محل استيفائه .

هذا وليس من الاستعفاف المطلوب فى الآية مايفعله بعض الحمق من استعمال أدوية تزيل عنهم هـذه القوة ، فذلك غـير جائز ، وقد تزول الأسباب الداعية اليه فيحاول عودة ماذهب فلا يجد اليه سبيلا .

قال الله تعالى : « والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيرا وآتوهم من مال الله الذى آتاكم » :

تقدم فى الآية السابقة الأمر بتزويج الأيامى الأحرار ، والصالحين من العباد والإماء ، وجاء فى تلوها مايفيد أن الله تـكفل لهم بالغنى ، وشرحنا فى وجه ذلك الأسباب العادية التى تصل بالمرء متى سلـكها سلوكا صحيحا الى باب الغنى وسعة الرزق ، وهذا أمر خاص بالأحرار

جزما ، ومسدود فى وجوه الأرقاء ، إذ العبد وماملكت يداه لسيده ، فهو مادام رقيقا لاسبيل له الى الغنى ، ولكن تلك الأسباب التى قدمناها : من حفز الهمة ، وإحياء الشعور ، وتقوية العزيمة ، واستنهاض المواهب الكامنة فى النفس ، أمر لايخص الأحرار وحدهم ، بل مثلهم فى ذلك الأرقاء ، فالناس متساوون فى أصل الخلقة ، وما كانت الظروف التى قضت على واحد أن يكون رقيقا لتغير من جبلته ولا أصل خلقته ، فلماذا نعطل فى العبد مواهب قد تكون ذات أثر محمود ؟

إن الشريعة التى جاءت لاصلاح شئون البشر عامة ما كانت لتهمل هذا القانون الالهى فى خلقة البشر ، وما كانت لتزيل سنة الله فى خلقه ، بل تؤيدها وتنميها ، ولكن هل معنى ذلك أن يجبر السيد على ترك حقه فى رقبة العبد بلا مقابل لأنه زوّجه ، فيكون قد جنى على نفسه بتزويجه إياه ؟ كلا ، لاشىء من ذلك ، إنما هو العدل فى المعاملة ، والفضل فى المعاشرة ، والاحسان فى العمل ، وبين العدل والفضل والاحسان لايضيع حق ولا تهمل مواهب . فيأيها السادة : ستجدون فى بعض عبيدكم من تتوسمون فيهم الخير ، وترون أنفسهم تتحفز لأرقى مما هم فيه ، فينتفع بهم انتفاعا أوسع ، فيطلبون اليكم أن يشتروا أنفسهم منكم بمال تمكنونهم من جمعه ، فتطلقون أيديهم فى الكسب مع امتلاك رقابهم — وأكثر مايكون ذلك اذا شعر العبد بنوع سيادة . وذلك عند تزوجه ، أو شعرت الأمة بنوع استقلال فى الحياة عند تزوجها ، ولعل هذا هو السر فى الاتيان بالآية الكريمة المتعلقة بأمر الكتابة

بين هذه الآى المتعلقة بأمر الأبضاع — فاذا وجدتم فيهم ذلك وجاءكم ما ملكت أيمانكم من يبتغى الكتاب منكم : فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيرا . والكتاب والمكاتبة : مصدر كاتبه اذا عقد بينه وبين عبده ذلك العقد . وهو أن يتعاقدا على أن يؤدى له مالاً فيعتقه على هذا المال فقد ضمن للسيد عوضا عن ملك يده . وهو ما يؤدى اليه ، وليفرض أنه باعه ، وضمن للعبد خلوص رقبته من الرق متى جد فى الاكتساب حتى حصل ما يطلب منه .

ولحرص الشارع الحكيم على تحرير الرقاب أمر أن يعطى المكاتب مالاً يستعين به على أداء ما عليه ليحرر رقبته . والتعبير عنه بمال الله لتقرير البواعث على الامتثال ، أى فذلك مال الله ، وهو الذى رزقكم إياه ، وقد طلب منكم أن تؤتوا بعضا منه شكرا له على إيتائه إياكم كله . وهل لو أنعمت على واحد بمائة وطلبت اليه أن يعطى فلانا منها عشرة ، يسعه أن يتأخر عنك ؟ هذا فى إعطائك وهو إعطاء مجازى ، فكيف بأمر من له النعمة والفضل . وهو وحده المعطى الوهاب ؟

والآية لتقرير حكم المكاتبة كما علمت ، وقد اتفق على طلبها ، واختلف فى وجوبها إذا طلبها العبد وكان أهلا للوفاء فى نظر السيد . والأمر بالايتاء فى قوله : «وآتوهم من مال الله الذى آتاكم» قيل موجه للسادة : فيجب على السيد أن يحط عن عبده شيئاً من المال المتفق عليه ، فقيل : الربع ، وقيل : العشر ، وقيل غير ذلك . وقيل موجه

لجماعة المسلمين، أى عاونوا المكاتبين على تحصيل مال المكاتبة تحقيقا لمراد الشارع من تحرير الرقاب ، وقد فرض لهم نصيب فى الصدقات فى قوله تعالى : « إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب » .

ومعنى « إن علمتم فيهم خيراً » أى أمانة وقدرة على أداء ما كاتبتموهم عليه . وللفقهاء كلام فى وجوبها حينئذ أو ندبها ، وفى وجوب تنجيمها أى تأجيلها على نجوم وأقساط ، أو جواز تعجيلها ، وفى وجوب حط شيء عنهم من مال الكتابة أو عدم وجوبه ؛ وليس هنا محل استقصائه .

قال تعالى : « ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا » :

هذا كلام عن حال كانت ذائعة فى الجاهلية وحصلت فى الاسلام، ولكن على يد من ادعى الاسلام وهو منه براء ، ذلك عبد الله بن أبى ابن سلول رأس المنافقين . وقيل حصلت من اثنين أحدهما هو . وتلك الحال كانت فى نظرهم من فروع العلاقات بين السيد وما ملكت يمينه، وهى عائدة على أمر من شئون ملك اليمين مما يرجع الى التصرف فى الابضاع، وهى أشنع ما كانوا يعملون فى هذا الباب . فلما قرر أمر تزويج الصالحين من العباد والإماء ، وأتبعه بأمرهم بالافضال على الأرقاء بالعتق ولو فى مقابلة المال إذا أنسوا منهم الخير ، وذلك يكون غالبا عقب زواجهم ، وإن كان الحكم فيه أعم ، أردف ذلك بالزجر عن تلك العادة القبيحة الممقوتة التى كانت موجودة فى الجاهلية وتسربت

بعض تسرب إلى جماعة ممن انتسب إلى الاسلام ؛ فعبر فى النهى عنها بعبارة تبرزها فى أشنع صورة وأقبحها ، وأبعدها عن الذوق الصحيح والطبع السليم ، فقال : « ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء » . روى أن عبد الله بن أبى — قيل : وآخر — كان له إماء يكرههن على البغاء ابتغاء أخذ الأجر على عهرهن ، وابتغاء امتلاك من يلدنه من هذا السفاح ، فلما نزل تحريم الزنا امتنعت إحداهن فضربها فشكت للنبي صلى الله عليه وسلم ، وقيل لأبى بكر ، فأبلغ شكواها للنبي صلى الله عليه وسلم ؛ فنزلت الآية . وروى أنه صلى الله عليه وسلم أمر أبا بكر بقبضها اليه فقبضها ، فصاح ابن أبىّ : من يعذرنا من محمد (صلى الله عليه وسلم) يغلبنا على مماليكنا ! فنزلت الآية .

وترى فى أسلوب الآية ضروبا من التشنيع على سوء فعالهم : فقد نهاهم عن الاكراه والاكراه أكبر شناعة من الاباحة لهن ومن أمرهن ، وعبر عنهن بالفتيات وهن فى هذه السن أميل للفجور ، وأبعد عن تقدير محاسن الأمور ، وأضافهن اليهم ؛ وإن من عنده أدنى ذرة من مروءة ونخوة لايرضى أن يمس هذاالفحش أحدا ممن يحويه بيته ؛ فكيف يأمر به أو يكره عليه ؟ والتعبير بالبغاء الذى هو زنا النساء خاصة ، لمزيد الشناعة ، فلا يدعو أحد امرأة تنتسب اليه لأن تزنى بغيره الا اذا عدم حاسة الشرف بالكلية .

وقوله : « إن أردن تحصنا » أكبر وأعظم في التشنيع ، فاذا كنّ هنّ وهنّ نساء ناقصات لا يقدرن الشرف والمروءة والغيرة قدرها، وفي سن الشباب حيث تشتعل الشهوة ويهيمن الطيش على الجوارح ، قد أردن التحصن ، فكيف بكم وأنتم رجال تزعمون أن لكم مجدا وكرامة ، تكونون أنقص منهن ، وليس بعائد عليكم شيء مما يشعرن به من لذة ضحينها وأعرضن عنها ! وفي التعبير عن رغبتهن بالارادة التي هي الميل المصمم الجازم مزيد تنويه بمسلكهن . ثم في كلمة التحصن مغزى دقيق ، وهو إبرازهن بصورة من يجعلنكم حصنا لهن يدرأن به عن نفسهن العوادي ، فهل يكون حصنهن هو الذي يجني عليهن ويسلمهن لما يكرهنه ! وهو استفزاز للنخوة والحمية لاتجده في التعبير بدلها بكلمة « تعففا » مثلا . ثم قوله بعد ذلك : « لتبتغوا عرض الحياة » كشف للقناع عن غايتهم من التدهور في هذه المخازي ، وذلك أخس غاية وأحقر غرض . وهل يبلغ امرؤ بالقدح في آخر أكثر من أن يقول عنه : إنه قوّاد ليأخذ دريهمات ؟ ففي التنصيص على غرضه من تلك السوأى أكبر تقبيح وأفظع تعيير

وإذ قد علمت أن الآية مسوقة للنعي عليهم ، وتقبيح فعلتهم ، والمبالغة في تفظيع مسلكهم ، وتصويرهم بأشنع الصورة ؛ علمت فساد مايتوهم من أن الآية خصت النهي عن الاكراه بحالة ما إذا أردن تحصنا ، فلو كان مفهوم المخالفة معمولا به لاقتضت قصر النهي على هذه الحال ، وذلك لأن من يقول بمفهوم المخالفة يخصه بما إذا لم يكن

للقيد المذكور فائدة إلا إخراج الصورة التى فقد فيها القيد عن الحكم ، أما إذا كان للقيد فائدة كما هنا وهى مزيد التشنيع على عملهم ، فلا يعمل بمفهوم المخالفة .

ومعنى مفهوم المخالفة أن يأتى المتكلم بحكم يقيده بحالة ، فيكون من ليس فيه هذه الحالة خارجا عن الحكم ، كما إذا أعطيت مالا لأحد ليتصدق به على الفقراء ، وقلت له على المرضى منهم ، فليس له أن يعطى فقيرا سليما . وللمسألة مزيد بسط فى كتب الأصول .

ومحصل معنى الآية : أيها السادة الرجال ، المالكون لرقاب العبيد والأماء : كيف قبلت نفوسكم أن تقبلوا ذلك العار الكبير والدنس العظيم على من تحويه بيوتكم ويخالط نساءكم ، ولا تنفروا منه ، مع نفرة أولئك الضعاف الأذلاء المحقورين منه ، على صغر نفوسهن وصغر سنهن ؟ ! ثم هل تقبلون هذه المخازى من أجل عرض الحياة الدنيا والعرض ظل زائل ومتاع ذاهب ! بل هذه الحياة دنيا بالقياس الى الحياة الحقيقية العليا ، وإن الدار الآخرة لهى الحيوان .

« ومن يكرههن فان الله من بعد إكراههن غفور رحيم » فالوبال بعد هذا الاكراه قد حاق بالمكرِهين ، وسلم من شره أولئك المكرَهات ، فقد باءوا بأثمهن ونجون من سوء فعلهن ، فالتقدير : غفور رحيم لهن لا لهم . ولما كان هذا المقدر ظاهرا واضحا ، وهو « لهن لا لهم » استغنى عن ذكر الضمير العائد من جملة الجزاء ، وهى جملة « فان الله من بعد إكراههن غفور رحيم » على اسم الشرط وهو مَن فى قوله : « ومن

يكرههن » . ويرى بعضهم أن هذا ليس جواب الشرط ، بل الجواب محذوف والمذكور علة له دالة عليه ، والتقدير : ومن يكرههن فقد باء وحده بإثمهن ونجوا من العذاب ، فان الله من بعد إكراههن غفور رحيم . وقيل للجميع بعد التوبة ، وهو بعيد عن نسق الآية .

وتعليق المغفرة والرحمة بالاكراه فى قوله : « من بعد إكراههن » حيث لم يكتف بقوله : « ومن يكرههن » لدعوة أولئك الفتيات الى التمسك بما أردن ، وألا يقعن فيما أكرهن عليه إلا كارهات ، وذلك أنهن عرضة الميل أثناء هـــذا الفجور الى مطاوعة الرغبة البشرية ، فربما خرجن بذلك الميل عن أن يكن مكرهات ، فلا ينلن المغفرة والرحمة .

هذا والأكراه فى الزنا متصور فى المرأة قطعا ، وأما فى الرجل فقد قالوا لايتصور وقوع الزنا من الرجل الا عن اتجاه رغبة ، والأكراه لايحرك من نفسه تلك الداعية التى يقوى بها على الزنا .

قال تعالى: « ولقد أنزلنا اليكم آيات مبينات ومثلا من الذين خلوا من قبلكم وموعظة للمتقين »:

أى والله لقد أنزل الله الينا آيات مبينات ، والآية هى العلامة ، فكل آية نزلت فهى ناطقة بأنها تنزيل من حكيم حميد ، شاهدة بصدق من بلّغها وهو الرسول الكريم ، متضمنة من المنافع والارشاد مايدعو سامعها الى أخذها بقلب سليم ، فهى آيات ، دالة على صدق مبلغها وهى بينة واضحة ، وهى مبينة للمصالح والأحكام . فلفظ مبينات إما مأخوذ من بيّن اللازم بمعنى تبين ، كقولهم : قد بيّن الصبح لذى عينين ،

وإما من بيّن المتعدى لأنها بينت لنا الحدود والأحكام ، وأنارت لنا طريق السعادة فى الحياتين ، وهدتنا الى ما لو اتبعناه حق اتباعه لعشنا فى أسرنا وفى جيراننا ومعاشرينا وأمتنا أهنأ معيشة ، وحيينا أهدأ حياة ، فلقد بينت الآيات السابقه أحكام الحياة البيتية ، والعشرة بين الناس وحدودها على أكمل وجه وأجمله.

وقوله : «ومثلا من الذين خلوا من قبلكم» — المثل القصة العجيبة التى تماثل غيرها ، وذلك متجل فى آيات الأفك السابقة ، فانها تماثل ماحصل ليوسف عليه السلام إذ رمته امرأة العزيز بتلك الخيانة الشنيعة ، فبرأه الله ، وكان فضل الله عليه عظيما ، فقد رمته بأنه خان من اشتراه ومن هو فى بيته ، ودعوى النساء فى مثل هذا يكاد يصدقها الناس بمجرد ادعائها ، لا يطلبون عليها بينة ولا شهودا . وكذلك تماثل ماحصل لمريم عليها السلام حين جاءت به قومها تحمله ، فقالوا ماقالوا ، ورموها بالأفك حتى برأها الله تعالى وكانت من القانتين .

وقوله : «وموعظة للمتقين» هى ما تجلى فى تضاعيف تلك الأحكام من الحكم البالغة والآداب الجمة . أجل : لقد منّ الله علينا بهذه الآيات والأمثال والمواعظ ، وذكرها امتنانا ليبين مقدار النعمة فيها ، وأكد ذلك بالقسم فى قوله : «ولقد» فاللام لام القسم ، كل ذلك لنعرف قدر نعمته ، فنقوم له بحق شكرها . نسأله تعالت قدرته أن يوفقنا لواجب الشكر ، فالأمر منه واليه ، وهو نعم المولى ونعم النصير .

مثل النور الالهى

(الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لاشرقية ولاغربية يكاد زيتها يضىء ولولم تمسسه نار، نور على نور، يهدى الله لنوره من يشاء، ويضرب الله الأمثال للناس، والله بكل شىء عليم) :

إن من يقرأ الآيات السابقة ويتأمل مافيها من المواعظ البالغة، ويستجلى ماتضمنته من حكم صادقة، ويكرر النظر فيما احتوته من مصالح عظمى وإرشادات نافعة، ويرى مساس ذلك بحياة الأسرة التى هى أول مراتب الاجتماع وأساس درجات الارتباط، سيجد نفسه وقد انطلق لسانه ممتلىء القلب باليقين : « الله نور السموات والأرض »

أجل : فلقد شرع لنا فى تلك الآى المتقدمة من الأحكام الرشيدة والحكم البالغة مالو استضأنا بمصباحه فى سبيل حياتنا البيتية لسلكنا أقوم سبيل، وحيينا حياة هى المثل الأعلى فى راحة النفوس وطمأنينة القلوب. شرع لنا هذه الأحكام على يد رسولنا، نشأ حيث نشأ قومه، تحيط به وبهم عادات منكرة، وتتحكم فيهم مألوفات شنيعة من شأنها أن تحول بين النفوس وتلمس الطرق النيرة؛ فانبثاق هذا النور الصافى من نفس واحد منهم دليل بنفسه على أن مصدره هو القوى الأعظم، المهيمن على كل مافى الوجود علوى وسفلى.

هذا الارشاد العظيم إنما هو صنع الاله الحكيم العليم ؛ فهو نور يصح أن يقول فيه من أشرق على قلبه بعد تلك الظلمات المستحكمة : الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ، فمن ذا الذى يهدى لهذا النور إلا الله ؟

ترى بهذا مواقع الحسن فى اتصال هذه الآية الكريمة بمجموع الآيات السابقة ، وبخاصة بعد أن أردفت تلك الآى بما يرجع النظر إليها جملة من قوله تعالى : « ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات ومثلا من الذين خلوا من قبلكم وموعظة للمتقين » فانها من شأنها أن تدعو الى استحضارها جملة ، وتمثل ما احتوت عليه من فوائد وإرشادات وأحكام وحكم ، فتتجلى أنوارها دفعة واحدة ، وتظهر منافعها جملة ، فتنطق الألسنة بالحمد ، وتهز القلوب والجوارح بالشكر ، وتحمل على الاعتراف بأن هذا النور والهدى إن هو إلا نور إلهى مصدره هو من بسط النور العام فى أرجاء السموات والأرض .

والنور هو هذه الظاهرة الفائضة على الكون التى يكون بها الابصار والاهتداء والادراك ، وكما تطلق على هذا النور الحسى الذى هو واسطة الادراك بالبصر ، قد تطلق على النور المعنوى الذى هو الادراك بالبصيرة ؛ كمظاهر الاتقان والاحكام الشاهدة بعظيم اقتدار الصانع . وكذا تطلق على القوة التى فى العين والتى فى القلب ؛ كما يقال: ازداد نور عينيه أو نقص نور عينيه . وكما يقال : فلان بصيرته نيرة . وهو نير العقل ونور عقله صاف ، وهلم جرا ، وعلى العموم قد

تعورف فيما به الاهتداء والأدراك وإن كان أصله اسما للنور الحسى . ولعلك ترى أن الاهتداء الذى سببه النور هو الأصل الأصيل فى تصحيح كل عمل من الأعمال وإيتائه ثمره ، وكل عمل على غير هدى ولا نور فلاصحة له ولا ثمرة ولا اعتداد به ، حتى لو فرض أن عملا عمله صاحبه جزافا على غير بصيرة منه فاتفق أن ترتب عليه ثمرة لم تكن له على بال ، مازاد ذلك من قيمة العمل ولا شرف صاحبه ، بل كانت تلك الثمرة من باب مايخلقه الله بلا واسطة من ناحية العبد ولا مدخلية له . وإذ كان النور والهدى أصل الاعتداد بالأعمال كلها جليلها وحقيرها ومنشأ إيتائها ثمرها ، وجب أن يجعل فى الصف الأول فى كل باب من أبواب الحياة وكل أثر من آثارها ، وماعداه تابع له فى النتيجة والاعتداد . من أجل هذا اتسع الاستعمال فى لفظ النور وأطلق على كثير من المعانى التى تعتبر أساسا لغيرها فى الثمرات وإيتاء النتيجة ، فيقال : فلان نور البلد ، إذا كان مدبر نظامها ومرتب شئونها على وجه تام ، ويقال للنظام نفسه والتدبير المحكم : نور ، فتقول : قد بنى هذا العمل على نور ، وهذا الأمر يتجلى نوره واضحا ، وذاك الأمر لانور فيه ، تشير بذلك إلى ماحوى من نظام وإحكام .

وعلى هذا تجد التعبير فى الآية الكريمة « الله نور السموات والأرض » من التعبير المستفيض فى مجارى العقول ، ولا يمكن أن يفهم منه أن الله هو النور الحسى الذى هو واسطة الابصار ، بل إما أن يكون معناه مدبر السموات والأرض على هذا النظام والاحكام ، والمفيض عليهما من كمال

الصنعة وإتقانها مابه يصح أن يقال عنه إنه نورهما على نسق تمثيلنا السابق «فلان نور البلد» كما شرحناه ، وإما أن يكون نور بمعنى منور أوذو نور ، كما يقال : فلان كرم وجود ، وكما قال القائل : «وأنت لها نور وغيث وعصمة» . والاخبار عن الشيء بمصدر الصفة كثير مبالغة في اتصافه بها كأنه صار إياها . ويستأنس لهذا بقراءة : «الله نور السموات والأرض» بصيغة الفعل الماضي . ومعنى تنويره لهما إما إفاضة النور الحسي عليهما ، وإما إتقان صنعتهما وإكمال نظامهما حتى صارا يشهدان شهادة نيرة لا لبس فيها ولا غموض أن مبدعهما كامل القدرة والعلم والحكمة . وإما نور السموات بالملائكة ونور الأرض بالأنبياء والشرائع . وإذ لا تضاد بين هذه المعاني فالأكمل أن يكون المراد بالنور ما يشمل هذه الأمور كلها ، فقد أنار السموات والأرض بالنور الحسي ، وبث فيها من كمال النظام ما يجعلها منيرة السبيل لمن تفكر فيها ، وأكمل ذلك بالنفوس العالية وما آتاها من شرائع وهداية ، وخص السموات والأرض لأنهما هما المخلوقان العظيمان اللذان يملآن قلوب المخاطبين روعة وجلالا ، وتنالهما مداركهم حسا ومعنى ، وإلا فهو نور لجميع العالم مما رأينا ومما لم نر .

هذا وقد حاول الامام الغزالي رحمه الله أن يحمل النور في الآية الكريمة على حقيقته فقال ما ملخصه باختصار : إن النور اسم لما يكون ظاهرا بنفسه مظهرا لغيره ، وتقابله الظلمة ، فهي الأمر الخفي المخفي ، وأحق الأشياء بالظهور الوجود ؛ وأحق الأشياء بالخفاء العدم ، فكلما كان الأمر أكمل وجودا كان أظهر وأجلى ، والممكنات

اذا نظرت إليها فى ذاتها لاتجد لها وجودا الا ماتستمده من المبدع الأعظم ، فهو صاحب الوجود الذاتى وماعداه عدم لولاه ؛ فأحق المعانى بأن يسمى نوراهو أدخلها فى الوجود ، وذلك هو الموجود لذاته ، فهو نور الأنوار جميعها ، ومظهر الكائنات كلها ؛ ولولاه لكانت مطموسة فى ظلمات العدم ؛ فهو النور على الاطلاق

وإنك لتلمح فيه المسلك الصوفى أكثر مما ترى فيــــه التفسير اللغوى العربى ، إلا إن أرجعتـه إلى معنى مفيض الوجود والنظام والاتقان وباسط النور فى أرجائهما ، فحينئذ يرجع إلى ماقدمناه .

والخلاصة أن النور هنا لايصح أن يراد به تلك الظاهرة المحسوسة التى هى واسطة الابصار ، فالمراد بالنور إما الهداية ، والمعنى أنه صاحب النور والهداية : هدى أهل السموات والأرض بما أودع فى نفوسهم من قوة ؛ وبمـا نصب لهم من أدلة . وإما بمعنى التدبير وإجراء سننهما فى شئونهما على مقتضى الحكمة ؛ وإما بمعنى إبداعهما فى خلقهما على أكمل صفة ؛ وإما بمعنى منيرهما بالكواكب نورا حسيا ، وبالشرائع نورا معنويا ، أومنير السموات بالملائكة والأرض بالأنبياء . وبكل معنى من هذه قال فريق . ولك أن تجمع المعانى كلها فى كلمة نور كما سبق ؛ فهو المدبر لما يجرى فيهما ؛ وهو المبدع لخلقهما ؛ وهو باث النور الحسى والمعنوى فى أرجائهما ؛ وهو منزل الشرائع ؛ وباعث الملائكة بوحيه ؛ وهاديهم لعبادته . جل شأنه . وتبارك اسمه ولا إله غيره !

وبعد: فهذا انتقال من تقرير الأحكام الفرعية التشريعية إلى تقرير حكم الايمان بالله ودينه، وبيان شأن الدين فى ظهوره واستنارته ووضوحه. وسيأتى إردافه بصفة الأديان الباطلة وأنها خيال لا قرار له ولا حقيقة، فى قوله تعالى: « والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئا ». وهذا الأسلوب العجيب مما يكاد يكون مختصا بالذكر الحكيم: فان بيان الفروع على وجه يحل فى النفس خير محل ويتمكن منها فضل تمكن، مما يصح أن يعتبر نبراسا يهتدى به الى أن مصدر هذه الارشادات لا يكون الا الحق المبين. والتمهيد له بقوله: « ولقد أنزلنا اليكم آيات مبينات » مما يهيئ العقول لقبوله والاعتراف به، مع أن المعتاد أن يؤخذ صحة الأصل دليلا على صحة الفروع، ولكنه التنويع فى الهداية الربانية، كأنه يقال لك: إن كل المسالك أمامك نيرة، فاذا نظرت إلى فروع الأحكام وما فيها من صحة وسداد وفائدة ورشاد، عرفت أنها لم تنبت الا من شجرة طيبة، فطيب الثمر دليل على طيب الشجر. واذا نظرت الى أصل الايمان وما قام عليه من متين البرهان، علمت أن الأحكام المتفرعة عن هذا الأصل الصحيح لا تكون الا خيرا عظيما ونفعا عميما.

« مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية »:

المثل معناه الصفة ، ولا يكاد يستعمل المثل فى الصفة الا حين إرادة التنويه بشأنها وتفخيم أمرها . ولذا يقولون : المثل الصفة العجيبة ، كأنهم أبرزوها فى ثوب ما يتمثل ويتخذ مثلا يضرب لغيره ، ومنه قوله تعالى : « مثل الجنة التى وُعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن» . ويصح أن يلاحظ فيه معنى التمثيل والتصوير ، كأنه يقال : إن تصوير نوره بمثال يجلوه لك وتتمثله به هو كمشكاة فيها مصباح ، الخ .

والنور هنا هو الهداية التى بسطها للعالمين من أدلة عقلية وسمعية، وأحكام صحيحة وإرشادات نافعة . والمشكاة : الكوة غير النافذة . والمصباح : السراج الضخم الثاقب . كأن أصل أخذه من الصبح لما فيه من الضوء . والزجاجة : القنديل الشفاف الصافى . والكواكب : الأجرام السماوية المضيئة . والدرى : قرىء بالضم والتشديد نسبة الى الدر لصفائه وتلألئه وقرىء بالكسر والهمز على وزن سكين ، من الدرء بمعنى الدفع ، كأن نوره يدفع بعضه بعضا لشدة لمعانه وتألق نوره . والمباركة : النامية . والزيتون : معروف. ومعنى لا شرقية ولا غربية أنها ليست شرق شيء كجبل أوحائط يحجب عنها ضوء الشمس آخر النهار ، ولا غربى شيء كذلك يحجب عنها شمس أول النهار ،فهى ضاحية لضوء الشمس ومرور الأهواء ،وذلك أكمل لنضجها وأطيب لثمرها ، فان الشجر المحجوب عن الشمس والهواء يكون ضعيفا عادة

وقد ترى ما فى هذا التصوير من إبراز النور على أكمل وجه وأشده

أثرافى النفس ، فقدجعل النور نور مصباح ، وذلك أشد أثرافى النفس وتمثلا لمعنى النور وتقديرا له من كل أنواع النور ، ذلك أن نور الشمس وإن كان أقوى الأنوار المعروفة المألوفة إلا أنه لعموم بسطه على الأرجاء لاتجد له فى النفس من تمثل معنى النور ماتجده للمصباح يوقد فى وسط الظلام فيبدده فى مقره مع بقاء الظلام فى غير هذا المكان يذكّر بمعنى النور ويشيد بشأنه . وإنك لتجد لنور المصباح فى الظلام من التمثل أمام العين وانجذاب البصر إليه مالاتجده فى الضوء العام الشامل ، فانه بشموله يصير كأنه أمر طبيعى مفروع منه لايحرك من النفس مايحركه النور الخارق للظلمات . وإن شئت أوضح من هذا فاعتبر بلمعان البرق فى وسط دجى الظلمات كم يكون لمفاجأته من روعة وتمثيل لاتحسه النفس فى ضوء الشمس وهو أشد منه . والسر أن وجوده فى وسط الظلام الشامل يرفع من قيمته باعتباره نورا ويجعل له فى النفس قيمة كبرى . ومن جهة أخرى فانه أشد انطباقا على نور الهدى وسط ظلمات الشك التى تحيط بنفوس الكثير من الناس .

وأما ذكر المشكاة فلأنه كلما كانت الأشعة منعكسة عن قرب كان ضوءها أشد ، وكأن جوانب المشكاة تعكس الأشعة بعضها على بعض عكسا متكررا فيزيد فى مضاعفة النور(١) . وكذلك جعل السراج فى زجاجة ما يزيد لمعانه وصفاءه ، وكيف وقد وصفت الزجاجة بمايدل على مزيد صفائها وقوة تألقها فى ذاتها ، وذلك أنها كالكوكب

---

(١) ومن هنا نرى الصناع يحيطون المصباح المعلق بما يجمع أشعته ويوجهها الى جهة واحدة ليكون أقوى لضوئها

المتلألىء الذى ينسب الى أصفى ماعهدواوهو الدر واللؤلؤ ، أو الكوكب المتألق الذى يتموج شعاعه فيدفع بعض نوره بعضا . وبعد أن استوفى تصويره باعتبار مايحيط به أخذفى صفة مادته التى تغذيه ؛ وكان أعظم مايعرفون من مادة الاستصباح الزيت ، وأجوده زيت الزيتون ، فوصف الشجرة بالنمو والبركة ، وأن منبتها يساعدعلى ذلك إذ لم يحجبها حاجب عن شمس أوهواء ، ثم عاد الى وصف الزيت بأنه قد صفى حتى كاد يضىء بدون مس النار .

تأمل فى هذا التصوير تجدنفسك أمام نور قداستجمع كل مظاهر النور ، وتجلى فى وسط ظلمة زادته بهاء وظهورا ؛ فان شأن المصباح ألا يشعل عادة إلا فى الظلام ، وبضدها تتميز الأشياء . ثم انظر الى سلاسة التعبير ورقته وسهولة التصوير تجد أنك قدتجلى أمامك نور على نور . وهذاشأن هداية الله لعباده ، فانك من أى النواحى أتيتها ، وجدت نورها ظاهرا ، وضوءها باهرا ، فلا يسعك إلا أن ينطلق لسانك بالحمد لله والشكر للمنعم .

والموصوف بأنه نور على نور هو نور الهداية الممثل بذلك النور الحسى . فانه هو ماسيق الكلام لبيان صفته . والمراد بقوله : نور على نور ، أنه نور متضاعف يزداد كلما نظرت فيه وتأملته ، وليس المراد أنه نوران ، بل المراد المضاعفة السائرة مرارا وتكرارا ، فما أشبهه بقول القائل :

يزيدك وجهه حسنا إذا مازدته نظـــرا

وكأن هذه الجملة خلاصة للوصف والتصوير السابق :

هذا وإذ عرفت أن هذا من باب التمثيل الذى هو تشبيه هيئة مركبة بأخرى كذلك ، بدون التفات الى الأجزاء التى حصل منها التركيب ، عرفت أن لا داعى الى ما يسلكه بعضهم من التفصيل فى التشبيه ، كأن يقال : شبه صدر المؤمن بالمشكاة وقلبه بالمصباح ، والمعارف التى تغدق عليه بالزيت ، وهكذا . فان هذا إنما يكون فى التشبيه المفرد لا فى التمثيل الذى يراعى فيه الهيئة المركبة .

« يهدى الله لنوره من يشاء » :

بعد أن صور النور الالهى والهدى الدينى بهذه الصورة الآخذة بالأبصار التى لا يجهلها من عنده أقل ذرة من إدراك وبصيرة ؛ كان هنا محل سؤال واستشراف البتة : اذا كان النور الالهى فى أمر الايمان والدين بهذه المثابة من الظهور والوضوح ، فما بالنا نرى الكثير من الناس قد ضل سواء السبيل ولم يهتد الى هذا النور الباهر ؟ فكان الجواب تقرير هذه الحقيقة الساطعة ، وهى أن المرجع النهائى إنما هو مشيئة الله وإرادته ، فمن يضلل الله فماله من هاد ، ومن يهد الله فماله من مضل ، فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصّعّد فى السماء . فعماية بعض الناس حتى لم يبصروا هذا النور البالغ الغاية فى الظهور لم يكن منشؤها نقصا فى نفس النور ، وإنما هو نقص فى المدارك واعوجاج فى الفطر وطمس فى البصيرة ، وهو غير ناقص من وضوح النور شيئا .

ماضر شمس الضحى فى الأفق طالعة أن لا يرى ضوءها من ليس ذا بصر

قل إن الهدى هدى الله ، والأمر كله لله . وليس هـــذا بمقتلع للاختيار الذى منحه الله للانسان ، فان الـكافر ما كفر قهراً عنـه ، ولـكنه اختار الـكفر على الايمان ، والمؤمن ما آمن مكرها ، وإنما اتجهت نفسه إلى اختيار الايمان ، فكل يعمل باختياره ، وذلك تنفيذ لأرادة سابقة أزلية لا تعلم للناس ولا يشعرون بها ولا يبنون أعمالهم عليها ، ولـكن بعد حصول الشيء نعلم بالبرهان أن هذا الذى حصل فى الـكون ما كان مجهولا للمكوّن ، ولا كان قهراً عن المدبر ، فلا يقع فى ملـكه إلا ما يشاء ، ومَن ضمن ما يشاء أن يقع إيمان هذا المؤمن عن إرادة ورغبة منه ، ويقع كفر هذا الـكافر عن إرادة ورغبة منه ، وكلٌّ ميسر لـما خلق له .

« ويضرب الله الأمثال للناس» : يبصرهم بمـا خفى عليهم باظهاره فى صورة ما عرفوا وما عهدوا ، حتى يتبين لهم الأمر جليا ، ويلتحق المعقول بالمحسوس ، فلا يبقى شىء من الدين خفيا ، لـكيلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل

«والله بكل شىء عليم» من معقول ومحسوس، من ظاهر وخفى، من نفوس يليق بها الـكرامة فيهديها الى الايمان ، ونفوس علم فيها غير ذلك فخصها بما شاء ، فهو أعلم حيث يضع هـدايته ، والله أعلم حيث يجعل رسالته ، وهو العليم بطرق الهداية وأفانينها المختلفة ، فيخاطب المكلفين بما ينفعهم منها ويفيدهم ، ويحذرهم مما يهلـكهم أو يضرهم ،

فمن نكث فانما ينكث على نفسه ، ومن أوفى بما عاهـــد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيما .

انقسام الناس في الاستفادة من النور الالهي

(في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لاتلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله ،والله يرزق من يشاء بغير حساب) :

لله ما أبدع وما أروع ! لقد تسلسل النظم الكريم على أقوى ارتباط وأمتن إحكام ، فتراه على تنوع فوائده وتعلقها بشئون شتى من فنون الهداية ، قد ارتبطت أجزاؤه بعضها ببعض ، حتى لتكاد تراها كونت هيكلا سويا قد أخذ أعضاؤه بعضها بسبب من بعض ، فقد بنيت السورة على إفادتنا الأحكام التى نحيا باتباعها حياة سعيدة سواء فى حياة الأسرة المنزلية أو حياة العشرة والمخالطة المدنية واتصال الناس بعضهم ببعض اتصالا طاهرا صافيا غير منغص ولا مبغض ، وأعطانا التعليم الالهى من ذلك ما اذا تأملناه علمنا يقينا أن مصدره لا يكون إلا النور الالهى ، وأن هذا الهدى الكامل ناطق بمنشئه شاهد على مبعثه ، فكان حقا أن تردف تلك الأحكام بما ينوه بعظيم قدرها ويوجه النظر الى استجلاء محاسنها واغتنام فوائدها، وذلك قوله:

« ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات ومثلا من الذين خلوا من قبلكم وموعظة للمتقين » حتى اذا أخذت النفس حظها من استجلاء تلك الأنوار وشملها ضوءها وكانت جديرة بأن تتعرف مصدر ذلك النور الأعظم فتطلعت اليه ، أردفت بتلك الآية التى ترشدها الى ماتبتغيه ، وتبين لها مصدر هذه النعمة الكبرى لتزداد النفس لها إكبارا وإجلالا ، ولتمتثل تعاليمها امتثالا ، فقال جل شأنه : « الله نور السموات والأرض » . ومثّل لنوره المعنوى بأقوى مايعرف إذ ذاك من مظاهر النور الحسى ، فجعل ذلك النور فى منزلة أقوى الأنوار التى تجذب الأبصار ، ثم أردفها بما يفيد أن النور وقوته والضوء وسطوعه والأمر وظهوره لا يغنى عن المرء شيئا إلا أن يشاء الله ، فالنور متحقق للجميع ولكن الاهتداء لا يكون إلا لمن شاء الله ، فقال جل من قائل : « يهدى الله لنوره من يشاء » فهو الفعال لما يشاء « فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجا كأنما يصّعّد فى السماء » والله بكل شىء عليم : وهو العليم الحكيم ، فيضع الأمور فى نصابها ، ويزنها بمقتضى حكمته ، وهو أعلم حيث تكون الهداية صالحة ، وأعلم حيث تكون النفس التى لايليق بها إلا الغواية والضلال . نظام وحكمة ، هو العليم بحسن مواقعها ، وهو السيد المالك ، لا يسأل عما يفعل .

وعلى حسب كمال ملكه وإطلاق تصرفه فى خلقه انقسم الناس إلى قسمين : فمنهم كافر ، ومنهم مؤمن ، ولو شاء لجعل الناس أمة واحدة .

وبهذا يتبين حسن الموقع وكمال الارتباط وجمال الأسلوب في هذه الآيات التالية ، وهي قوله : « في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه » إلى آخر الآية ، ثم قوله : « والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة » إلى آخر الآية.

فالآيتان لبيان ما ترتب على ما ذكر من كمال الهداية وإطلاق المشيئة ، فهما منهما كالنتيجة من المقدمات.

من هذا تعرف أن الجار والمجرور في قوله : « في بيوت » متعلق بقوله « يسبح » الآتية ، وإعادة ذلك بقوله « فيها » لا يمنع منه ، فهي للتوكيد كقوله تعالى : « ففي رحمة الله هم فيها خالدون ». ويصح أن يتعلق بمحذوف يؤخذ مما بعده ، أي سبحوا في بيوت والجملة استئناف يشرح هو وما بعده مقتضى المشيئة التي في قوله تعالى : « يهدي الله لنوره من يشاء ».

وذكر بعض المفسرين أنه متعلق بقوله « يوقد » السابق ، أو صفة لقوله « كمشكاة » معللين بأن المشكاة التي في بيوت بهذه الصفة تكون عادة أضوأ وأضخم ، أو بأنها في تلك البيوت ضمت انشراح النفوس بطهارة تلك الأمكنة الى ما حوت من نور حسي ، وأمثال ذلك ، ولكنا نراه بعيدا ، فقد انتهى المثل المضروب للنور وتم عند قوله « نور على نور » ثم أردف بما ينشأ عنه ويترتب عليه ، وأخذ الكلام شأنا آخر ، وهو بيان حال الناس في هذا الشأن بعد ما بين حال الهداية وإطلاق المشيئة ، فتعليق قوله « في بيوت » بهذا يدعو إلى تفكيك النظم الكريم ، ولو وقع مثل هذا في كلام الناس لعد مفككا ، فكيف وهو في أبلغ كلام وأحكمه ؟!

والبيوت التى أذن الله أن ترفع هى المساجد وما يلتحق بها من دور العلم والذكر ، وكل ما ينبه القلوب الى عظمة الله تعالى . والاذن أصله الاباحة فى مواضع يظن فيها المنع ، والمراد هنا الأمر ، وإنما عبر عنه بالاذن لتصوير المأمور به بصورة أن المأمور اتجه اليه ، وتطلعت نفسه نحوه ، مترقبا التصريح له به والاذن فيه . ومعنى ذلك أن رفعة البيوت وذكر الله فيها من حقه أن تتشوف اليه النفوس وتتطلع ، فاذا جاء الأمر فكأنما هو إذن منتظر .

ومعنى «ترفع» تعظم ويعلى قدرها ، وذلك بصونها عن الامتهان واللغط ، وتجنيبها الصبيان ومن فى حكمهم ممن لا يميز ولا يضبط أمره ، واجتناب الجنب ومن فى معناه دخولها ، وعدم تنجيسها أو تلويثها بمستقذر ولو طاهراً ، وعدم اللغط فيها أو اتخاذها محلا للهو ولو مباحا ، أو غشيانها بثياب ذات رائحة كريهة يتأذى بها من فيها ، وأمثال ذلك مما ذكر فى كتب الفقه مما حُكم بعضه الكراهة وحكم بعضه التحريم . ومن رفعها صونها عن التصاوير وما يشغل العابد عن عبادته . ومن رفعها إضاءتها وفرشها بما يحبب فى التردد اليها والمكث فيها .

وقوله تعالى : « ويذكر فيها اسمه » — المراد ما يعم جميع أنواع الذكر : من الصلاة ، وقراءة القرآن ، والوعظ ، والارشاد ، والتعليم الذى يعود على المتعلم بتمجيد ربه وإدراك آثار رحمته فى خلقه ، فكل ذلك مما يجعل الألسنة تلهج بذكر ربها ، والقلوب تتذكر عظمته وجلاله

وقوله : « يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال » — التسبيح :

التنزيه والتقديس، يتعدى بنفسه كقوله تعالى: «سبح اسم ربك الأعلى» وباللام كما هنا، وكقوله تعالى: «سبح لله مافي السموات وما في الأرض». وأصله من سبح في الماء إذا عام فيه وأبعد، ومنه قولهم: فرس سبوح: سريعة الجرى سهلته، وقوله تعالى: «إن لك في النهار سبحاً طويلا» أي متصرفا ومتقلبا لا تتقيد بشيء، وكأن المسبح يبعد بربه عما لا يليق به من ضد أو ند أو شريك أو شبيه. والمراد هنا كل أنواع التنزيه، سواء أكانت في صلاة أوفي اتعاظ أو تذكر لجلال الله أو تفكر في الملكوت أوغير ذلك. وتقييده بالغدو والآصال لا يقصره على الصلاة كما قال بعضهم، زاعما أن ذلك في صلاة الغداة وصلاة العشى وكانتا مفروضتين قبل الصلوات الخمس وزيد عليهما. كل ذلك لا نراه، بل لا نرى ذكر الغدو والآصال من باب التقييد، وإنما هو من باب الدلالة على تكرار التسبيح منهم بتوالى الأوقات، فهو كقولك: أزوره صباحا ومساء، أي متواليا.

هذا وقد قرىء «يسبّح»: فرجال فاعل، وقرىء «يسبَّح» بصيغة المبنى للمفعول، فنائب الفاعل هو الجار والمجرور في قوله: «له» أو «فيها». وقوله: «رجال» الخ، جملة مستأنفة، كأنه قيل: من الذى يسبح؟ فقيل: رجال، أي يسبح رجال، أو المسبح رجال. وفضل هذا التعبير أنه ذكر فيه التسبيح مرتين تنويها بشأنه، فكأنه قيل: يقع في تلك البيوت التسبيح لله بالغدو والآصال، والمسبح هم رجال الخ. ونظير ذلك في استعمال التخاطب الجارى بين الناس قولك: إذا وصلتَ إلى جهة

كذا أكرمت أبلغ إكرام ؛ ثم تقول : أصدقاؤك وزملاؤك والذين سمعوا بفضلك وكثير ما هم . ألا ترى فى هذا التعبير تقرير الأكرام بما ليس فى قولك : أكرمك أصدقاؤك وزملاؤك ؟

والغدو هنا : جمع غداة وهى أول النهار . والآصال: جمع أصيل وهو آخر النهار، أو جمع أُصل كعنق ، وأصل جمع أصيل عند من يرى أن فعيلا لا يجمع على أفعال . وأصحاب القول الأول يقولون إنه كشريف وأشراف. ولعل فى تقديم صفة البيوت على صفات المسبحين أى الرجال مع أنها هى المقصود بالذات حكمة الحث على التوجه الى تلك البيوت ، وحفز النفوس إلى غشيانها ، فتقبل على العبادة والتأسى بمن فيها . وغير خاف ما للبيئة من التأثير القوى فى عامة الناس ، وإن الرجل يكون متراوح النفس بين الخير والشر فاذا صادفته بيئة صالحة انتفع بها، وإذا غمرته بيئة خبيثة أفسدت عليه أمره ، وهذا لا يمنع أن بعض النفوس توغلت فى الخير أو فى الشر حتى لا يكاد يثنيها أمر عن غيها أو رشدها . قال بعضهم : الناس أربعة : اثنان قد تبين أمرهما وكفيت تجربتهما ، واثنان أنت منهما على تجربة ، فأما اللذان تبين أمرهما وكفيت تجربتهما فصالح بين لجار وفاجر بين صلحاء ، فلو كان للصلاح أو للفجور إلى نفس هذا أو ذاك سبيل لكان فى بيئته ما يساعده ، وأما اللذان أنت منهما على تجربة فصالح بين صلاح، وفاجر بين فجار ، فلعل أحدهما لو نشأ فى بيئة غير بيئته لكان غير ما تراه .

وقوله تعالى : « لاتلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله » صفة مدح لرجال أكد مافى التنوين من التعظيم والتفخيم المستفاد من السياق . والمعنى أنهم اتجهوا بقلوبهم الى عبادة ربهم ، فلايلويهم عن ذلك شاغل ولايلهيهم مقصد . وقد أتى بأهم مايشغل الناس عادة وهو التجارة والبيع ، ذلك لأن ذا العمل المستقل الذى لايرتبط بغيره يجد نفسه حراً فى تقسيمه على زمنه ، ولكن التاجر عرضة لأن يخطر الشيطان بين جوانحه فيوسوس له بأنك اذا انصرفت عن تتميم صفقتك ضاعت فرصتك ، فهو يتلهى بعمل يتلوه عمل حتى يضيع عليه وقته . وذكر البيع بعد التجارة وإن كان داخلا فيها ، لأنه أهم مايحرص التاجر على إنجازه ؛ فقد تحدثه نفسه بأن يرجىء أمر الشراء ليتروى ، ولكن إذا حانت له فرصة البيع التى يتيقن فيها الربح حرص على المبادرة اليها حتى لاتفلت منه ، أما الشراء فانه تحدثه نفسه أنه ربما كان فى الأرجاء والمهلة شىء من هز أعصاب البائع فيتسامح فى بعض الثمن أونحو ذلك . يعرف ذلك من راقب خواطر النفوس عند من يزاول البيع والشراء .

والمراد بذكر الله كما سبق جميع أنواع الذكر . وتخصيص إقام الصلاة بالذكر بعده مع دخولها فى ذكر الله لمزيد الاهتمام بشأنها ، فهى كقوله تعالى : « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى » . ويصح أن يكون المراد بذكر الله تحميده وتمجيده ، فيكون مغايراً لاقام الصلاة ، وهو ظاهر . وإنك لتجد أكثر ماترد الصلاة فى القرآن معبرا عنها بلفظ الاقامة ، وذلك لبيان أنه ينبغى فى أداء الصلاة أن تقوّم أركانها

وتوفيَ مايطلب فيها . وقوله : « وإيتاء الزكاة » ذكرهنا مع أن الزكاة ليست مما يطلب فيه أن يفعل في المساجد ، لأن الشارع الحكيم قدراعى أن تكون الزكاة من الصلاة بمنزلة الثمرة من الشجرة ، حتى لاتكاد تذكر الصلاة إلاويذكر معها الزكاة ، وكأن الصلاة فى نظر الشارع اذا لم تؤثر فى قلب المصلى حتى تهون عليه أن ينخلع عما أحرزته يده — وهو فى الحقيقة مستحق لمن فرضت له الزكاة — كانت صلاته شبحا بلا روح ، وكان ساهيا عن صلاته التى فعلها رياء ومجرد حركات وسكنات ، وكان مستحقا للويل فى قوله تعالى : « فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين هم يراءون ويمنعون الماعون » .

وقوله تعالى : « يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار » انتقال فى الوصف من شرح أعمالهم وحركات جوارحهم ، الى شرح صفات قلوبهم وخواطر نفوسهم ، فقال : إنهم يفعلون مايفعلون اتقاء ليوم يجعل الولدان شيباً ، يوم تجد كل نفس ماعملت من خير محضراً وماعملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ، يوم تتردد فيه النفوس بين الخوف والرجاء فتتناب القلوب متجهة الى الرجاء تارة والى الخوف تارة أخرى ، وتتقلب الأبصار متجهة الى اليمين وإلى الشمال لاتدرى من أين تؤخذ أومن أين تؤتى كتبها أباليمين أم بالشمال . أوالمعنى تتقلب فيه القلوب والأبصار أى تهلع القلوب وتزيغ الأبصار فلايستقر منها شىء فى مكانه ، كقوله تعالى : «وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوبُ الحناجرَ وتظنون بالله الظنونا » فكيف لايخاف هول هذا اليوم من يؤمن تمام الايمان

بهذا اليوم ؟ ! وإنما كان من شأن هؤلاء الرجال ما كان « ليجزيهم الله أحسن ماعملوا ويزيدهم من فضله » هذا تعليل لقوله « يسبح » أوقوله « لاتلهيهم »أوقوله « يخافون » أوهو تعليل لفعل محذوف جامع لهذه كلها وهو : يفعلون ماذكر من التسبيح والخوف وعدم اللهو ليجزيهم الله . وفعل (يجزى) يتعدى للشخص المجزى بنفسه ، وللفعل المجزى عليه بعلى أوعن أوالباء ، وللأمر المجزى به بالباء أوبنفسه ، تقول : جزيته على عمله وعن عمله وبعمله أحسن جزاء أو بأحسن جزاء ، وقد وقع هنا متعديا فى الظاهر للفعل المجزى عليه بنفسه ، إذ يقول : « ليجزيهم الله أحسن ماعملوا » فمن المفسرين من يرى أنه على حذف الجار ، والمعنى ليجزيهم على أحسن ماعملوا أو بأحسن ماعملوا ، ومنهم من يرى فى الكلام حذف مضاف بتقدير أحسن جزاء ماعملوا ، فالمعنى على الأول أنه يجزيهم على أحسن أعمالهم ويتجاوز عن سيئاتهم ، فان الحسنات يذهبن السيئات ، ولو شاء لحاسبهم حسابا عسيرا فأحصى عليهم سيئاتهم ، بل لأحصى عليهم لهوهم المباح وغفلتهم عن ذكر ربهم ، ولكنه — فضلا منه ورحمة — إنما يجزيهم على أحسن الأعمال ويعفو عن السيئات . والمعنى على الثانى : ليجزيهم أحسن جزاء أعمالهم ، وذلك بالمضاعفة حيث يجزى على الحسنة بعشر أمثالها ، والله يضاعف لمن يشاء . وإن المكافأة ولو بالمثل فضل من الله ، إذ ما كانت الطاعات من العبد إلا باقدار الله وتوفيقه ، فمابالك بالمضاعفة والمضاعفة الى عشر أمثال كما فى قوله تعالى : « من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها » والمضاعفة

الى سبعمائة ضعف كما فى قوله تعالى : « مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة » ! اللهم إن هذه هى التجارة الرابحة ، وهذا هو الجزاء الأوفى ، بل الفضل العظيم ؛ فكانوا بذلك يجزون أحسن جزاء لما عملوا .

وانظر الى آثار رحمة الله : لم يقصر الأمر على الجزاء وأنه أحسن الجزاء ، بل زاد عليه الفضل بقوله : « و يزيدهم من فضله » فجعل الأمر مكافأة ومجازاة مع أنه هو صاحب الفضل والتوفيق فى الأولى والآخرة ، وزاد فى الجزاء تلك المضاعفة العظمى ، ثم وعد بالمزيد من الفضل ، والله ذو الفضل العظيم . والفضل هنا : الاعطاء بلامقابل ، كأن ماعملوا أصغر من أن يقع موقعا ما مما ينالهم من رحمة ربهم ، فاذا صح أن بعض ما نالهم يسمى جزاء مستحقا فان بقيته أعظم من أن ينسب اليها ماقاموا به من عمل مهما شق . وماذا يقع عمل العبد مع ضعفه وعجزه من ثواب الله مع قدرته وسعة رحمته ، وبخاصة اذا روعى أن الشكر ليس إلا بتوفيقه كما سبق ! ولله من قال :

اذا كان شكرى نعمة الله نعمة   علىّ له فى مثلها يجب الشكر
فكيف ينال الشكر إلا بفضله   وإن طالت الآجال واتسع العمر

ولقد أردف هذا الوعد الكريم بما يقرره فى النفس فضل تقرير ، ولا يسع نفسا تؤمن بالله وقدرته أن تنكره ، وهو قوله : «والله يرزق من يشاء بغير حساب» ، فقد وقر فى النفوس التى تتقلب فى طلب وجوه الرزق أن سعيهم وتقلبهم ليس وحده مناط مايرزقون مهما أوتوا من

الحذق والمهارة ، بل كل امرئ يشعر بأن هناك أسبابا للتوفيق والنجاح ، يصادفها من يشاء الله ويخطئها من يشاء ، فلا تكاد تجد ساعيا مهما كابر وعاند إلا وهو خاضع من قرارة نفسه لهذا الحكم إن طوعا وإن كرها ، فمن شذ وملكه الغرور والاعتداد بقوته وحدها لابد أن تصدمه الكوارث صدمة يفيق بها من غفلته ، ويعترف قهرا عنه أن الأمر كله بيد الله ، ماشاء الله كان وما لم يشأ لم يكن . فنزلتها من سابقتها منزلة الدليل من المدعى .

نسأل الله تعالى أن يرزقنا التوفيق لطاعته ، وأن يجزينا أحسن ماعملنا ، ويتجاوز عن سيئاتنا ، ويزيدنا من فضله ، إنه سميع مجيب كريم رحيم ! .

كلمة وجيزة فى جمال نسق الآيات القرآنية الكريمة :

أما وقد وصلنا من تفسير السورة الكريمة الى ماوصلنا اليه فى الآيات السابقة فانه يجمل بنا أن ننظر نظرة إجمالية فى مجموع الآيات الكريمة التى مررنا بها ، لنستجلى محاسنها جملة ، ونمتع النظر بمشاهدة أزاهيرها مؤتلفة متألقة ، ونتذوق مافيها من أطايب الثمار ، ونبهج الروح بطيب رياحينها العطرة . وفى النظر الى المحاسن جملة معنى يزيد على النظر الى كل منها على حدة .

ولعلنا بذلك نكبت أولئك الزعانف الذين ملكهم الغرور حتى غشى بصائرهم ، وبهرهم النور حتى عشى أبصارهم ، فلم يفقهوا سر الجمال فى ترتيب القرآن ، فالفظت أفواههم كلمات لاتصدر إلا عن غباء

وعمه ، فكما قال الأولون من الكافرين المعاندين : « لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة » قال هؤلاء الملحدون المفتونون : « لولا جعل كل نوع مما أنزل في القرآن جملة ، فيكون القصص كله جملة واحدة ، والأحكام كل نوع منها جملة ، وما يتعلق بالالهيات أو بالنبوات مثلا جملة ، وكذلك الأمثال والعظات وسائر ما في القرآن » . يزعمون بذلك أنه أيسر لهم في الوصول الى ما يريدون، والكشف عما يبتغون ، كأنهم نظروا الى القرآن الكريم نظرهم الى القواميس والمعاجم ، أو الى كتب التاريخ التي يقصد بها الى بيان الوقائع على ترتيب الأزمنة أو تفصيل روابط الأمم ، أو الى كتب الفقه أو القانون ، أو ما ماثل ذلك ، مما تتعدد فيه الكتب تبعا لتفصيل الموضوعات ، وما دروا أنه الكتاب الواحد الذى جمع الله فيــه للبشر كل ما يقوم بتربيتهم في دنياهم وفي دينهم ، لم يفرط فيه من شيء ، ولا أخل بحسن الترتيب وإحكام الوضع الذى يجب أن يراعى في تربية النفوس ، وتغذية العقول ، ومراعاة ما تستعد الأرواح لارتشـــافه وتذوقه والانتفاع به ، سواء أكان ذلك في خاصة نفسها ، أم في توجيهها إلى بارئها ، أم في تنظيم العلاقات بينها وبين من يتصل بها من طبقات الناس القريبين منها والبعيدين عنها ، أو ما يلابسها ويحيط بها من سائر أجزاء العالم وقواه ، فتنتفع بكل ذلك على الوجه الأكمل ، الأنسب بحياتيها الفانية والباقية

كل ذلك يتبع فيه أنسب الوجوه باستعدادها لقبول التغذية العقلية والهداية الالهية ، والتربية الربانية ، فيكمل بذلك معنى الربوبية التي

امتن الله بها على عباده فى فاتحة الكتاب المبين ، فى قوله جل شأنه : « الحمد لله رب العالمين » . فكل العقلاء مطبقون على أن التربية الصحيحة يجب أن يساوق بعضها بعضا ، : فحينما يتعهد المربى من يربيه بالتغذية يجب أن يتبعها بالتنظيف مثلا ، ويقرن ذلك بترويض أعضائه موجها انتباهه الى ما يجمل به إدراكه ، موقظا له إلى محاذرة ما يخشى ، وهكذا دواليك ، فلا يهمل شأنا من شئونه قد استعد لقبوله ، متغافلا فى شأن آخر قد أخذ منه حظه وكفايته

هكذا ترى الترتيب العجيب والأسلوب الرائع ، والتنقل فى القرآن الكريم من نور إلى نور ، ومن ثمرة إلى ثمرة

فلقد بدأت السورة الكريمة التى نحن بصدد تفسيرها بتوجيه نظر المؤمنين اليها جملة ، والتنويه بعظمتها ، حتى تتفتح أذهانهم إلى ما سيتلى عليهم ، فقال : « سورة أنزلناها وفرضناها وأنزلنا فيها آيات بينات لعلكم تذكرون » . فلما أن تفتحت عيونهم لما سيتلى عليهم ، لقيهم بالتنبيه إلى ذلك المرض الخبيث الذى ابتلى به المجتمع فى الكثير من أدواره ، وتوافرت دواعيه من كل ناحية ، كما تراكمت خبائثه وتفاقم شره وعظم فحشه ، وما من أحد من العقلاء إلا وهو يكره أن يلحقه ، ويخشى أن يصيبه ، ويجزع إن وصم به ، وهو على كبر فحشه أسرع الفواحش فى انحدار النفوس اليه ؛ إذ تقع فيه وهى مسترسلة فى نعيمها ، لاهية فى استمتاعها ، متلذذة باستيفاء ما تصبو اليه بطبيعتها ، فكان جديرا بالتنبيه على خطره أولا ، إذ كان أشد

الأمراض فحشا وأوسعها انتشارا ، وأسرعها إلى نفس الناشيء الشاب لأول عهده بالتكليف الشرعي ، فبين من أحكامه ما بين ، وأردف ذلك بتوجيه نظرهم ولفت عقولهم الى فضل الله عليهم ورحمته بهم ، وأنه واسع الرحمة والفضل والعلم ، فيجب أن يأخذوا ما فرضه عليهم أخذ قبول وانتفاع ، معترفين بالفضل شاكرين للنعم.

ثم أتى بعد ذلك بقصة تقوم برهانا على عظيم النفرة ، حتى من الظنة الكاذبة والتهمة الباطلة . وما يترتب عليها من عظيم الخطر ، وما ينجم عنها من كبير الفتن ؛ فذكر تلك الفتنة التى ابتلى بها بعض ضعفاء الايمان ، فجرّت إلى ماجرّت ، حتى كشف الله القناع عن خبث نية من أثاروها ، وفضح شأنهم وأخزاهم ، ولكن بعد أن تحركت نفوس ، وزاغت عيون واعتلّت قلوب . كل ذلك والأمر مجرد وهم خطر في بال منافق فأسرّه إلى ضعفاء الايمان ، فحجل بينهم الشيطان ، حتى كان من فتنتهم ما كان ، فكيف ترون فى خطر هذه الفاحشة التى ساءت سبيلا ، إذا فرض صدورها من أحد المؤمنين ؟!

ولقد ضمنت القصه من التعليم والارشاد إلى ما ينبغى من الأخلاق فى مثل هذه الظروف الحرجة ما لو لم تسق هذه القصة لما ظهر لنا وجه مناسبة إيرادها على هذا الوجه المقبول . وهل هناك أدعى للعظة من الكلمة تجيء بمناسبتها وفى شرح حال واقعة ؟

وإنك اذا تأملت ما يسلكه أهل هذا العصر ويتورطون فيه من

اختلاق الحوادث الخيالية والروايات التمثيلية ، لما رأيت لهم وجها فى تبرير أكاذيبهم وخيالاتهم الوهمية سوى قولهم : إنا نرى العظة من لسان الحال أكبر منها بلسان المقال ، فكيف بالوقائع الحاصلة وأثرها فى النفس هذا الأثر الكبير ؟ لاشك أنها تكون أعمق أثرا وأثبت فعلا ، وأدعى الى الامتثال والقبول والانتفاع .

بذلك ترى الحكمة فى إدماج الأحكام ، والأرشاد والتربية فى سوق القصة ، وأنه لا يفيد مجرد سرد الحكم أو العظة بدون أن تستند الى مايدعو الى امتثالها ويشرح سر جمالها .

انظر الى قوله : « لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا وقالوا هذا إفك مبين » ،وقوله:«ولولا إذسمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم » ، وقوله : « إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة » ، ثم قوله : « يأيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ومن يتبع خطوات الشيطان فانه يأمر بالفحشاء والمنكر » ، تجد لهذه الأحكام والعظات فى هذا السياق ، وبمناسبة تلك القصة الخطيرة ، ماليس لها إذا سردت سردا وقيلت قولا .

ثم تأمل فيما فصلت به من التنويه بعظم فضل الله عليهم ، ومنته فى إرشادهم ، تجد لذلك فى النفوس أبلغ الأثر . وانتقل مثلا الى قوله : « ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى » الآية ، فكم تجد فيها من تجلى الفضيلة والخلق الكريم فى أشد أوقات ثوران

النفس وغضبها ، وكم ترى فيها من تربية ضبط النفس ، وحبسها على مايرضاه الله ، واطراح نزواتها ونزغات الشيطان انتهاز المثل تلك الفرص الجليلة ، هل فى الامكان أن يمهد لمثل تلك التعليمات إلا بمثل تلك القصة ؟ وهل كنت تحس للحكم يلقى اليك مجرد أمر أونهى مثلما تحسه وقد وقع فى محله وجاء لمناسبته ؟

وبعد : فانظر الى مناسبة ماتلا هذه القصة من أحكام الاستئذان فى دخول البيوت ، والاستئناس لذلك والتسليم ، حتى لايفاجأ الناس بالاطلاع على أسرار لايحبون أن تنكشف لأحد ، فتربى فى نفوسهم كراهيتهم بعضهم لبعض ، وحتى لا ينفتح أمام الشيطان باب الفتن ، فيغرى بعضهم بالكلام فى بعض ويوقع بينهم العداوة والبغضاء . أفلا ترى أن هذا هو محله الذى لايعدوه ، وأنه ترتيب من لا يعزب عن علمه شىء ؟

وكيف بك اذا انتقلت الى الآيات الآمرة بغض الأبصار مقترنة بنتيجته وثمرته المقصودة بالذات ، وهى حفظ الفروج ، ويذيل ذلك بتكميل الحكم بما يحوطه ويعتبر سياجا له ، وهو النهى عن إبداء الزينة المغرية التى تلفت الأنظار وتثير الشهوات وتخلق الشبهات ، مع دفع الحرج فيما لا ضرر فيه ولا حرج منـــه ، وهم البعولة والآباء والأبناء والنساء ومن فى حكمهن ، ويختم ذلك بالأمر بالتوبة الى الله مستحثا منهم إيمانهم الداعى الى المسارعة للتوبة ، وواعدا عليها بالفلاح المرجو ؟

اذا وصل التالى الى هنا تطلع بلا شك الى حكم عام وعلاج ناجع شامل يريح النفوس من عناء المخاطرة ، وتطمئن عنده العوامل المتحركة .
ذلك هو الأمر بالتزويج والترغيب فيه ، وتسهيل سبله ، وعدم الخشية من كلفه ومؤنه ، وهذا هو ماذكره جل شأنه فى قوله :«وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله والله واسع عليم». ثم يردفه بما يبعد عنه توهم أن ذلك قاعدة عامة محتومة ، فيقيد ذلك بمن يكون عنده وُجد مّا ، فمن لم يجد بابا مفتوحا لذلك أصلا فليستعفف حتى يغنيه الله من فضله.

وإذ تعرض فى أمر الانكاح الى إنكاح الصالحين من العباد والإماء ، فانه لم يترك هذا المقام يمر بدون أن يوفى الصلاح فى الأرقاء ما يستحقه ويليق به ؛ فعطف عليه بفتح باب الترغيب فى إطلاق الحرية وإزالة الرق بما يسهل عليهم امتثاله ولاينبغى أن يشحوا فيه ، وذلك هو كتابة الرقيق على مال متى ظن فيه الخير ورجا منه الأداء ، ثم زاد فى هذا الترغيب بالأمر بمساعدتهم ، وإيتائهم من مال الله

وما أحسن التعبير عنه فى هذا المقام بمال الله ، حثا على أن يجود به فى مرضاة الله ! وقد أضاف المال اليهم حين أمرهم بامساكه والمحافظة عليه فى قوله فى سورة النساء :«ولاتؤتوا السفهاء أموالكم». فتأمل هذا التعبير العظيم .

وأما إرداف ذلك بقوله جل من قائل: « ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا » فانك تدرك الروعة فى حسنه والبراعة فى

موقعه حين تتأمل فى قبح تلك العادة السوءى التى كان عليها سفهاء من الرجال . وما أبعدهم عن وصف الرجولة ! فقد كانوا يستغلون ضعف الفتيات وامتلاكهم لهن ، فيزجون بهن كرها إلى أفحش المواطن ، ابتغاء المال الذى حقه أن يكون اكتسابه من صنع الرجال ، لا أن يكونوا عالة فيه على النساء ، يكتسبنه من أفحش الأبواب وأخبث الأسباب . نعوذ بالله نعوذ بالله ! وهل هناك ماهو أفحش وأنذل وأحط نفسا من رجل يرضى لامرأة تتصل به أن تكون على هذه الحال ، فكيف بأمرها بذلك ، فكيف بإكراهها على ذلك وهى تريد التحصن ؟!

قارن هذا بالأمر بإنكاح الصالحين من العباد والأماء ، ثم بالأمر بمكاتبة من يصلح منهم للخير ومساعدتهم على الوفاء ، تجد نفسك قد بهرك من الحسن ماملك عليك جوانبك ، وتجد أن صورة أولئك القوم قد صارت أشنع مايتصوره متصور ، ومازاد فى شناعتها لتنفر النفوس منها إلا مقابلتها للمثل الصالح المأمور به فى معاملة الموالى من إنكاح ومكاتبة ومساعدة .

إذا وصلت أيها القارىء المتدبر فى هذه السورة الكريمة الى هذا ، أفلا ترى حقا صحيحا أن يمتن الله علينا بقوله عز من قائل : «ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات ومثلا من الذين خلوا من قبلكم وموعظة للمتقين» ؟ أفلا ترى أن هذا مما يلفتك الى ماسبق من الأحكام ، ويدعوك الى التأمل فيها ، والاستمساك بها ، والاعتصام بعروتها ، والشكر على منتها ، وذلك بامتثال أحكامها وهو المقصود من الامتنان بها ؟

هذا البيان ، وهذا الارشاد ، وهذه التربية ، وهذه الهداية : أى عقل من عقول البشر يستطيع أن يصل اليها ، أويبلغ شأوأمنها ، مهما تقطعت الأعناق وزاغت الأبصار ؟«قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لايأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » . إنما هو نور من الله وهدى منه وحده ، وما كان لغيره أن يكون له شيء من مثل هذا النور ،فقد تخبطت عقول البشر وحارت أوهامهم ، وضلت السبل فلم يستطيعوا أن يهتدوا ، حتى جاءهم من الله نور وكتاب مبين .

أجل أجل : الله نور السموات والأرض ، حساومعنى ، ديناودنيا ، فما من أحد بقادر على أن يبرز نورا صحيحا ، وإنما هى لمعات سراب إذاجئته لم تجده شيئا ، أوكظلمات فى بحر لجى على ماسيأتى . أما هذا النور فمثله كأعظم مايبهرك من النور . تصور نورمصباح رق زجاجه ، وصفا زيته ، وجاد أصله ، وضبطت أشعته ، جاء فى وقت أحاط بك الظلام من كل ناحية ، وتلألأ هـذا النور أمامك على ذلك الوجه ، كيف يكون ظهور ذلك النور .

هذامثل النور الالهى ،ولله المثل الأعلى ،فهو نورعلى نور . ولكن تجلى النور شيء واهتداءالنفوس به شيء آخر ، فرب نوراهتدت به أبصار وعشيت عنه أبصار . فالاهتداء إنما يكون بمشيئة الله ، يهدى الله لنوره من يشاء ، ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور .

هذه أمثال يضربها الله لعباده ليتفهموا بها ماينتفعون به ، فتراهم يسارعون الى أبواب رحمته ، ويلجأون الى بيوت رضوانه ، تلك البيوت التى شرفها بذكر اسمه فيها ، فيسبحونه ، ويذكرونه ، ويقدسونه ، فيمتثلون أمره ، ولاتلهيهم مصالحهم عن عبادته ، وهم فى كل ذلك عارفون بقدرته عليهم ، يرجون رحمته ويخافون عذابه ، يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار ، فكان عاقبة أمرهم أن تجاوز الله عن سيئاتهم ، وجزاهم بأحسن أعمالهم ، وزادهم فضلا عن أجرهم ، والله يرزق من يشاء بغير حساب .

هذا نور الله ، وهذا شأن من اهتدى به . أمامن زاع عنه فأولئك الذين اتبعوا أهواءهم فتفرقت بهم السبل وظنوا أنهم على شىء ، ولكنهم كاذبون

أولئك الذين ذكرهم الله بعد هذا ، والضد أقرب خطورا بالبال عندذكر ضده ، فقال جل من قائل :«والذين كفروا أعمالُهم كسراب بِقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذاجاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب » .

مثل من لم يهتد بنور الله

(والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب . أوكظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور) :

بينا فيما سبق كيف أردف المولى جل وعلا تلك الآيات البينة والتعاليم الحكيمة والارشادات المنيرة للطريق السوى ، الهادية إلى سبيل السعادة ، المنظمة لأحكام المعيشة البيتية ؛ وأردفها بما يرغب فى الاهتداء بها والامتثال لأمرها والتحقق بالعمل بها ؛ فبين أنها آيات مبينة ، وأنها موعظة نافعة لمن عمل بها واتقى ربه فى الأخذ بسببها ، وأن نورها وهداها لا يصدر إلا من العليم الحكيم . ثم ضرب مثلا لنوره بتصوير أعظم ما يخطر بالبال وتراه العيون من النور ، شارحا أثر الاهتداء بذلك النور والمقصود الأعظم منه وهو شكر المنعم ، والقيام بحق العبودية له ، وإفراغ الجهد فى طاعته ، ونوه بالأماكن المخصصة لعبادته ، ورتب على ذلك الجزاء الذى أعد لهم ، والفضل الذى يمنحهم زيادة عن توفيتهم أجورهم .

وكان جديراً بل منتظرا بعدما عرف من حال المهتدين ما عرف ، أن يشرح حال من ضلوا السبيل ولم ينفعهم هدى الله الذى جاءهم ؛

فبين سبحانه وتعالى حال أولئك الضالين الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، فضرب لهم مثلين (أحدهما) حال من عقد قلبه على الضلال واطمأن الى الكفر وبنى آماله على غير أساس ، جازما بأن له العقبى والفوز ، وأولئك هم الذين ظنوا أنهم على شىء وماهم على شىء . و (الثانى) حال من ملكت الحيرة قلوبهم وتاهوا فى بيداء الضلالة يتلمسون الهدى وهو بين أيديهم يناديهم ويضىء لهم وهم عنه عمون ، كالضالين الذين لا يعتقدون دينا أو يتخيلون أمرا يدينون به وهم فى شك منه ، ككفار قريش الذين كانوا يسألون اليهود أيهما خير ديننا أم دين محمد ؟ فقال فى الأولين : «والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا» وقال فى الآخرين : « أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض » .

وأيضا لما بيّن حال المؤمنين فى الدنيا والآخرة بأنهم فى الدنيا على نور الله وهدايته ، وفى الآخرة يجزيهم الله أحسن ماعملوا ويزيدهم من فضله ، بيّن حال الكافرين كذلك فى الدنيا والآخرة ، فبيّن حالهم فى الآخرة بأنهم يردون على أمل كاذب فى عمل خاطىء كمتتبع السراب وقد اشتد به الظمأ ، فلا يجدون مما أمّلوا شيئا ، بل يجدون الجزاء الذى أعدّ لهم على مااقترفوا وضلوا ، فيجدون الله يحاسبهم حسابا عسيرا ، ويستوفون جزاءهم جزاء نكرا ، وبيّن حالهم فى الدنيا بأنهم يسيرون فى ضلالة ويتيهون فى ظلمات متراكمة ، ظلمات بعضها فوق بعض ،

وأنّى لمن كانت هذه حاله أن يصل الى غاية صحيحة ؟!

وقـدّم هنا مايتعلق بأحوال الآخرة ، لأن صدمتها لهم أشد ، وحسرتهم على ما قدموا من عمل يلتفتون اليه أقوى . وقدم فى جانب المهتدين حال الدنيا ، ليكون الترتيب حسب ترتيب الوقوع ، وهو ظاهر . وأيضا فلتربية الرجاء ليزداد الاقبال على اتباع الهدى .

وقد يقال أيضاً : إن أعمال الـكفار منها ماهو موضع لأمل الخير فيرجون بها الثواب ، فاذا ما وردوا عليها يوم القيامة وجدوا أنفسهم قد ضيعوها وخابت آمالهم عندها ، إذ لم تبن على أساس الايمان الصحيح ، وكل ما بنى على غير أساس فالى الانهيار يصير ، ومنها ما هو أذى وشر فى ذاته ، فاذا انضم إلى ظلمة الـكفر كان كالظلمات المتراكمة بعضها فوق بعض . قد قال بكل وجه من هذه الوجوه طائفة . والآية قابلة لهذه المعانى كلها . وأسرار الـكتاب العزيز لا تقف عند حد .

والسراب : ما يتراءى فى الفلوات وقت الضحوة كأنه ماء وليس بماء . يرى ذلك من يسافر فى الصحراء ، فمن الناس من يعلله بأنه بخار رقيق يتصاعد من قعور القيعان ، فاذا وقع عليه شعاع الشمس تراءى كالماء ، ومنهم من يقول : بل هو هواء رقيق يظهر عند وقوع الشمس عليه بهذا المظهر . وعلى كل حال هو معروف ، وليس المقام مقام تعليله

والقيعة : الأرض المنبسطة المستوية . أوهى جمع قاع كجيرة جمع جار . والقاع : هو الأرض المنبسطة المستوية . ويحسبه بمعنى يظنه .

وفرق بعضهم بين الحسبان والظن بأن الحسبان هو أن يخطر المعنى بالبال فيعلق بالنفس ، وهو قابل للزوال بالتشكيك ونحوه . والظن أن يرد المعنيان على النفس ويرجح أحدهما على صاحبه رجحانا لا يصل لليقين ، فكأن الظان قد خطر له المعنيان وركن الى أحدهما ، والحاسب لم يخطر له إلا معنى واحد ، وهو قابل للزوال بالتشكيك أو بظهور الحال . والظمأ : شدة العطش . وكأنه خص التشبيه بالظمآن مع أن السراب يتراءى كالماء للظمآن وغيره ، لأن الظمأ يدفع بالمرء الى تلمس الماء ، فاذا ما وقع بصره على السراب خطر بباله ماهو بحاجة إليه ، ودفعه الحرص على هذا الحسبان وهو لا يشعر . ثم فيه نكتة أخرى وهى الجمع بين ضلال الحسبان وخيبة الرجاء مع اشتداد الحاجة ، وذلك حال الكافر إذ يرد على ربه معتدا بعمله مؤملا فيه حسن المثوبة ، إذ كان يراه من عمل البر ، كصلة الرحم أو مساعدة الضعيف ، أو الصدقة على الفقير ، فاذا ماجاءه لم يجده شيئاً يعول عليه ، بل وجد الحساب أمامه بالمرصاد ، فيستوفى جزاء ما فرط فى أمر الايمان ، وهو أساس كل طاعة وعماد كل بر ، وحينئذ تشتد به الحسرة على ضياع ما أمّل ، ومصادفة العقاب الذى لم يكن له على بال . ومثله فى شئوننا المألوفة أن يبذر المرء أجود البذور فى أرض مسبخة أو صخرة لا تنبت ثم يتعهدها بالرى وعوامل التنمية فلا تزداد إلا ضياعا .

وأما ما عملوا من سوء فانه يراه وقد عظم جرمه وتراكم إثمه ، فازداد بالكفر جرماً وإثما ، وحاق به من سوء عمله مالم يكن مقدراً له ،

فضاقت نفسه ، واشتدت حسرته ، وانسدت مسالك الأمل فى وجهه، فإذا رجع إلى ماعمل وجده سوءا ، وإذا رجع إلى مااعتقد وجده ضلالا وظلاماً ، وإذا رجع إلى نفسه وجدها نفس سوء شريرة ، فكأنه قد قذف به فى بحر لجى تلاطمت أمواجه ، وتراكمت غيومه ، وأظلم ليله، فلا شمس ولا قمر ، ولا كواكب ولا نجوم ، فإذا حاول أن يرى يده فلا سبيل له إلى رؤيتها ، فلا يقرب من أن يراها فضلا عن أن يراها ، ذلك لأنه فقد نور ربه ، فمن يعوضه من نوره ؟ ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور .

والخلاصة أن التشبيهين فى الآية الكريمة يحتملان جملة معان لا تعارض بينها ، فيصح استفادتها جميعاً منهما ــ الأول : أن التشبيه بالسراب لبيان خيبة أملهم فى الآخرة وضياع ما كانوا يرجون منه المنفعة فى وقت هم أشد ما يكون فيه احتياجاً إلى تحقق أملهم . والتشبيه بالظلمات لبيان حالهم فى الدنيا ، وأنهم يتخبطون فيما يعتقدون ما لهم به من سلطان ولا عليه برهان.

والمعنى الثانى: أن التشبيه بالسراب راجع إلى الأعمال التى كانوا يرجون منها الخير كعباداتهم لله على غير هدى، وكالبر وصلة الرحم ومساعدة البائسين، فإذا جاءوها يجنون ثمارها وجدوها باطلة من أساسها متهدمة فى قاعها. والتشبيه بالظلمات راجع الى سيئات أعمالهم التى زادها كفرهم سوءا على سوء.

والثالث :أن التشبيه بالسراب راجع الى الفئة المعتقدة جزما بحقية ماهم عليه، والتشبيه بالظلمات راجع الى أولئك الحيارى الذين ضلوا سواء السبيل.

واللجى : منسوب للجة : وهى معظم الماء الغمر البعيد الغور . وكأن نسبته للجة لكثرة اللجج فيه ، أولأنه هو فى البحار كاللجة وسط البحر . وغشيان الموج له بعضه فوق بعض مما يزيد هوله ، فاذا تراكم السحاب على من تورط فى سلوكه حتى حجب ضوء الكواكب فكم يكون استحكام الظلام فى وجهه والحيرة فى نفسه ! فاللجة أثرها فى زوغان النفوس وشرود العقول ، وتراكم الأمواج بعضها فوق بعض مما يزيدها هولا ، فاذا حجب الضوء وتراكمت السحب، حارت النفس فى أمرها فلا تدرى ماذا تصنع ولا كيف تنجو ولا أين تتجه . والمرء إذا ضل المسالك ووقف ذهنه عن الحركة ، فقد ملكه اليأس من كل جانب . والذى جرّ ذلك كله عليهم أن حرموا من نور الله ، ومن لم يجعل الله له نورا فماله من نور .

تسبيح العالم كله لله وآياته فى خلقه

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ . وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ . أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ . يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِى الْأَبْصَارِ) :

لقد وصف لنا جل شأنه نور الله فى تلألئه وصفائه ، وكيف يشرق على قلوب المؤمنين فيقبلون على طاعته ولا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكره ، وكيف تغلق دونه قلوب طمس عليها فغرقت فى ظلمات متراكمة ، وشملتها العماية حتى لا ترى شيئا مّا مهما كان منها قريبا ، فكان جديراً أن يردف ذلك بالثمرة المقصودة من تجلى النور على القلوب ، لتقارن بحال من حرم منه ، فتبتهج النفوس بالنعمة ، وتسارع إلى التقاطها ، وتحمد الله على التوفيق اليها ، وتزداد بها تمسكا . وساق ذلك على وجه يبرزه فى صورة المحسوس المرئى ، إيذانا بوضوحه أمام عين البصيرة كما تتضح المرئيات أمام العين الباصرة ، فقال جل شأنه : « ألم تر أن الله يسبح له من فى السموات والأرض » . وأصل الرؤية الابصار بالعين ، وتستعمل كثيراً فى العلم بالبصيرة وهو المراد هنا ، أى ألم تعلم . والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ، والمراد ما يعمه ويعم أمته ؛ أو الخطاب لكل من يتأتى منه الرؤية . والاستفهام هنا للتقرير ، ويستعمل فى الاخبار بالشىء الذى بلغ من الوضوح حالة يستغنى عن الاخبار به ، بل يكفى تنبيه المخاطب عليه فيقر به من نفسه ، كقوله تعالى : « ألم يجدك يتيما فآوى » لأنه عليه السلام كان يعلم ذلك من نفسه. وقوله تعالى : « ألم تر أن الله يسبح له الخ » فيه دلالة على وضوح ذلك الأمر إلى حد أنه يرى ويعلم علما واضحا ، ودلالة على أن هذا الوضوح وهذا العلم أمر يجده كل ذى قلب أشرق عليه النور الالهى ،

وانتفع بالمواهب التى أنعم الله بها عليه ، من عقل يميز ، وآيات بينة .
والتسبيح : التنزيه عما لا يليق .

والمعنى أنها تعترف بتنزيهه وتقديسه، وتشهد بذلك بلسان حالها وبما أودع فيها من آيات الابداع الدالة على كمال منشئها وعظيم قدرته ، وواسع علمه وباهر حكمته ، فانك إذا تأملت فى هذه الأنواع المتباينة وماأودع فى خلقة كل منها مما يحتاج اليه فى حياته ، وجدتها جميعها ناطقة بأفصح بيان بتنزيه مبدعها ، شاهدة بأصدق لسان بتمجيده وتقديسه .

انظر إلى الحيوانات الصغيرة الضعيفة وما ركب فيها من قوى تُعينها على تحصيل رزقها والدفاع عن أنفسها ، تجد العجب العجاب . أنظر إلى النحل وما ألهمت، والى النمل وما منحت ، والى الوحوش وما أعطيت ، والى البهائم وما ركّب فيها من قوى ، تجد مالا يقف عندحد من دلائل القدرة وآثار الحكمة . انظر الى الانسان وكيف خلق ، وتأمل فى أى ناحية من نواحيه شئت ، وفى أى عضو من أعضائه أو أى جهاز من أجهزة بدنه ، وأطل البحث والتأمل ، فانك كلما ازددت نظرا أو تأملا ازددت علما ويقينا بهذا المعنى . إنك اذا تأملت فى الجهاز التنفسى للحيوان ، أو للدورة الدموية وما تغذى به الأعضاء آنا فآنا ، أو للعصب وما يوصل ، أو لأعصاب الحركة وكيف طاعتها ، أو للغدد المفرزة وثمراتها ، فانك سيتجلى لك فى كل خطوة تخطوها نور تشهده يُنطق لسانك بالتسبيح والتمجيد ، فكل من فى السموات والأرض ، وكل ما فى السموات والأرض وما بينهما من الطير صافات

فى الفضاء ، ناطقة بأجلى بيان ، شاهدة بتسبيح الملك الديان ، جل شأنه ولا إله غيره . أمر بين ، ولسان فصيح ، يجده كل من فتح عين بصيرته ونظر الى عجيب صنع الله :

فـفى كـل شىء له آية   تدل على أنه الواحـــد

من هذا ترى الـكلام قد انتقل بألطف أسلوب وأرق مسلك الى تقرير أدلة الربوبية، ولفت النظر الى آيات العظمة الالهية والحكمة الصمدانية ، وجعل ذلك نتيجة لازمة وثمرة مترتبة على ما سبق من تفصيل أحوال العالمين ، الى مستنير مبصر ، والى أعمى حائر فى بحر من الظلمات . وكأن سوق الأدلة على هذا الوجه ، ليفيد أنها مع كونها من الوضوح بهذه المثابة فقد عمى عنها فريق؛ فهل عماهم عنها إلا لانطماس أبصارهم وبصائرهم ، ولانغماسهم فى الظلمات فهم فيها يعمهون؟!

وترى بهذا أن التسبيح معناه الشهادة بلسان حالها بتنزيه مبدعها . وبعضهم يرى أن التسبيح لايبعد أن يكون باللسان، ويقول : لايبعد أن يخلق الله لكل ما فى الأرض من حيوان ، وللطير، ألسنة توحد صانعها وتسبح له بلغة تفهمها وإن لم تفهمها عنها . ولـكن الآية فى غنى عن هذا . كيف ولسان الحال أفصح من لسان المقال! ولفظ «من» وإن اختص بالعقلاء فباب التغليب واسع ؛ أى أننا أطلقناه على الجميع تغليبا للعقلاء على غيرهم ، أو أنه لما أسند اليهم ما شأنه أن يسند إلى العقلاء ، عبّر عن الجميع بمن المختصة بالعقلاء . وعطف الطير على من فى السموات والأرض للتنصيص على عموم من يسكنها ، ولإفادة الشمول

للجميع ، حتى من يكون بينهما ، فضلا عما فى الطير فى هذه الحالة ، وهى استقرارها فى الفضاء صافة أجنحتها لا تحركها لتموج الهواء من تحتها ليقوى على حملها ، من الدلالة العظمى على عظيم قدرة الصانع ، فانها تنطق الألسنة بتمجيده وتنزيهه ، فان معنى صافات : باسطات أجنحتها لا تحركها.

وقوله تعالى : « كل قد علم صلاته وتسبيحه » معناه أن كل فريق من هؤلاء قد علم الله صلاته وتسبيحه . وقوله : « والله عليم بما يفعلون» تقرير لذلك وتثبيت له ، أى قد علم الله من كل فريق ما وجهه اليه من الابتهال والاستعانة به والتوجه والاعتماد عليه فى تحصيل ما يبتغى . فالصلاة معناها طلب المعونة منه واللجأ فى تحصيل المقاصد اليه ، وهو أمر يشعر به بفطرته كل من حاول تحصيل مقصد وهو فيه بين أن ينال أو لا ينال ، فيصرف جهده فى إحرازه وهو بين الرجاء والخوف وبين الشك واليقين ، فتدفعه غريزته الى اللجأ الى من وهبه قواه وأمده بمدده ، فكأنه يستنصره ويستمدمنه مزيد القوة ، ويلجأ اليه فيما تعاصى عليه ؛ والله عليم بما يكون منه من هـــذا الالتجاء والاستعانة ، فقد علم صلاته كما علم تسبيحه ، فانه عليم بكل مايفعلون.

ويجوز أن يكون المعنى: كل فريق من هؤلاء قد علم بما يكون منه من صلاة هى مختصة به وتسبيح صادر منه وإن لم يستطع شرحه والتعبير عنه ، فشعور النفس شىء والتعبير عنه وشرحه شىء آخر . وعلى هذا التقرير يكون محصل معنى الآية الكريمة واتصالها بما قبلها هكذا:

قد تبين لكم النور الالهى وأثره فى نفوس من اهتدى به ، وظهر أن هناك نفوساً عميت عنه فلم تنتفع به مع عظيم تألقه وصفائه ، فكانوا فى ظلمات بعضها فوق بعض ، وإن مما يقرر هذا ماترون من آيات ناطقة بأوضح دلالة بتسبيح الخالق وهى منبثة فى كل مافى السموات والأرض ، لاتحتاج إلا الى من يفتح عينه ليبصرها ومع ذلك فقد عمى أولئك المخذولون عن رؤيتها ، ألم تنظر إلى نفسك ومامنحت من إحكام فى التركيب وإتقان فى الخلق ، ألم تر الى مايحيط بك ويلابسك ويقع عليه نظرك ، وكل قد منح منها ماهو محتاج اليه فى حياته ، ألم تر إلى تركيب الأعضاء ، ألم تر الى تنويع القوى ، ألم تر ألم تر ، مما لا يكاد يحصى ؟ أليس هذا كله ناطقا بتسبيح الله وتمجيده ؟ ! أليس من وهب كل هذا وكونه عالما بما يصدر عنه ، قد علم الله من كل تمجيده وتعظيمه ، وقد عرف كل ماهو منوط به من تمجيد وتعظيم ؟ والله عليم بما يفعلون .

وقوله تعالى : « ولله ملك السموات والأرض وإلى الله المصير » معناه أنه وحده هو الواهب لكل القوى المنبثة فى هذه الكائنات ، فكل شىء منه ومستند الى هبته ومنحته ، وليس لممكن من الممكنات أثر بنفسه فى شىء من هذه الكائنات ، كيف وهو بذاته وصفاته هبة من الحق جل وعلا ، لا قدرة له على تكوين نفسه ولا تكوين شىء فيها ولا أن يهبها ما لم يهبها الله ، فهو المالك لكل شىء ، فله ملك السموات والأرض ، وهو المنتهى والمرجع ، فالكل مبتدأ منه وصائر اليه ، والصيرورة اليه إما بالبعث وهو ظاهر ، وإما على معنى

أن مايظهر على يد بعض المخلوقات من آثار تنسب اليها فهي فى الآخر مرجعها اليه ، إذ لا قوة لها من ذاتها . ولا يخفى أن منزلة قوله : ولله ملك السموات والأرض مما قبله منزلة النتيجة من الدليل ، ومنزلة الثمرة من الشجرة .

وقوله تعالى : « ألم تر أن الله يزجى سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما » تقرير لدليل ثان من أدلة العظمة الالهيه والآثار الربانية ، وهو مايجرى أمام أعيننا ، وننظر اليه وننتظر نفعه أو نستدفع ضره ، ومعنى يزجى : يسوق رويدا رويداً ، ومنه بضاعة مزجاة متداولة تساق على يد الكثير من الناس ، ليست من الطرف التى يعتن بها . وإزجاء السحاب معناه سوق بعض قطعه الى بعض . والسحاب معروف ، وهو اسم جنس جمعى لسحابة كشجر وشجرة . والتأليف : الضم مع مراعاة الألفة والتناسب . والركام : المتراكب بعضه فوق بعض . والودق : المطر أو القطر . وقيل : البرق . وخلاله : جمع خلل كجبل وجبال ، أى الشقوق التى تكون بين أجزائه . وقوله : وينزل من السماء ، أى من جهة العلو ، أو من السحاب ، لأنه يسمى سماء أيضا لعلوه . وقوله : « من جبال فيها من برد » إما أن تجعل من الأولى ابتدائية ويكون بدلا من قوله : من السماء ، والمعنى ينزل من السماء من الجبال التى فيها بعض برد ، وتكون من الثانية تبعيضية ، أو تكون من الأولى تبعيضية ومن الثانية زائدة أو تبعيضية ، ويكون قوله :

فيها من برد جملة من مبتدأ وخبر صفة لجبال ؛ أى ينزل من السماء بعض جبال فيها برد أو بعض برد . والمراد بالجبال على كل حال القطع العظيمة الكبيرة ، فعلى الأول ، المراد مايتراءى للناظر من السحاب المتراكم المشبه للجبال المتراصة ، وعلى الثانى : ماينزل من كتل كبيرة فيها برد ؛ أو ما يتكون على الأرض من ثلج وبرد حتى يكون كالجبال .

هذا وإن منظر السحاب فى تراكمه ثم نزوله مطراً أو ثلجا أو بردا ، ممـا يوقظ النفوس الغافلة ، ويلفتها مهما تحجرت الى عظمة المهيمن على العالم .

وقوله تعالى : « فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء » فيه توجيه النظر الى ناحية أخرى من نواحى دلالة السحاب والظواهر الجوية على عظمة الصانع ، فبعد أن استرعى النظر الى تكوينه ونزوله ، وجهه إلى توزيعه وتصريفه حسب حكمته . وإن من عاشر الأقوام الذين ترتبط حياتهم بالأمطار ويعلقون على نزولها عليهم أو صرفها عنهم الآمال الكبار وهم الكثير فى الناس ، يفهم حق الفهم سر توجيه النظر إلى توزيعه بعد ما وجهه الى تكوينه ، فرب منتظر له فاته وهو فى أشد الحاجة اليه ، ورب خائف منه صادفه وهو على أشد الوجل منه ، وربما جاء كلا منهما مايؤمله ؛ وعلى كل حال لايسع أحـدا منهم إلا التوجه الى القادر القاهر ، إما بالشكر ، أو باستدفاع الضر ، فقد علم كل ألا حيلة له فى جلبه ولا فى دفعه ، فأقر طوعا أو كرها أن لا مهيمن ولا مدبر ، ولا نافع ولا ضار إلا الله الفاعل المختار .

وقوله تعالى : « يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار » توجيه الى ناحية أخرى من نواحى الدلالة فى هذه الظاهرة الجوية القوية ، فانك إذا تأملت فى السحاب وجدته لم يخرج عن أنه ذرات بخارية تكونت كتلا كبيرة تراكم بعضها على بعض ، وأقوى مادة فيها هو الماء ، فمن أين الماء أن يولد ذلك الشرر العظيم والضوء القوى الذى يكاد يخطف الأبصار ، وكيف والماء ضد النار يتولد الشيء من ضده ؟ سيلجأ قائل الى التعليل بأن فى تلك السحب المتقطعة التى يدخل بعضها فى بعض تيارات كهربائية ، فاذا انجذب بعضها الى بعض وكان بعضها سالبا وبعضها موجبا عملت هذا العمل. ونقول : فليكن كل هذا صحيحا ، فمن ذا الذى أودع فيها كل ذلك ؟ وهل نقول إن الدال على عظمة الخالق أمر لا يستند الى ناموس ثابت ؟ إنما نقول : إنه الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى .

وقوله تعالى : « يقلب الله الليل والنهار » هو أخذ بالذهن من شهود أثر عظيم الى شهود أثر عظيم حتى يشهد عظمة الخالق بشهود عظمة المخلوق ، فينطلق اللسان قائلا : سبحانك ماخلقت هذا عبثا . وكأن إتيانه عقبه ليرشد المتأمل الى أن أمر السحاب وإن أخذ منك ذلك المأخذ لأنه ليس مما يتكرر وقوعه ، فان بين يديك ماهو أعظم وإن كنت ذهلت عن التأمل فيه لكثرة تكرره ، وذلك هو تقليب الليل والنهار ، يعاقب كل منهما صاحبه ، ويأ كل كل منهما من أخيه بالزيادة والنقصان ، وتتقلب الأحوال فيهما من حر وبرد وغيرهما ، هذه

كلها أدلة على تمجيد الله . إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار . وكان التعبير بالأبصار ، لأن ماسبق من الادلة هو بمنزلة المحسوس الذى يدركه من له عينان ، وليس من الأمور العويصة التى تحتاج إلى تأمل ودقة نظر ، وليزاوج قوله فى أول الدليل : ألم تر ، يدل ألم تعلم ، ولأن أكثر ماسيق هنا أمور بصرية . ويجوز أن يكون المراد بالأبصار البصائر ، ويكون بينها وبين الأبصار فى قوله : يذهب بالأبصار ، جناس تام ، وكل من المعنيين صحيح ، ولكن الأول أدق وأبلغ .

جلاء الآيات الحية على القدرة الربانية ومكابرة المخذولين بعد وضوح اليقين

(والله خلق كل دابة من ماء ، فمنهم من يمشى على بطنه ، ومنهم من يمشى على رجلين ، ومنهم من يمشى على أربع ، يخلق الله مايشاء ، إن الله على كل شىء قدير . لقد أنزلنا آيات مبينات والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم . ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين . وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون . وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين ، أفى قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله ، بل أولئك هم الظالمون) :

قوله تعالى : « والله خلق كل دابة من ماء » الآية ، متسق مع

ماقبله فى نسق واحد ؛ وهو بيان العظمة الألهية ، والارشادالى الآثار الربانية ؛ البالغة منتهى النظام وغاية الاحكام ، الدالة على جلال مبدعها ، وقدرة موجدها ، وتنزهه عن شريك أو ضريب ، فلو كان هناك إله غيره ما استقام لهما هذا النظام وهذا الابداع سالما من كل ما يشوبه أو يفسده : لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا .

والدابة : اسم لكل مادب على وجه الأرض . وقد تستعمل فى العرف العام خاصة بذوات الأربع . والمراد هنا كل مادب ودرج من إنسان وأنعام ووحوش وزواحف وطيور وأسماك وغيرها . والمراد بالماء إما العنصر المعروف ، باعتبار أنه لاغنى عنه فى تخلق الحيوان ، وإما النطفة التى يتكون منها الحيوان . وكون آدم عليه السلام خلق من التراب بلانطفة ، وعيسى عليه السلام خلق بنفح الروح بلا نطفة أب ؛ لايقدح فى الكلية . لأن المراد بلفظ كل التكثير لاالعموم ، كقوله تعالى : « يجبى اليه ثمرات كل شىء » فان أريد بالماء العنصر المخصوص فلا ورود لهما لما عرفت أن الماء داخل فى قوام كل حيوان ، أو لماقيل من أن أصل المخلوقات الماء ، إذا صحت الرواية فى ذلك .

وأيامّا كان فان هذه الآية تشبه فى الدلالة على باهر القدرة قوله تعالى : «يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل » ففى كل منهما شهادة بعظم اقتداره ، ورجوع الأمر فى التخصيص بالأحوال الى مشيئته ، فقد خلق الأنواع من أصل واحد ، وباعد بينها أنواعا وأفرادا ، حتى لاتكاد تجد فرداً يشبه فردا من جميع الوجوه ؛ فهو

وحده المبدع والمدبر والمتصرف فى خلقه كما يشاء . ولما كان لفظ دابة قد استعمل فى العقلاء وغيرهم ، وكان الاستعمال الفصيح فى هذه الحال أن يغلب العقلاء على غيرهم ، أتى بالضمير بصيغة ضمير العقلاء فى قوله : « فمنهم من يمشى » الخ ، فان ضمير (هم) خاص بالعقلاء . وبهذا حسن استعمال مَن فى قوله : « من يمشى على بطنه » وقوله : « من يمشى على أربع » ذلك أنها لما انتظمت مع العقلاء فى ضمير واحد سرى حكم العقلاء اليها فى التعبير بمن . وأما قوله : « من يمشى على رجلين » فالأمر فيها ظاهر ، فانها للانسان والطير ونحوهما ، وتغليب العاقل أمر معهود . على أن المشاكلة من المحسنات البديعية ، وهى التعبير عن شىء بلفظ غيره لوقوعه فى صحبته ، كقول الشاعر :

قالوا اقترح شيئا نجد لك طبخه   قلت اطبخوا لى جبة وقميصا

والحاصل أن لفظ دابة شامل للعقلاء وغيرهم . فعاد عليه ضمير العقلاء فى قوله : فمنهم ، لتغليب العقلاء . ولفظ « من يمشى على بطنه » و « من يمشى على أربع » خاص بغير العقلاء ، مع أن من للعقلاء ، فاما متابعة لحكم الضمير السابق ، وإما من باب المشاكلة .

ولما كان سياق الكلام لاظهار باهر القدرة واجتلاء الآثار الدالة على أنه لا يعجزه شىء ، بدأ بمن يمشى على بطنه أى بدون آلة مشى وهى الأرجل ، حتى يبهر السامع لأول مايلقى به فيعترف بأن ذلك تقدير العزيز العليم ، ولذلك سمى هذا مشياً وإن كان الأكثر تسميته زحفا ، ولاتنس حديث المشاكلة الذى قدمناه آنفا ، ثم ثنى بما يمشى على

رجلين وثلث بما يمشي على أربع ، لأنها تلي ذلك في الدلالة على المقصود ، فكأنها تتميم لها واستيفاء لما قصد منها . وقد اقتصر على من يمشي على أربع مع أن هناك من يمشي على أكثر : إما لدخولها في قوله : يخلق الله مايشاء ، وإما لما قيل إن الدواب التي تمشي على أكثر اعتمادها في الحقيقة حال المشي إنما هو على أربع والباقي كالمساعد للأربع . والله أعلم . ومع ذلك فالأكثر في توجه التأمل اليه هو الأصناف الثلاثة : الماشي على بطنه ، وعلى رجلين ، وعلى أربع ، وأما الأصناف الباقية فقلما يتوجه اليها النظر والتفكير لندرتها وقلة ملابسة الانسان في شئونه لها .

وقوله تعالى : « إن الله على كل شيء قدير » كالنتيجة لما قبله . وإظهار لفظ الجلالة للتنويه بالحكم المقصود لوقوعه على صريح اللفظ الكريم ، إذ كان هو المقصود بالذات ، كما أن إظهاره في قوله : « والله خلق كل دابة من ماء » للعناية بأمر الخلق وإفادة أنه من الأحكام الخاصة بالأله لايشركه فيها مخلوق . والله أعلم

قال تعالى : « لقد أنزلنا آيات مبينات والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم . ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين » :

بعد أن ساق جل شأنه من الأدلة الباهرة والبراهين الساطعة مايملأ القلوب إيمانا ، ويشبع النفوس يقينا ، ويقطع كل شك ، وينفي كل ريب ، شرع جل جلاله يبين حال بعض من أضله الله عن الهدى حتى عمي عن هذه الشموس الساطعة ، ولم تفده تلك الحجج القاطعة ، لتعلم أن هدى

الله هو الهدى ، وأن الله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم ، حتى يدوم للمؤمن التجاؤه الى ربه ، ويبقى هو موئله فى كل أمر مهما تفوّت أسبابه ، فلا يأمن مكر الله ، ولا يعول على قواه ، ولا يخرج لحظة عن الحظيرة المباركة التى هى منزلة بين الخوف والرجاء ، ومعناها الرجوع اليه فى كل الأشياء ، فقال : « لقد أنزلنا آيات مبينات والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم » مردفا لها بقصة أولئك المنافقين التى ساقها بعد هذه الآية على وجه يجعل هذه الآية كالمقدمة لذكرها ، حتى يكون الكلام كله على سنن واحد ، وفى نسق متسق .

وسبب نزولها : أن رجلا من المنافقين كان بينه وبين يهودى خصومة ، فدعاه اليهودى للتحاكم الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعاه المنافق للتحاكم الى كعب بن الأشرف ، فرارا من التحاكم الى رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى دعا اليه اليهودى ، كأن كلا منهما يعلم أن الحق فى جانب اليهودى ، ويعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يحيد عن الحق ، فلذا كانت رغبة اليهودى فى التحاكم اليه عليه السلام بينما يطمع المنافق فى محاباة كعب بن الأشرف له حين يقول له : لقد دعوته الى التحاكم اليك وكان يدعونى للتحاكم الى محمد صلى الله عليه وسلم . ثم انتهيا للتحاكم الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فحكم لليهودى ، فلم يرض المنافق بقضائه عليه السلام ، وقال : بل نتحاكم الى عمر ، وكأنه حدثته نفسه الخبيثة بالطماعية فى عمر كما كان يطمع فى كعب بن الأشرف ، فرضى اليهودى وتحاكما الى عمر ، فقال اليهودى

لعمر رضى الله عنه : تحا كمنا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقضى لى فلم يرض بقضائه ، فقال عمر للمنافق : أحق هذا ؟ قال : نعم ، فقال : مكانكما حتى أخرج اليكما ، ودخل بيته وخرج بسيفه فضرب عنق المنافق حتى برد ، وقال : هكذا أقضى لمن لم يرض بقضاء الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم . ووجه ذلك أن الرجل قد أعلن الردة برده قضاء الرسول صلى الله عليه وسلم ، وجهره بأنه قد حاف عليه ، وحكم المرتد القتل ، وقد تحا كما اليه ورضيا بقضائه . فبذلك لا يكون مفتاتا على رسول الله صلى الله عليه وسلم . وروى أن جبريل قال للنبي صلى الله عليه وسلم : إن عمر قد فرق بين الحق والباطل ، فسمى الفاروق من حينئذ .

وروى فى سبب نزولها أن المغيرة بن وائل كان بينه وبين على كرم الله وجهه شركة فى أرض فتقاسماها فوقع لعلى جزء لا يصل اليه الماء إلا بمشقة ، فقال المغيرة . بعنى أرضك ، فباعه إياها وتقابضا ، فقال الناس للمغيرة : اشتريت أرضا سبخة لا يصل اليها الماء ، فرجع على على يقول : إنما اشتريتها على شرط أن أرضاها ولم أرضها ، فقال على : بل اشتريتها وأنت تعرفها ، وقبضتها وأنت تعرف حالها ، لا أقيلها منك ، ودعاه الى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال المغيرة : أما محمد فلست آتيه فانه يبغضنى وأخاف أن يحيف على . فنزلت الآية .

وعلى هذا كله يكون اتساق الآية بعد الآى السابقة التى جلت من البراهين ماجلت ، هكذا : هذه الأدلة ترونها تجلى عليكم فلا تدع

مرية فى نفس ، ولا يعتريها شك ولا لبس ؛ وهكذا شأن آيات الله ، لقد أنزل آيات مبينات ؛ أى تبين الحق من الباطل والرشد من الغى ؛ أو آيات بينات فى نفسها ، يقال بيّن بمعنى تبين ، كما يقال قدّم بمعنى تقدم ، إلا أن وضوح الآيات فى نفسها وتبيينها السبل تبيينا وافيا لا يغني ، عن توفيق الله للهدى ، بل من يهد الله فهو المهتد ، ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا ؛ بل قد يصل الأمر ببعض من خذلهم الله الى أن يعلم الهدى وموضعه والزيغ وموقعه ثم يعرض عن الحق إباء واستكبارا ، أو طمعا فى عرض الدنيا واستهتارا ، ومع ذلك يكون قد أعطى العهد على نفسه ، وأعلن التزام حكم الايمان وطاعة الله ورسوله ، ثم يتولى معرضا عن حكم ربه لأنه لم يوافق هواه ؛ كما حصل من هؤلاء المنافقين ، فما كان إعراضهم عن خوف من حيف كما يتشدقون ، بل أولئك هم الظالمون . وهل أدل على ذلك من أنهم إن يكن لهم الحق يأتوا اليه مذعنين ؟

قوله تعالى : « لقد أنزلنا آيات مبينات » جيء بها هكذا بلا عطف، لأنه ابتداء الشروع فى شرح حالة جديدة ، وهى حال المنافقين الذين يعلنون الايمان ويتجلى لهم البرهان ، ومع ذلك يتمادون فى طغيانهم . والكلام المبتدأ من جديد لا حاجة به الى العطف على ماسبقه ، وإن كانت مناسبته ظاهرة كما شرحناه . ولم يقل : أنزلنا إليكم ، كما قال فى الآية السابقة ، لأن الكلام فيما سبق كان لتوجيه نظرهم الى الأحكام التى سيقت لهم ليستبصروا بها ويعرفوا مقدارها ؛ فيحرصوا على امتثالها

ثم يأخذوا منها فائدة أجل ، وهى علم أنها لم تصدر إلا عن النور الالهى ، فهو وحده الجدير بأمثال هذه الهدايات ، فلذا قال : أنزلنا إليكم . وأما هنا فان الكلام مسوق لبيان حال الآيات فى نفسها ، وأن الله قد أنزلها بينة مبينة ، لايشك فيها شاك ولا يرتاب فيها مرتاب ، ومع ذلك يصادف الخذلان بعض الناس المطلعين عليها ، فتعشى أبصارهم ، وتعمى بصائرهم عنها ، وهذا شأن يرجع الى نفس الآيات لايختص بالمخاطبين . وقوله : « والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم » لتقرير أن جلاء النور لايغنى عن الرجوع الى واهب العقول على ماسبق . وقد قال القائل :

كما لاتنفع الشمس وضوء العين ممنوع

وقوله تعالى : « ويقولون » معناه أن من الناس مع وضوح هذه الآيات من يقول بلسانه آمنا وأطعنا ثم يتسلل فريق منهم ويعرض عن حكم هذه المقالة ، والباقى منهم عرضة لمثل هذا يقرون إخوانهم عليه ، فأصحاب هـــذه المقالة الجوفاء الكاذبة فى تصوير معتقداتهم ليسوا من المؤمنين فى شىء . وعلى هذا فضمير « يقولون » للمنافقين ، وهم وإن لم يسبق ذكرهم فان بقية الكلام مبين للمراد . ومثل هذا فيما يجرى بين الناس فى مخاطباتهم أن يبدأ الرجل كلامه بمثل هذه العبارة : إنى أعجب من شئون هذا الزمان يا أخى : يعاهدوننى على أنهم معى الى آخر الأمر ، وبمجرد أن تبدر أول بادرة مكروهة لا أجد حولى منهم أحداً ، فقد تعاهد معى فلان وفلان الخ . وتجد للكلام تمكناً

فى النفس ليس له إذا بدأت بتعيين المحدث عنه بادىء ذى بدء . وعلى هـذا فقوله : « وما أولئك بالمؤمنين » إشارة الى القائلين هـذه المقالة جميعهم .

وجوز أن يكون ضمير يقولون لكل من أظهر الايمان صادقا أو كاذبا . وقوله : يتولى فريق منهم ، المراد به المنافقون . والاشارة فى قوله : وما أولئك بالمؤمنين ، للفريق خاصة ، وهذا مع ظهوره لا يساوى الأول فى دقة الأسلوب ، فنميل الى ترجيح الوجه الأول فى تفسير الآية الكريمة .

ومعنى يتولى : يعرض . والاتيان بثم التى معناها التراخى فى الترتيب للاشارة الى أن التولى أمر بعيد الحصول ما كان يظنه العقل ، فمن صدر منه الاعتراف بالايمان والطاعة فمن البعيد أن يعطى على نفسه عهدا بالطاعة بعد تلك الآيات البينة ثم يتولى عن حكم الله ورسوله . وأما على الوجه الثانى فمعناها استبعاد تولى هذا الفريق الى طريق الشقاء والضلال بعد أن اندرج فى زمرة المؤمنين ، فما كان يظن بعاقل أن يتولى عن فرقة الراشدين بعد أن اندرج فى زمرتها ، الى فرقة الغاوين .

وقوله : « وما أولئك بالمؤمنين » إذا رجع الى كل القائلين يكون معناه أن الذين يقولون آمنا ثم يتسللون فيتولى فريق منهم والباقى سكوت عليهم موافقون على مسلكهم — هؤلاء كلهم ماهم بالمؤمنين ، واذا رجع الى الفريق المتولى خاصة فأمره ظاهر . وأيا كان فاختيار لفظ

أولئك فى التعبير عنهم دون الضمير : لتصويرهم بالصفات التى تجردوا من الايمان بسببها : وكونه بصفة البعيد لتحقير منزلتهم وإقصائهم عن أن يلتفت اليهم أو أن يكونوا بمقربة من ساحة الخطاب . ويشبه هذا من بعض الوجوه قول الناس فى تخاطبهم حين الذم أو الاشمئزاز : (البعيد) أو (الأبعد) . فهى لمثل هذا فى أغراضهم وإن لم يفطنوا الى تصويره حق التصوير . وقوله : بالمؤمنين ، بصيغة المعرف باللام ، للتنويه بعظمة المؤمنين ، كأنه يقال : ليس أولئك بالمؤمنين المعروف حالهم الظاهر أمرهم الذين لا يلتبسون ولا يخفون . وقوله : من بعد ذلك ، مبالغة فى استبعاد أن يصدر هذا التولى ممن يعقل ، من بعد أن اندمج فى المهتدين ، واعترف على نفسه بالايمان ، وأعطى على نفسه حكم الطاعة ، ووضحت له الآيات البينة ، أفمن بعد ذلك كله يكون التولى ؟ والاشارة التى للبعيد فى لفظ ذلك لتعظيمه . وما أكثر النكات التى يعطيها اسم الاشارة فى البلاغة العربية !

وقوله تعالى : « وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون » :

من تمام تصوير حالهم الشنيعة ، فقد وصفهم أولا بالتولى عن حكم الايمان فى الجملة ، ووصفهم هنا بأظهار الاعراض والتمرد عند دعوتهم للتحاكم . وقوله : « ليحكم بينهم » أى وبين خصومهم . والتعبير بيحكم بينهم دون عليهم ، ليقطع ماعسى أن يتلمسوه عذرا لهم من أنهم فروا من الحكم عليهم ، وكل امرىء يخاف من أن يحكم عليه ، فلذا

عدل الى هذه العبارة الدالة على أنهم دعوا ليحكم بينهم ، عليهم أو لهم .
وقوله : « إذا فريق منهم معرضون » : « اذا » هنا تسمى اذا الفجائية وهي جواب لأذا الأولى الشرطية . والمعنى أنهم إذا دعوا للمحاكمة فاجأ الداعى إعراضهم وأنهم مصممون على الاعراض مصرون عليه من قبل . وهذا سر العدول عن لفظ أعرضوا فى الجواب الى هذا ، فكأن المعنى أنهم منطوون على الاعراض عن حكومته مصممون على ذلك من قبل الدعوة ، فاذا جاءت الدعوة فاجأها إعراضهم الثابت المستقر وظهر ما كان خافيا منهم . وكأن قوله : فريق منهم ، بدل قوله : إذا هم معرضون ، للتوطئة لقوله : وإن يكن لهم الحق يأتوا اليه مذعنين . وكأنه يبادر بأفادة أنهم ليسوا كلهم معرضين عن حكمه على كل حال ، بل إنما يعرضون حين يعلمون أن الحق عليهم لا لهم ، فان علموا أن الحق بيدهم وقليلا ما يكون ذلك بدليل التعبير بان التى للشك أو القلة والندرة فى الشرط — أتوا اليه مذعنين طائعين مستسلمين لحكومته ، أو مسرعين مبادرين ، كما روى فى تفسيره ، فقد روى تفسير مذعنين بمستسلمين وبمسرعين .

قال تعالى : « أفى قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله ، بل أولئك هم الظالمون » :

هذا أشبه شيء بما يسمونه السبر والتقسيم ، ليبطل الباطل ويحق الحق ، فقد ردد أمرهم فى التقسيم بين أشياء فى سياق الاستفهام الأنكارى ليخلص الى النتيجة المحتومة ، وهى بيان أن الباعث الحقيقى

على إعراضهم إنما هو توغلهم فى الظلم حتى كأنهم وحدهم هم الظالمون لايشاركهم فى ذلك الظلم أحد . ومعنى الآية : أعميت بصائرهم فلم يدركوا رسالته صلى الله عليه وسلم ؟ فمرض القلوب معناه عمى البصائر عن الادراك مع وضوح الدلائل ؛ أم هم فى شك من أمره عليه السلام فلايدرون أيوفق فى حكومته أم لا ؛ أم لحقهم الخوف من الحيف لما شعروا به من أنه عليه السلام يبغضهم ، كما صرح بذلك بعضهم علنا ، فاعراضهم خوف على حقهم أن يضيعه بغض الرسول عليه السلام لهم ؟ كلا ، لم يكن شىء من ذلك هو الباعث . فلو كان الباعث لهم على الاعراض أحد هذه الأشياء ، فلماذا يأتون مذعنين طائعين مستسلمين مسرعين إن كان لهم الحق ، ويخصون إعراضهم بحالة ما إذا كان الحق فى جانب خصومهم ؟ فهل هذا إلا لشىء واحد وهو علمهم أنه لايقضى إلا بالحق وأن الحق فى جانب خصومهم ؛ فهم جازمون بأنه لايحكم إلا بالحق وأنه لذلك سيحكم عليهم ؟ وهذا كقول القائل : إذا لم تكن مدينا لى حقا ، فلماذا تخاف من توجهى الى محكمة العدل؟ فهؤلاء لم يكن الباعث لهم على الاعراض عمى قلوبهم عن الحق وإن كانوا عمى القلوب حقا ، ولا ارتيابهم فى عدالة حكومته عليه السلام ولو كانوا غير مؤمنين ، فقد أذعن الكل الى أنه عليه السلام لايقضى إلا بالحق ، وما اتهموه بكذب ولا جور حتى كبار المشركين فى الاشراك ، وما كان ذلك لخوف من حيف ، فقد علموا أنه أبعد من أن يحيف فى حكومته ؛ وإنما باعثهم على الاعراض محض تمسكهم بالظلم . وعلى

هذا فالاستفهام إنكارى ، وليس محل الانكار هو مرض قلوبهم ومامعه ؛ فهم مرضى القلوب ولاشك ، وإنما محل الأنكار أن يكون هذا هو باعث الاعراض ، بل باعث الاعراض هو ظلمهم وتمسكهم بغير الحق .

وإنك لتعرف موقع البراعة فى أن يجمع الاسم الكريم إلى اسمه صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى : « وإذا دعوا الى الله ورسوله » وفى قوله : « أن يحيف الله عليهم ورسوله » ففيه من التنويه بشأن المصطفى صلى الله عليه وسلم مالايخفى ، فقد بين أن حكمه حكم الله ، وأن مايصدر منه فى حكم فهو صادر من الله ، فكيف يتصور أن يصدر منه حيف ؛ بل قد جىء بالآية على وجه يدل على استحالة مايخافونه ، على فرض أنهم يخافون ذلك ، فقد قيل : أم يخافون أن يحيف الله عليهم ، وكيف يعقل من الله حيف ؟ ! ثم عطف عليه لفظ رسوله كأنه ليفهم أنه لا يمكن الحيف من الرسول إلا إن أمكن الحيف من الله ، وهذا مستحيل قطعا ، والنبى لا يحكم إلا بما أمر به ربه ، وماينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى . فنسأل الله أن يجعلنا ممن تمسك بهداه لا ممن اتخذ إلهه هواه ، فأضله عن سبيل الله :

رب إن الهدى هداك وآيا تك نور تهدى بها من تشاء

شرح حال المخاصين في إجابة الدعوة الالهيـة والمراوغين فيها نفاقا

(إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون . ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون . وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن أمرتهم ليخرجن قل لا تقسموا طاعة معروفة إن الله خبير بما تعملون قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن تولوا فإنما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم وإن تطيعوه تهتدوا وما على الرسول إلا البلاغ المبين):

لقد رأيت كيف قص علينا جل شأنه فى الآيات السابقة حال المنافقين وذبذبتهم ، ومقالتهم المتقلبة مع أهوائهم ؛ وأنهم يدعون أنهم آمنوا بالله وبالرسول ، وأنهم أطاعوا ، ثم يتولون معرضين عن مقتضى حكم الايمان ؛ خارجين عن حكمه ، فهم وهذه حالهم ليسوا من من المؤمنين فى شىء . وزاد ذلك توضيحا بما يكشف القناع عن تلبيسهم ؛ ويفضح مكنون أستارهم ، إذ يتكشفون على حقيقتهم حين يدعون الى الله والى الرسول ليحكم بينهم ، فتراهم حينئذ : إن كان الحق بيد خصومهم أعرضوا عن حكم الله ورسوله علما منهم أنه لا يقضى إلا بالحق ، وإن يكن لهم الحق يأتوا اليه مذعنين .

هذه الحالة لا يصح أن تصدر عن صادق فى دعوى الايمان . هذه المقالة ليست شعار المخلص فيما يزعم من الطاعة والانقياد . هـذه

الذبذبة ليست صفة المستيقنين ، إنما هى صفة الكاذبين المنافقين ، الذين لا يرتادون إلا مصالحهم الشخصية مهما صادمت قضية الحق والعدالة . أما مايقابل هذه المقالة ، وذلك هو القول الثابت المطابق ظاهره لباطنه وهو قول سمعنا وأطعنا حين يدعون للحكم بينهم ، فانما هو قول المؤمنين وحدهم ، لاينتظر أن يصدر من تلك الفئات التى لاتعرف إلا أشخاصها ، ولاتقدر إلا مصلحتها ، وياليتها كانت تنظر الى صالحها بالنظر الصائب ! إذاً لعلمت أن صالحها الحقيق مرتبط بالصالح العام ، فهو المستقر الثابت الدائم : الكافل للسعادة العامة الشاملة المستقرة . ذلك هو النظام الدائم الذى يعرف الكل طريقه ، فيسلكونه ليصلوا الى ماينبغى أن يكون به عمار الكون . ذلك هو العدل الذى هو أساس الملك الذى يسند العمران ، ويكفل الطمأنينة والأمن بين الناس أجمعين .

اذا تأملت ماشرحناه لك فى مقارنة الآيتين إحداهما بالأخرى ، لتنظر اليهما نظرا واحدا ، عرفت السر فى نصب (قول المؤمنين) على أنه خبر كان ، والمصدر المأخوذ من قوله : « أن يقولوا سمعنا وأطعنا » اسم كان مؤخرا . وإن كان يجوز فى العربية أن يكون كل منهما خبرا لكان واسما لها ، فكل منهما معرفة . وقد قرئ فى غير القراءة المشهورة برفع (قول) على أنه اسم كان . وزعم بعض المفسرين أنه أقعد من جهة المعنى ، وذلك لعدم تنبههم لما شرحناه لك من أن الكلام فى الآية الأولى كان لبيان مقالة المنافقين العوجاء ، فحرىٌّ

بقارئها أن يتطلع الى المقالة التى تقابلها ، وهى المقالة الثابتة الصادقة ، وينتظر أن يعرف لمن تكون ، ومن ذا الذى يتحلى بها . فكانت الافادة بما يتطلع إليـه وتستشرف النفس لمعرفته ، وقيل فيها : هذه الكلمة القويمة الثابتة إنما هى قول المؤمنين ، لاينتظر أن يتحلى بها سواهم . وكأن تقديم الخبر على الاسم للمبادرة بالتنويه بحالها ، والتنبيه على شرف مقدارها ، بأنها حلية المؤمنين الصادقين .

ولا يفوتك أن تقييدالخبر وهو « قول المؤمنين » بقيد « إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم » محط قصد ، وهو يجعل الفائدة منتظرة أيما انتظار . أى أن هذا التفويض المطلق والاذعان بالسمع والطاعة بلا شرط ولا قيد هوشعار المؤمنين حين يدعون ليحكم بينهم . ولا تسأم من هذه الجملة النفيسة ، فقد دعانا إليها مارأيناه من حيرة بعض المفسرين فى الترجيح بين قراءةالنصب وهى المشهورة ، وبين قراءة الرفع . ولا يستطيع الناظر فى تفسير كلام الله — وهو أبلغ كلام — أن يتخلى عن النظر فى دقائق أسرار البلاغة العربية .

وقوله تعالى فى بيان مقالة المؤمنين « سمعنا وأطعنا » معناه : سمعنا دعوتـكم للتحاكم للرسول صلى الله عليه وسلم ، وأطعنا كم فيما تطلبون، أو سمعنا قولكم سماع انقياد، وأطعنا الرسول فيما حكم، أو سمعنا وأطعنا إطاعة ثابتة على كل حال، ليست متقلبة ولا معرضة للزوال، كما كانت طاعة أولئك الكاذبين المنافقين . وعلى كل حال : فالطرفان وإن اشتركا فى إظهار الطاعة ، فقد افترقا أيما افتراق فى تمحيصها ، فان الطاعة المقيدة بموافقه

هوى المطيع ليست من الطاعة فى شىء ، وإنما هى اختياره لما فيه حظ له، فلا بدع أن كانت غير جديرة بأن تسمى طاعة مطلقا . من أجل ذلك جاء قوله تعالى : « ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون » بعد بيان حال المؤمنين فيه لفظ (يطع) على إطلاقه ، لم يقيده بمثل طاعة صادقة ، أو طاعة صحيحة ، أو طاعة فى كل حال ، إشارة الى أن مازعموه طاعة ليس من الطاعة فى شىء ؛ وإنما هى تسمية كاذبة

ومعنى « من يطع الله ورسوله » أى يطع الله فيما كلف ؛ ورسوله فيما بيّن ، أو يطع الله فيما فرض ، ورسوله فيما سن . وعلى كل حال : من يطع الرسول فقد أطاع الله . وإنما نص عليه بالذكر تنويها بشرفه صلى الله عليه وسلم ، وتنبيها على أن طاعة الرسول مطلوبة للمرسل ، جل وعلا . وقوله : « ويخش الله » أى يخشى عذابه فيما مضى له من ذنوب ، ويتقه فيما يستقبل منها . وخشية عذابه فى الذنوب الماضية باعثة على الندم على مافرط منها ، وهى تستتبع اتقاءه فيما يستقبل ؛ وذلك من أركان التوبة : الندم على الماضى ، والعزم على عدم الوقوع فى الذنب فى المستقبل . ولذلك قال بعض المفسرين إن هذه الآية على إيجازها حاوية لما ينبغى أن يكون من المؤمنين ؛ طاعة الله ، وطاعة رسوله ، وخشية عذابه لما مضى ، واتقاؤه فيما يستقبل . وكيف لا وهى مستجمعة لامتثال الأوامر فى : يطع الله ورسوله ، واجتناب النواهى فى : يخشى الله ويتقه ؟ فما أحقها أن يرتب عليها الفوز بالآمال ، والظفر بالمطلوب !

فلذا قال جل شأنه : «فأولئك هم الفائزون » بهذا التعبير الدال على حصر الفوز فيمن هذه حاله .

ولقد قلنا مرارا : إن اختيار اسم الأشارة «أولئك» للتعبير في مثل هذه المواطن ليدل على أن المحدث عنه استحق هذا الحكم من أجل الصفات السابقة التي استحضرت مع موصوفها بالاشارة إليه . والفوز: النجاة والظفر بالخير ونيل المقصود . وقد قرىء يتقه بأسكان القاف ، وهي قراءة حفص . وكأن وجهها أن اللفظ وإن كان مركبا من الفعل والضمير الذي هو الهاء ، إلا أنه لاتصاله نزل منزلة الكلمة الواحدة . وهذا الوزن كثيرا مايسكن وسطه للتخفيف ، كلفظ كتف . وقرىء بكسر القاف على الأصل مع تسكين الهاء على أنها هاء السكت أو هاء الضمير ، ونزل الوصل منزلة الوقف . وقرىء بتحريك الهاء بأشباع الكسرة وعدم إشباعها .

قال تعالى : «وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن أمرتهم ليخرجن قل لاتقسموا ، طاعة معروفة ، إن الله خبير بما تعملون» :

عود على بدء ، وحكاية لحال من أحوال المنافقين ، زيادة في فضح حالهم ، وكشفا لمستور قناعهم ، وتفظيعا لشنيع أعمالهم ، حتى يكمل النفور من تقليدهم ، والسير على معوج خططهم . وكثيرا مانرى في القرآن الكريم عند الكلام على المنافقين أن يفيض القول في شرح سوءاتهم ، وتقليب الأساليب الفاضحة لهم . وما أجدر من يزعم أنه يخدع الله ورسوله والمؤمنين بأن يكشف حاله وتعلن مخازيه : والقسم : اليمين.

وأصله خاص بيمين القسامة ؛ وهى اليمين التى توجه إلى القبيلة فى نفى تهمة القتل عن أحدهم ، فيقتسمونها له ، ثم غلب استعماله فى مطلق اليمين . وقوله : « جهدأيمانهم » أى أقصاه ومنتهاه ، كأنه جهد يمينه ، أى بلغ أقصاه . وهو منصوب على الحال ، أى جاهدين أيمانهم ، أو على أنه مصدر لفعل محذوف ، أى يجهدون أيمانهم جهدا .

وقوله : « لئن أمرتهم ليخرجن » جواب القسم ، على أنه حكاية لما كان منهم لا حكاية لمقالتهم ، وإلا كان مقتضى الظاهر : لئن أمرتنا لنخرجن . ومعنى أمرتهم ، أى بالخروج ، كما يدل عليه الجواب ، وهو ليخرجن . ومعنى الخروج إما للجهاد ، أو الخروج عن أموالهم وما يمتلكون

وقوله تعالى : « قل لا تقسموا » ردعليهم ، وتبكيت لهم ، وكشف لخداعهم . ومعناه : أنكم تقسمون لتثبتوا دعواكم فى نفوسنا ، ولكن ذلك لا يفيدكم شيئا ، فطاعتكم طاعة معروفة ، هى طاعة لا تتجاوز اللسان والشفتين ، ولا يخفى من أمركم من شىء ، فيكون طاعة معروفة خبر مبتدأ محذوف أى فطاعتكم معروفة حقيقتها ، أو فالطاعة فى حقيقتها أمر معروف ، وليس مما يثبته أو ينفيه دعوى اللسان ، وإنما هى آثار ظاهرة لا يحتاج من اتصف بها إلى ادعائها ، ولا يغنى عمن حرمها أن يدعيها ويقسم عليها . فتكون « طاعة » مبتدأ ، وجاز الابتداء به لأن المقصود حقيقة الطاعة وماهيتها ، لا فرد منها الذى هو محل إبهام يمنع من صحة الابتداء بالنكرة . أو فالمطلوب منكم طاعة معروفة بينة لا تلك المراوغة .

ولعل الأظهر الوجه الأول ، وهو أن التقدير : فطاعتكم طاعة معروفة ، أى بأنها اسمية لافعلية . ويشهد له إردافها بقوله تعالى : « إن الله خبير بما تعملون » أى فقد كشف الله ستركم ، وهو لايخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، فكيف تحدثكم أنفسكم أن يخفيه عن نبيه الذى يوحى اليه مافيه الهداية والارشاد ؟

يقول تعالى بعد ذلك خطابا للنبيه صلى الله عليه وسلم : « قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول » أى قل لهم : لقد كشف حالكم ، وتبين أمركم ، ولايغنيكم محالكم ، فخير لكم أن تعرضوا عن هذا السبيل الملتوى الذى لايفيدكم ، وأن تطيعوا الله وتطيعوا الرسول فيما يأمركم وينهاكم . هذا هو سبيل النجاة لكم . فالمقول لهم فى قوله : « قل لاتقسموا طاعة معروفة » فضح وتوبيخ وتبكيت . والمقول لهم فى « قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول » إرشاد وتعليم . فالكلامان نوعان مختلفان . ونظير هذا فى متعارف الناس : كثير . يعمد المرء مع مخاطبه حتى يكشف دخائله ، ويبين تغريره : ثم يقول له : لالا ، ليس هذا هو الطريق ، يجب أن تعمل كيت وكيت ، ويرى نفسه قد انتقل من فن فى القول الى فن آخر . وهذا هو السر فى تكرير لفظ (قل) مع (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول) وعدم الاكتفاء بتسليط قل على لاتقسموا وعلى أطيعوا .

وبعد : فلعلك تشعر بالروعة العظيمة فى ذلك الأمر الجازم الحازم يلقى عليه بأيجاز ، فكأنه قيل له عليه السلام : قل لهم هذه الكلمة ، وأمرهم هذا الأمر وكفى ، ولاعليك بعد فيما يكون منهم . وإن هذا

ليشعر بالعظمة والرهبة ، تملك الأمور وتأخذ عليه نواحيه . وقوله بعد ذلك . « فان تولوا » الخ ، يحمل من مكملات الرهبة والتحذير ما يحمل . ثم إن إعادة لفظ أطيعوا مع جانب الرسول يفيد أن طاعة الرسول مأمور بها بعناية مستقلة ، وذلك من بواعث الامتثال ، إذ كانت طاعته عليه السلام قد أمر بها الله ، فيصدق : من يطع الرسول فقد أطاع الله .

وقوله تعالى : « فان تولوا فانما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم » تولوا ، أى تعرضوا . وأصله تتولوا ، فهو خطاب لهم بعد خطابه صلى الله عليه وسلم . وتغيير الأسلوب بالالتفات كأن فيه إشارة الى أنه قد أمر فامتثل وقيل له : قل لهم : أطيعوا فقال لكم ، إذ شأنه أنه متى أمر بادر بالامتثال ، صلى الله عليه وسلم ، وليس كشأنكم يحتاج الى التكرير والتحذير ، ويوجه اليه التخويف ، ليقلع عن التسويف ، لا ، بل متى قيل له : قل ، فقد قال حتما فيبقى الكلام معكم أنتم ، فان تعرضوا عما أمركم وتتولوا عنه ، فما ذلك بضاره شيئا ، فانما عليه ما حمل وقد أداه ، وعليكم ما حملتم ، فانظروا لأنفسكم ، وأنقذوا أنفسكم من الضلال الذى يرديكم ، والحيرة التى توقعكم فى التهلكة ، ولا عذر لكم فيما تنكصون ، فقد بين لكم طريق الرشاد والهدى ، وذلك فى طاعته واتباع أمره ، وذلك قوله عز وجل : « وإن تطيعوه تهتدوا » فهو ترغيب بعد ترهيب . وفى ذلك من سوقهم الى ما فيه سعادتهم ما فيه ، فقد دفعوا بالرهبة ، وجذبوا بالرغبة . وذلك هو الأسلوب الحكيم : تملأ قلب الجانح المغتر رعبا مما هو فيه ، حتى إذا

أخذت عليه الجوانب وتنفت يمينا وشمالا ، فتحت له طريق الخلاص ، مرغبا له فيه ، فينساق اليه طوعا أو كرها .

وقوله عز وجل : « وما على الرسول إلا البلاغ المبين » معناه : فلن يضره تأخركم عن إجابته ، ولا يحيق سوء عملكم إلا بكم . وأما هو فما بعثناه عليكم وكيلا ، ولا يتضرر من قبلكم فتيلا « فلا تذهب نفسك عليهم حسرات » .

فالقصر ليس معناه أنه طولب بالبلاغ ويتركهم بعد ذلك فلا يعالجهم بوسائل العلاج الناجعة ، بل معناه أن ضرر معصيتهم حائق بهم وحدهم ، ولا يضره ضلال من ضل متى قام بما طلب منه ، فهى كقوله : « فانما عليه ما حمل » وهذا محمل الآيات التى من هذا القبيل ؛ مثل قوله : « وما أرسلناك عليهم وكيلا » . « ما على الرسول إلا البلاغ . » « فانما عليك البلاغ وعلينا الحساب » وغير ذالك كثير . فمن فهم منها أن وظيفة الرسول مجرد التبليغ ، وليس منها أخذ الناس بصنوف التربية اللائقة بمقتضى الحكمة من شدة ولين وغيرهما ، وكل من ذلك فى موضعه ، فقد جهل .

وبعد : فلعلك ترجع الى الآية الكريمة متأملا متدبرا ، لتشهد مااحتوته من معالجة النفاق ، وهو من أشد أمراض النفوس استعصاء وأعظمها على المجتمع الانسانى خطرا ، فترى كيف بدأ بتحليل نفسيتهم ، والتعجب مما يجول فى خواطرهم ، بعد ما بزغت شمس الهداية ، ووضحت أنوار الآيات البينات التى أنزلها الله على عباده ، ثم أطلعهم وأطلع المؤمنين على حركات نفوسهم متتبعا لها على وجه يساير الخواطر

التى تعتريهم ، حتى يخزوا مما اقترفوا ؛ وحتى يأخـذوا من ذلك برهانا قاطعا على أنه تعالى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور . ثم لم يدعهم عنـد تشخيص المرض ، بل أردفه بالدواء ؛ يحثهم على التزود منـه والاستشفاء به ، واعدالهم بالهداية متى سلـكوا طريقه ، مزيحا عنهم ماقـد يهجس بنفوسهم من أن للأمر مصلحة ذاتية تعود عليه منهم ؛ فتدفعه إلى الالحاح عليهم فى أن يهتدوا ويرشدوا ؛ اللهم الاماوعد الله به من كان سببا فى الهداية وتوصيل الرحمة الالهية لأحـد من العالمين ، كما جاء فى الخبر « لأن يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم » .

نسأل الله تعالى أن يلهمنا الهداية والرشاد ، وأن يوفقنا لطريق الخير والسداد ؛ إنه سميع مجيب .

ـد الله
منـــين
خلافهم
لارض
تكين لهم

(وعـد الله الذين آمنوا منـكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ، يعبدوننى لايشركون بى شيئا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون . وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون . لاتحسبن الذين كفروا معجزين فى الأرض ومأواهم النار ولبئس المصير) :

لقد أرسلت الآى السابقة على المنافقين تلك الصيحة الهائلة التى أزعجتهم ، وهتكت سرائرهم ، وفضحت ضمائرهم ، وألقمتهم الحجارة ، فلم يستطيعوا أن يدافعوا عن أنفسهم ، وأقامت فى وجوههم الحجة على نفاقهم ، مأخوذة من قبيح أعمالهم ، فلم يبق إلا أن يؤمن المؤمنون على نقاء ، وأن ينسحب المنافقون عن حظيرة الايمان مكشوفين مفضوحين . ولما حاولوا ستر فضائحهم بالقسم على الطاعة رد عليهم بهذا الرد الشديد ، فأمر صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم : « لاتقسموا طاعة معروفة » إلى آخر الآية.

ولما كان مثل هذا من شأنه أن يدعو إلى التفكير ، لاسيما عند قوم هم فى دور البناء والتكوين ، يهمهم أن يكثر سوادهم ، وتتمكن قوتهم ويزداد الاقبال على مايدعون اليه من هدى الله ودين الحق ، ومن حولهم العرب والأمم تناوئهم وتناصبهم العداء ، فهم بحاجة إلى أن يزدادوا وينضم اليهم غيرهم ، وليس من السهل عليهم أن ينتقصوا وينفصل منهم من انضم اليهم ، فلعل خاطرا يهجس فى بعض النفوس قائلا : « لعل الحكمة كانت فى أن يبقى أمر أولئك مستورا ، فربما كان فى انضمامهم تقوية لعامل القوة وتكثير لسواد الأمة » فجاءت هذه الآية الكريمة مطمئنة لقلوب المؤمنين ، مسكنة لروعهم ، تزف اليهم البشرى السارة التى تقر أعينهم ، وتشد أزرهم ، وتثبت عزائمهم ، ذلك وعد الله بنصره للمؤمنين ، بل باستخلافهم فى الأرض ، وتمكين دينهم بتثبيت قواعده ورسوخ بنيانه ، إذ يقول جل شأنه : « وعد الله

الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض : الخ . ووعد الله ناجز لامحالة ، وقد ناطه بالايمان وعمل الصالحات . وقد حقق الله وعده ، فاستخلفهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، ومكن لهم دينهم ، وبدلهم من بعد خوفهم أمنا .

ولايزال هذا شأن من آمن وقام بحق إيمانه ، وعمل الصالحات التى أمر الله عباده أن يقوموا بها ، فأقام العدل ، وضبط النظام ، ونشر الأمن ، وأخذ الحيطة وإعداد القوة كما أمر الله سبحانه وتعالى .

والتمكين للدين تثبيت قواعده ، وإعزاز جانبه ، ليترتب على ذلك ثباته واستقراره ، وعدم زعزعته بقيام حجة ضده ، أووهن البراهين المؤيدة له ، وكأنه من التمكن فى المكان ، أى الاستقرار فيه ، والسلامة من الزعزعة . وفى إضافة الدين لضميرهم تربية لوجه الامتنان عليهم . كما أن فى وصفه بالذى ارتضى لهم تنويها بشأنه وإعلاء لقدره . وقوله : « وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا » فيه طمأنة للمؤمنين واقتلاع لجراثيم الخوف من أفئدتهم ، ذلك الخوف الذى يلم عادة بقلوب الفئة القليلة إذا تألب عليها أعداؤها الكثيرو العدد ، الشديدو البأس والطول . وكان مايساور بعضهم من الخوف الشديد يدعوهم الى الحرص على تكثير سوادهم ، بالاغماض عما يصدر من بعضهم ، وإن كان كاشفا عن سوء النية ، وفساد الطوية ، ليؤمن جانب أولئك المتحرفين بعض الأمن بكونهم فى صفهم ولو بحسب الظاهر ، فجاءت الآية لتثبيتهم

وتقوية نفوسهم : وطمأنينتهم على أن الفوز مضمون لهم ، وأن النصر قريب منهم ، وأن هذه المخاوف ستستبدل بالأمن .

ثم ذيل الآية بما يقرر هـذا الوعد ويثبته فى النفس أبلغ تثبيت فقال عز من قائل : « يعبدنى لايشركون بى شيئا » . وفى هذا الأسلوب البليغ مايشير الى أن ماوعـد به المؤمنون من استخلافهم ، وإعزازهم فى الأرض ، وتمـكين دينهم ، وحياطتهم بالأمن الشامل ، إنما كان جزاء إخلاصهم لله فى العبادة ، وأنهم يعبدونه لايشركون به شيئا . ولاشك أن من عبادته امتثال ماأمر به والعمل بما أرشد اليه فى شئون الدنيا والآخرة

أما قوله جل شأنه بعـد هذا : « ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون » فهى لترتيب حكم يلمحه العقل من سابق الـكلام ، أى سيكون الأمر على ماذكرنا من إعزاز المسلمين ، والتمـكين للدين وتأمين الخائفـين ، وحينئذ تنقطع معاذير الضعفاء المترددين ، ويسد باب التضليل فى وجوه أولئك الشياطين ، فلا يكفر بعد هذه المظاهر التى أيد الله بها عباده إلامن فسق عن أمر ربه ، وخرج عن حظيرة الهداية ، وصار كأنه وراء دائرة التخاطب المعقول

وأصل الفسق الخروج عن الدائرة المحدودة المعروفة اللائقة . يقال : فسقت الرطبة ، أى خرجت عن قشرتها التى كانت تحتويها وتحفظها . واستعمال الفسق فى العصيان الذى لم يصل الى درجة الـكفر استعمال عرفى غير المعنى اللغوى الأصلى المرادهنا .

وقوله : « بعد ذلك » لتقوية الاستبعاد ؛ أى أن الكفر مع وضوح آيات الهدى لا ينبغى أن يصدر إلا ممن هو عدو لنفسه ؛ فما بالك وقد تأيدت تلك الآيات بأن صدق الله وعده ، ونصر عبده ، وأعز دينه ، وأعلى كلمة أوليائه ، أفينتظر كفر بعد هذا الذى صورناه لك ؟

هذا وإنك لتجد فى ترتيب استخلاف الله لهم وتمكين دينهم وتبديل خوفهم أمنا على الايمان وعمل الصالحات ، وذلك أمر جامع لامتثال أوامر الله فيما يتعلق بالدين والدنيا جميعا ، ردا على من يرى فى حال المسلمين اليوم حجة على دينهم ، وقد زاد ذلك وضوحا فى قوله تعالى : «ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون» أى فالذنب ذنبهم فى خروجهم عن دائرة الهدى التى رسمت لهم ، وليس العيب فى تعاليم دينهم .

ثم قال تعالى « وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون ».

يجرى مثل هذا الأسلوب فى القرآن الكريم كثيرا ، فبعد أن يستوفى أمر الرد على الكافرين ؛ وبعد أن تقام الحجة فى وجه المعاندين ، ويفضح جليا أمر المنافقين المخادعين ، وتبلغ الحجة غايتها وتستكمل نصابها ، يعود الى أهم مايوجه اليه اهتمام المؤمنين ، فيأمرهم بأقامة الصلاة التى هى عماد الدين . وذلك كما يجرى فى التخاطب المتعارف ، فانك تجد هذا الأسلوب كثيرا ماتنساق اليه العقول ، إذ يفيض المتكلم فى بيان حجته وتقرير دعواه ، حتى يبلغ القصد منها ، ويصبح ولاحاجة

له في المزيد على ماقرر بشأنها ، فيقول لمخاطبه : ولنعد الى أهم مايعنينا : إنه يجب أن نعمل مافيه مصلحتنا ، ونعرض عن الاهتمام بأولئك بعد مابلغنا منهم ماأردنا . فلنعمل لصالحنا ولنقوم شئوننا

والصلاة عماد الدين ، فمن أقامها فقد أقام الدين ، ومن أضاعها فهو لماسواها أضيع . وحسبك في شأنها قوله تعالى : « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » .

ولا يهولنك وقوع بعض المنكرات من بعض المصلين ، فما كان عملهم إلا صورة صلاة خالية عن مخها ، وهو الخشوع ، وكمال الاستحضار . فما أجدر أمثال هؤلاء بالدخول في قوله تعالى : « فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون . الذين هم يراءون ويمنعون الماعون » !

والزكاة تكاد تلازم في القرآن ذكر الصلاة ، وذلك لأن فيهامن كمال الفائدة العائدة على جماعة المسلمين مايقوى الأواصر ، ويصفى الضمائر ، ويزيل الشحناء ، ويؤكد التراحم والتعاطف . والزكاة هي المخبار الذى نختبر به من كانت صلاته صلاة حقيقة ومن كانت صلاته مجرد حركات وسكنات

أما قوله تعالى : « وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون » فهو تعميم لكل الأحكام التى جاء بها المصطفى عليه الصلاة السلام . ومن جهة أخرى تنصيص على ماسيق الكلام السابق لتقريره ، وهو طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم فيما تحبه النفس وفيما تكرهه ، بل أن تجعل النفس هواها تبعا لما أمر به صلى الله عليه وسلم ، ولفظ لعل في القرآن الكريم يفيد

التعليل المصحوب بالرجاء فى جانب المؤمنين . وحاصل معناها : أدوا ما أمرتم به ، فانه أرجى للرحمة ، وأدنى الى انتظارها وإحرازها : والتعليل به غير التعليل باللام وكى ونحوها؛ فان ذلك فيما يكون فيه الارتباط بين العلة والمعلول مطردا البتة ؛ وأما لعل وعسى فهو تعليل يتصل به أشياء لابد من توافرها : كأخلاص النية ومزيد التوفيق ، والقبول عند الله عز وجل.

وقوله تعالى : « لاتحسبن الذين كفروا معجزين فى الأرض » يفيد رفع ماعسى أن يلحق ببعض النفوس من استبعاد تحقق الوعد السابق ، فكأنهم لما وعدوا بهذه العدة العظمى ، وهى أن يستخلفوا فى الأرض ببسط السلطان ، وأن يمكن لهم فى الدين بالاعزاز وقيام البرهان ، وأن تزول عنهم المخاوف ويعمهم الأمن والأمان ، وكانت هذه المنن بحيث تتطلع النفوس شوقا اليها ، وتتلهف حرصا عليها ، والعادة أن يدركها مع عظم التشوف شيء من الهواجس والترقب . وقد قيل : « إن الحريص بسوء ظن مولع » ولاسيما مع ملاحظة ما كان فيه الكافرون من كثرة وقوة وسعة ، أزيلت عنهم تلك المخاوف ، وسد فى وجهها كل طريق .

فالآية السابقة بددت المخاوف من ناحيتهم هم : وذلك فى قوله تعالى : « يعبدوننى لايشركون بى شيئا » أما هذه الآية ففيها تبديد لمخاوف المؤمنين من ناحية أنه تعالى واسع القدرة ، أى فاذا كنت أنا المهيمن على جميع الأشياء ، القادر الذى لايعجزه شيء فى الأرض ولا فى السماء ، واهب القوى والقدر ، المعز المذل ، وكان هؤلاء قد وقفوا لمبادئ

لايشركون بى شيئا ؛ بينما أعداؤهم قد اتبعوا الشياطين فضلوا عن سبيل العبادة ، أفلا يكون حقا أن أنصر عبادى على أعدائى ؟

فنى هذه الآية إزاحة للاستبعاد الناشىء من استعظام شأن أولئك الأعداء ، فكانت النفوس تنظر الى ماهم فيه من كثرة عدد ، واستيفاء عدد ، فجاءت الآية مزيلة لهذا الهاجس ، فقال جل من قائل : « لاتحسبن الذين كفروا معجزين فى الأرض » أى لاتغفلوا عن حالهم الحقيقية ، وأنهم لاقدرة لهم من ذاتهم ؛ وكل ماهم فيه فانما هو إمداد منا ، وهم فى كل حال فى قبضة قدرتنا ، فلايحسبن حاسب أنهم يعجزوننا أويخرجون عن قدرتنا . فالخطاب فى لاتحسبن لمن يتأتى منه الحسبان .

ومعنى الاعجاز : الفوت عن أن تلحق بهم قدرته تعالى ، والهرب من وصول أثرها اليهم . وقوله : « فى الأرض » تنبيه للأذهان الى مايقتلع جذور ذلك الحسبان . أى فأين يعجزوننا وهم مهما ذهبوا فى الأرض فهم فى دائرة سلطاننا ؟ فأين يذهبون ، وكيف يغلبون ؟ ولاشك أن من التفت الى هذا فقد اقتلع من نفسه كل جذور الاستبعاد . فالغرض من قوله ، فى الأرض ، سد جميع المسالك أى لاتحسبنهم فائتين قدرتنا وإن هربوا كل مهرب .

وقوله تعالى : « ومأواهم النار » وعيد لهم بالعذاب فى الآخرة ، بعد وعيدهم بالأهلاك فى الدنيا ، فان الآية الأولى وإن كانت نهيا عن الحسبان فهى دالة دلالة ظاهرة على الاخبار بأنهم هالكون لامحالة .

فكأنه قيل : لاتحسبنهم يعجزوننا ، بل هم ألبتة واقعون فى قبضتنا ، ذائقون فى هذه الحياة من النكال منا ، ومأواهم فى الحياة الأخرى النار. وقوله : «ولبئس المصير» تذييل لسابق الكلام ، متضمن معنى راحة المسلمين من ناحيتهم ، فان مثل هذه الجملة إنما تقال لمن ذهبت ريحه ؛ واستراحت النفوس منه الى النهاية .

وإنك حين تتأمل تنويع الافادة فى النظم الكريم ، وإيفاء كل مقام حقه على أبلغ وجه ، ثم تنقل الافادة من مهم الى مهم ، تجد الهداية قد تجلت فى كل ناحية من نواحيه ، والنور يشرق من جميع جوانبه ، فاللهم اهدنا بنوره ، وأحى نفوسنا بهدايته ، إنك سميع مجيب !

من آداب المخالطة فى عشرة الاسرة

(يأيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات : من قبل صلاة الفجر ، وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة . ومن بعد صلاة العشاء ؛ ثلاث عورات لكم ، ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن ، طوافون عليكم بعضكم على بعض ، كذلك يبين الله لكم الآيات ، والله عليم حكيم . وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم ، كذلك يبين الله لكم آياته ، والله عليم حكيم . والقواعد من النساء اللاتى لا يرجون نكاحا فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة ؛ وأن يستعففن خير لهن ، والله سميع عليم) :

يكون مع المرء عادة فى داره فئة ممن تربطهم به رابطة المعيشة ، كأعضاء أسرته وخدمه ومماليكه ، ومثل هؤلاء تقضى شئون الحياة أن يختلط بعضهم ببعض اختلاطا متكررا ، فلا يتحاشى بعضهم أن يدخل على بعض فى خلوته ، ولا يلتفت الى استئذان فى كل مرة يريد أن يتصل فيها برفيقه فى المعيشة .

ولقد بينت لنا الآيات السابقة حكم دخول المرء على بيت غير بيته ، وشرع الاستئناس والاستئذان ، والسلام على أهل البيت ، وانتظار مايكون منهم من الأمر بالدخول أو الأمر بالرجوع ، وأن كلا منهما مقبول وحق مطلوب الامتثال ، وأزالت ما في ذلك من غضاضة على النفس بأنه حق كما يطلب من المرء مع غيره يطلب من غيره معه .

وهذه الآية جاءت مقررة لحكم الجماعة تجمعهم دار واحدة ، لاتصالهم في شئون الحياة على ماسبق ، ومامن امرىء إلا وله شئون خاصة يكره أن يطلع عليها غيره ، فهو في خلوته يطرح الاحتشام ، ويتبسط في شئونه الشخصية ، فلا يبالي أ كشف شيء من جسمه ، ولا يبالي أن يضطجع أو يستلقي حسبما يجد راحته ، فهو في حل مادام في خلوته ، ولكن الحياء والاحتشام ولو مع الخادم والمملوك ، بل مع الابن المميز والبنت ، كذلك لهما حكم وأثر في النفس لايجهله من أعطى قسطا من الحياء والاحتشام ، فاحتاج الأمر الى دستور واضح ومنهاج بيّن ، يحدد لنا مايكفل للمرء راحته ، ويضمن له احترام خلوته ، ويزيل الحرج والمضايقة بين أفراد الأسرة المربوطة بمعيشة واحدة ، ذاك هو ماتضمنته هذه الآية الكريمة .

وقد روى في سبب نزولها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسل غلاما من الأنصار الى عمر رضي الله عنه في وقت قيلولته ، فدقّ الباب ، ودخل بلا استئذان ، وكان عمر نائما ، فكأن شيئا كشف من جسده فكره ذلك . وقال : لوددت أن الله نهى آباءنا ، وأبناءنا ، وخدمنا عن

الدخول علينا فى هذه الأوقات بلا إذن ! ثم توجّه معه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوجدهذه الآية قد نزلت ، فخر ساجدا . وهذه إحدى موافقات عمر رضى الله عنه للوحي ، ويتبين بها وبأمثالها سر نزول القرآن منجما حسب الحوادث ، فانه بذلك تتجلى الحكمة فى التشريع ، فيقوى العون على الامتثال .

قال تعالى : « يأيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم » :

تتأمل فى أسلوب الآية الكريمة فتجد الخطاب وجّه فيها للذين آمنوا ، ثم وجه الأمر بعد ذلك للمملوكين والذين لم يبلغوا الحلم فى قوله : ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم ، فان اللام فيه لام الأمر ، والأمر إذا وجه إلى غير المخاطب يؤتى مع الفعل باللام . وسرّ ذلك أن هذا الحكم مما يشترك فيه كلا الطرفين ، وثمرته عائدة على السادة والكمّل البالغين ، ومن أجلهم شرع ، وهم المهيمنون على المماليك والصغار ، فعهد اليهم أن يقوموا بتعليمهم وإرشادهم ، وأن يتتبعوا امتثالهم ،ويتعهدوهم فى القيام بما كُلّفوه إذ كان ذلك حقا لهم ، ومعهوداً به اليهم . ويجوز أن يكون المقصود أمر الأولياء والسادة أن يأمروهم ، وإن كان فى الظاهر قد وجه الى المماليك والغلمان ، وذلك لأن الذين لم يبلغوا الحلم لا يتوجه اليهم التكليف ، فيكون ذلك كقوله صلى الله عليه وسلم : « مروا أولادكم بالصلاة لسبع سنين ، واضربوهم عليها لعشر »

وعلى الجملة فالمطلوب منه الاستئذان هو المملوك والصبي . وكون الصبي غير مكلف لا يمنع أن وليه يعوده على ما يطلب منه من الآداب والحقوق .

وقوله تعالى : « ثلاث مرات » أى فى ثلاثة أوقات فى اليوم ، هى مافصلت بعد فى قوله تعالى : « من قبل صلاة الفجر ، وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ، ومن بعد صلاة العشاء » . هى تلك الأوقات التى يحتاج المرء أن يستريح فيها ، ويخلص من الكلف ومراعاة الواجبات نحو الغير . هى الأوقات التى يحلو للمرء فيها أن يطرح الاحتشام ، ويملك فى نفسه حرية التصرف ، فيختار الوضع الذى يروقه ، والهيئة التى توافقه ، وهو آمن من اطلاع غيره عليه مهما كان ذلك الغير . ومامنا إلا من يشعر بأن لابدّ للمرء من وقت يتمتع فيه بالحرية الكاملة . وأى وقت هو أحوج فيه من هذه الأوقات الثلاثة ؟ وقت ماقبل صلاة الفجر حين يستيقظ من نومه ويهب من فراشه فيخلع ثوبا ويلبس ثوبا ، ولعله بحاجة الى تدليك بدنه أو إلانة أعضائه ، ولكل امرىء عادته الخاصة به ، ومن بعد صلاة العشاء حيث يكون قد فرغ من عمله ، وانتهى من عبادته ، وركنت نفسه إلى أن يأوى لفراشه ، فهو يخلع ثياب اليقظة ويلبس ثياب النوم ، وربما كان يميل الى الأنس بأهله ، فلا منغص له فى هذه الحالة أكثر من أن يفجأ بدخيل داخل عليه مهما صغر سنه ، أو قوى اتصاله به ، متى كان عنده عقل وتمييز . ولم يتعرض لحكم مابين الوقتين لندرة

الدخول حينئذ . وتلمح من هذين الوقتين أدباً فى تعجيل النوم بعد صلاة العشاء ، وتبكير اليقظة قبل صلاة الفجر ؛ فذلك أعون على انتظام الصحة ، وأبعد عما يجره السمر من المنكرات ، أوتنبيه النفس الى فاسد الشهوات ؛ ولا يعين على التبكير باليقظة إلاالتعجيل بالنوم أول الليل ، ولقد قال قائل : شباب النوم فى شباب الليل . وإن شئت فانظر الى أولئك الذين جعلوا السهر والسمر ديدنالهم وعادة ، تجدصحتهم غالبافى اعتلال واختلال .

وقوله تعالى : «وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة » هو الوقت الثالث ، وهو ليس محدودا فى ذاته تحديداتاما ، فرب امرىء دعاه عمله الى تعجل القيلولة ، وآخر يرى صالحه فى تأخيرها ، وقد يستغنى عنها بالمرة . فلذانيط الحكم فيها بقوله: «وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة» ولم ينط بنفس الوقت كما فى الموضعين الأولين . والظهيرة : هى وقت الظهر ، أووقت اشتداد الحر فيه . وقوله تعالى : « ثلاث عورات لكم » بيان لحكمة التشريع ، حتى يدعوهم ذلك الى العناية بالامتثال ، وتتربى فى نفوسهم ملكة الاقتناع بالأحكام ، بل الاغتباط بها ، واعتقاد أنها شرعت لمصلحتهم ، ورحمة بهم . والعورات : جمع عورة ، وهى فى الأصل من العار وهو العيب ، سمى به كل مايكره الانسان أن يطلع عليه غيره ويسوءه كشفه ، ومنه عورة المكان لما اختل منه . وقد قرىء : ثلاثُ عورات ، بالرفع خبر لمحذوف ، أى هى ثلاث عورات لكم ، وبالنصب على أنها بدل من ثلاث مرات .

قال تعالى : « ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن » : بيّن نفى الحرج فى اللقيا فيما عدا هذه الأوقات ، فان المرء اذا كان فى داره حيث لم يلتزم مكان خلوته الخاصة ، لا يسوءه أن يلقاه أحد من أهل بيته بلا استئذان . وفى تكليف أعضاء الأسرة الواحدة ومن فى حكمهم الاستئذان فى كل مقابلة حرج ومشقة لا تحتمل . وهذا غير ماسبق من النهى عن دخول البيوت على أى حال إلا بعد الاستئذان ، فذاك فى حق الأجانب . والجناح : الحرج والاثم . وقوله تعالى : ولا عليهم، ظاهر فى المماليك ، أما الصغار الذين لم يبلغوا الحلم فليسوا عرضة للجناح شرعا حتى ينفى ، فانهم غير مكلفين ، إلا أن الآية سيقت مساق إظهار الجميع فى صورة المخاطبين كلهم بحكم واحد متكافلين فيه ، بعضهم على بعض رقيب ، فمن أخل بشىء منه فعلى الآخر إرشاده وتعليمه وتأديبه وتهذيبه . وفى نفى الجناح عن الصغير فى غير هذه الأوقات عون على تربيته على التزام الأحكام ، بافهامه أنه على شرف أن يكون واقعا فى الحرج . على أن باب التغليب فى مثل هذا باب واسع .

وقوله : « طوافون عليكم » أى هم طوافون عليكم ، بيان لوجه الترخيص باللقيا بلا استئذان فيما عدا تلك الأوقات ، كما بيّن سر النهى بقوله : « ثلاث عورات لكم » ومعنى « طوافون عليكم » أنهم بصدد مخالطتكم ، والمداخلة معكم فى شئون الحياة . وأصل الطواف : الدوران حول الشىء استعمل فى كثرة التردد والمقابلة للخدمة ونحوها . وقوله بعضكم على بعض ، زيادة

فى بيان ماتدعو اليه الحالة مؤكد لحكمة نفى الحرج عنهم، أى أن كلا منكم لا يستغنى عن مخالطة صاحبه ، فهم طوافون عليكم وأنتم طوافون عليهم على المعنى المتقدم ، فكأن فى قوله : « بعضكم على بعض » تسلية للماليك والخدم، بأن المعاونة فى الحياة أمر مشترك بينهم جميعا

« كذلك يبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم » : يأتى لفظ كذلك فى القرآن على هذا الوجه كثيرا ، وفائدته أنه بعد أن يبين الحكم أو الآية أو القصة أو نحو ذلك بيانا شافيا يملأ القلب روعة وجلالا ، ينبه السامع والقارىء الى أن هذه هى العادة الالهية معكم ، وأن مثل هذا البيان الذى ملك قلوبكم يكون دائما تبيين آيات الله التى تتلى عليكم، فهو دائما على وجه يملأ النفوس اقتناعا ،والقلوب غبطة وابتهاجا . « والله عليم حكيم » أى شامل العلم بكل مايصلح ، وبما كان ويكون، يضع لكم من الأحكام ما يناسبكم ، ويكفل لكم سعادتكم .

قال تعالى : « وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم ، كذلك يبين الله لكم آياته والله عليم حكيم » :

هذا لبيان أن حكم الأطفال الذين لم يبلغوا الحلم منكم ، من السماح لهم بمخالطتكم ، والدخول عليكم بدون استئذان فيما عدا الأوقات الثلاثة المبينة ، إنما هو ماداموا صغارا لم يبلغوا الحلم، فاذا مابلغوا الحلم انسحب عليهم الحكم الذى بُيّن فى غيرهم فى قوله تعالى : « لاتدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا » . وهذا لاقتلاع ماقد يراه بعضهم من أن هذا وإن بلغ فهو معتاد الدخول والمخالطة فلا حرج فى ترداده على سابق عادته ،

وذلك كما تراه كثيرا فى أسر محتشمة ، إذ يتسامحون مع رجال بلغوا حـد الرجولة أن يترددوا عليهم ، بحجة أن هذا معتاد من صغره أن يتردد ويرى كل من فى البيت ، فجاءت الآية لاقتلاع هذا الوهم ، وتبيين الحكم صراحة فى شأنهم . وكان التعبير فى هذا الموضع بقوله : «آياته» ليحملهم على الخضوع لأمره تعالى وإن خالف ما كانوا يزعمون ، فهو أعلم بما فيه مصلحتهم . وأما فى الموضـع الأول فان نفوسهم منساقة الى ما بيّن لهم ، فـكانت آية بينة فى ذاتها على الاطلاق .

قال الله تعالى : « والقواعد من النساء التى لا يرجون نـكاحا فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة ، وأن يستعففن خير لهن والله سميع عليم».

القواعد : العجائز . سمّين قواعد لأنهن لـكبرهن أغلب أحوالهن القعود ، أو لأنهن يلزمن البيوت غالبا ، كل قيل به فى وجه تسميتهن قواعد . وقوله : «اللاتى لا يرجون نكاحا» ، أى لا يطمعن فيه لـكبرهن ويأسهن من أن يتطلع اليهن ، وهو وصف كاشف لمعنى القواعد ، وممهد للحكم بعده ، وهو نفى الجناح عليهن فى وضع ثيابهن ، والمراد بها الثياب التى لا يفضى خلعها إلى كشف العورة ، مثل القناع ، والجلباب السابغ الضافى كما يفيده قوله : غـير متبرجات بزينة . والتـــبرج : الظهور والتـكشف ، خص بتـكشف النساء عمدا ليراهن الرجال ، وأصله من البرج ، وهو سعة العـين مع ظهور بياضها كله محدقا بالسواد ، وكأنه سمى تـكشف النساء بذلك لأنه يصحبه عادة تطلع المرأة الى من يحيط

بها لتتعرف من يهم بعد النظر اليها ، فعينها دائما واسعة التطلع

وهذا المعنى هو الحد الفارق بين من يخشى منها الفتنة ، فالمطلوب لها أن تتحجب وترخى عليها قناعها ، وتضرب بخمارها على جيبها ، وبين من لا يخشى منها الفتنة ، فلاجناح عليها أن تضع ثيابها التى لا يفضى وضعها إلى كشف العورة مع عدم التبرج بالزينة ، ومع هذا فالاستعفاف والاحتياط بالتستر خير لهن . وعلى ذلك يكون قوله : غير متبرجات بزينة ، حالا يقصد بها تقييد نفى الجناح بأن محله إذا لم يقصدن بالوضع التبرج . وحكمته أن التبرج منها قد ينبه عوامل النفس الخبيثة من غيرها ، وإن كانت لا ترجو شيئا من ذلك . ومنهم من يراه لبيان حكمة الحكم . فيكون المعنى : لاجناح عليهن فى وضع ثيابهن ، فانهن لازينة لهن يتبرجن بها . والله سميع عليم ، يعلم خائنة الأعين وماتخفى الصدور ، فهو المطلع على مقاصد النفوس وحركات الضمائر ، فيجازى كلا بما عمل .

نسأل الله تعالى أن يوفقنا لخير العمل ، وأن يجنبنا الزيغ والزلل ، إنه سميع عليم ، رءوف رحيم .

(ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم أو بيوت آبائكم أو بيوت أمهاتكم أو بيوت إخوانكم أو بيوت أخواتكم أو بيوت أعمامكم أو بيوت عماتكم أو بيوت أخوالكم أو بيوت خالاتكم أو ما ملكتم مفاتحه أو صديقكم، ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعا أو أشتاتا، فإذا دخلتم بيوتا فسلموا على أنفسكم تحية من عند الله مباركة طيبة، كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تعقلون):

رفع الحرج فى شأن مداخلة الأقارب والعاجزين لمن يتصل بهم

هذه أحوال تتصل بالمعاشرة التي بيّن من أحكامها ما بينّ فى الآى السابقة، وهى مما تختلف فيها الأنظار، وتتباين فيها الآراء، يتحرج عنها بعض الناس ويستسيغها آخرون، ويرى كل فريق فيها رأيا بحسب ما يوافق مشربه، وما يتمكن فى نفسه من خلق أو عادة، فيحسبه حكم الله الذى لا محيد عنه.

جاءت الآيات الشريفة توضح أن هذه الأحوال ليس لها فى نظر الشارع الحكيم ما يجعل أحد جانبيها محتوما لازما، بل هى تدور مع ما تستريح إليه أنفسكم، وما يوافق المألوف ومحاسن العادات بينكم.

فمنها حالات الضعفاء وذوى العاهات ممن أُصيب بعمى أو عرج أومرض . كانوا هم يتحرجون عن مؤاكلة الأصحاء ، لأن الأعمى قد يبدر منه مايتقزز منه البصير ، فقد تطيش يده على غير هدى فينفر منـه من يجالسه فى الطعام ، أو قد يتوهم هو ذلك فلا تستقر نفسه للمخالطة فى الطعام . والأعرج قد تضطره حالته الى جلسة ربمـا تضايق منها غيره ، أو حسب هو ذلك . والمريض عادة دقيق الشعور ، شديد الاحساس والمراقبة لمن معه : هل تأذى منـه أحد ؟ فـكانت الطوائف الثلاث تتحاشى أن تؤاكل من منّ الله عليـه بالسلامة . وكذلك كان الأصحاء : منهم من يتحرج عن مخالطة أولئك الطوائف فى الطعام ، مراعين فى الأعمى أنه لايرى الطعام الجيد الذى قدتشتهيه نفسه ويستحى أن يطلبه ، فقد تمتد اليـه يد غـيره دون أن يشعر برغبته . والأعرج لايتـمكن من الجلوس المريح بسهولة ، فلا يملك راحته مع غـيره . والمريض لايتأتى له أن ينال بغيته كما يتأتى للسليم ، فـكانوا تجنبا لهذه المظان يفردونهم بطعام ؛ ليأخذوا راحتهم ويملـكوا غرضهم .

وأيضا : كان من عادة الغزاة والمجاهدين فى سـبيل الله إذا خرجوا للغزو وتخلف الضعفاء من عُمى أو عُرج أو مرضى ، أباحوا لهم أن يأكلوا من بيوتهم فى حال غيبتهم ، فكان هؤلاء الضعفاء يتحرجون عن ذلك .

كل ذلك قد روى فى سبب نزول الآية ، ولا مانع من حصول

الجميع ، إذ لا تعارض بينها ، وهي عادات يصح أن تحصل عند طوائف من الناس ، فجاءت الآية لحل هذا الحرج ، وتوسيع الأمر في مخالطة الناس بعضهم بعضا ، متى حسنت النية ، وطهرت الطوية . وعلى ذلك يكون المعنى : ليس على الأعمى ومن في حكمه حرج في أن يؤاكل السليم المعافى ، فليس من شأن النفوس المهذبة أن تعنى بتتبع مثل هذه الشئون الصغيرة ، وليس أمر الطعام من العظم بحيث يحتاط فيه كل هذا الاحتياط . كيف والمؤمنون إخوة ينبغي أن يكون ديدنهم الايثار لا الأثرة ، ويجمل بهم أن ينظروا الى الطعام نظرهم الى وسيلة غير مقصودة إلا لحفظ الحياة ، فمن حقهم أن يكونوا ممن يأكل ليعيش ، لا ممن يعيش ليأكل ، فقد قال جل شأنه : « والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم » وينتظر منهم أن يطمئن بعضهم الى بعض ، ويثق بعضهم ببعض ، ويعلموا أن ما يعنى أحدهم يعنى الآخر ، ومايسره يسره ؛ وعلى هـذا البيان تجد المعنى : ليس على أولئك الطوائف حرج في أن يأكلوا مع الأصحاء ، وليس عليهم حرج في أن يأكلوا من بيوت غيرهم حيث أباحوا لهم ذلك في غيبتهم ، ولا على من يؤاكلهم حرج في أن تجمعه وإياهم مائدة واحدة . والمعنى الجامع : ليس في شأن هؤلاء حرج يتقى ، لا عليهم ولا على من يخالطهم ، فالأمر أوسع مما تتوهمون ، والحرج إنما هو فيما يمس مهمات الشئون . ومعنى الحرج في اللغة : الضيق ؛ وهو في لسان الشرع بمعنى الإثم .

أما قوله تعالى : « ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم » الخ ، فانه كذلك توسعة على الناس فيما تمس اليه الحاجة عادة بل تستدعيه الصلات الحسنة ولو بدون حاجة : وقد عدد مواضع رفع الحرج عن الأكل في الآية ، وهي أحد عشر ، تشترك كلها في استكمال أواصر القرابة أو المودة أو المعاونة . والمواضع ظاهرة المعنى ، إلا أن في الموضع الأول سؤالا ، وهو : مافائدة التنصيص على إباحة أكل المرء من بيته وهو ظاهر غني عن الايضاح والتشريع ؟ وقد قالوا في توجيهه : إن المعنى من بيوت أولادكم.وجعل بيوت أولادهم بيوتاتهم ، لأنهم أقرب الطوائف اتصالا بهم ، وقد ورد : أطيب ماياكل الرجل من كسبه وولده من كسبه .وقال صلى الله عليه وسلم : «أنت ومالك لأبيك» . ويشهد لهذا المعنى أن الآية لم يذكر فيها بيوت الأولاد مع أنهم أقرب الى الوالدين من الطوائف المذكورة .ويصح أن يكون ذكر بيوتهم لاظهار أن ماسيذكر بعده من البيوت هو بمثابة بيت المرء نفسه في هذا الحكم ، فكأنه يقال:ليس عليكم جناح أن تاكلوا من بيوت آبائكم ومن ذكر معهم ،كما ليس عليكم جناح في أن تاكلوا من بيوتكم ، وهو قريب مما قيل في قوله تعالى : « فاذا جاء أجلهم لايستأخرون ساعة ولا يستقدمون » من أن المعني لايستاخرون أصلا ، كما أنهم لا يستقدمون إذا جاء أجلهم ، فان الاستقدام وقد جاء الأجل محال فجعل مثله الاستئخار .

هذا وليعلم أن نفي الحرج في الأكل من هذه البيوت إنما هو فيما إذا علم أو ظن أن ذلك موضع رضا منهم ،كما هو الشأن الغالب ، وكما هو

المنتظر منهم أن يكونوا عليه . فاذاغلب على الظن أن بعض هؤلاء تمكن منه الشح أوالاحتياج الى درجة أن يتأذى من أكل طعامه ، لم يحلّ ذلك ، لقوله صلى الله عليه وسلم : « لا يحل مال امرىء مسلم إلا عن طيب نفس منه ». فالآية محمولة على ماهو الغالب من طيب نفس الأقارب والأصدقاء ، بل سرورهم لتناول أقاربهم طعامهم ولو بغير استئذان منهم ، بل قد يسوءهم ذلك الاستئذان . وإنك لترى من الناس من يقصد إلى تناول طعام غيره فى حال غيبته ليدخل السرور عليه ، وليعلمه أنه من الثقة به والطمأنينة اليه وخالص المودة معه بحيث يتبسط فى ملكه ، ويطلب الطعام من خادمه بدون حضوره . وكم ترى من حالات تفتتح بها المحبة بين الناس ، وتتأكد مودتهم بحالة من هذا ؟ فكم يسرك أن تدخل بيتك فيقال : حضر فلان هنا وطلب الطعام أوالقهوة بنفسه ، فيتضاعف له الشكر منك ، وتهتز لذلك ارتياحا ، وقد يقتلع بذلك كثيرا من وساوس تكاد تطفىء مصباح المودة بينكما ، بل تجد الصديق يقابل صديقه فيقول : لقد زرتك وطلبت التحية بنفسي ، يمتن عليه بهذا ؛ فيجد من الارتياح مايكون نعم الجواب . روى أن الحسن البصرى دخل بيته فوجد حلقة من أصدقائه فيه قد أخرجوا طعاما طيبا وانكبوا عليه يأكلون ، فتهلل سرورا وبشرا وقال : هكذا وجدناهم . أى أكابر الصحابة الذين أدركهم . ويحكى أن أحد الصالحين قدم الى بيته فأخبرته جاريته أن فلانا ـ وكان صديقه ـ قدم هنا فقدّمت له طعاما وأكل ، فسر لذلك وقال : إن صدقت فأنت حرة !

ليس الأمر واقفا عند حد الأكل والشرب ، ولكنه يبسط ماينبغى أن يكون عليه المؤمنون فى أخلاقهم ومعاملاتهم ، وتوادهم وتعاطفهم . وإنما ضرب الأكل مثلا لأنه أكثر ماتظهر فيه هذه الأخلاق ، بل أكثر مايجعل عنوانا الصفاء النفوس وكمال الصلة ، ثم هو من الحاجيات التى تتكرر كل يوم لكل إنسان .

وأما قوله تعالى : « أوما ملكتم مفاتحه » فذلك فى شأن وكيل الرجل فى ضيعته القيم على إدارتها ، أو رعى ماشيته أو نحو ذلك : لاحرج عليه أن يتناول من ثمرها ، أو يشرب من لبنها مااعتيد مثله ، لا أن ينقل أو يدخر . وذلك أن النفوس عادة تطيب بمثله . فاذا علم أن صاحبها لاتطيب نفسه بذلك وجب أن يمتنع ، على مامر من قوله عليه السلام : « لايحل مال امرىء مسلم إلا عن طيب نفس منه » .

والمفاتح : جمع مفتح . وجمع المفتاح مفاتيح . ولما كان محل هذا الحكم هو الأكل بغير إذن ، لأن الأكل بإذن لايخص هذه الطوائف ، كان ذلك دليلا على جواز الدخول فى هذه البيوت بغير إذن ، مع مراعاة أحكام الآية السابقة فى الدخول وأوقاته . ولذلك كانت تلك البيوت لاتعتبر حرزا فى السرقة ، فاستنبط من الآية بعض الفقهاء عدم الحد فى السرقة منها ، وسقوط الحد يكفى فيه الشبهة ، وإلا فالحرمة متحققة ، ووجوب الرد كذلك .

أما قوله تعالى : « ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعا أو أشتاتا »

فانه كذلك إباحة للكيفيات المتعددة التى تختلف الأنظار فى تفضيل بعضها على بعض : فقد كان أناس يتحرجون عن أكل طعامهم وحدهم ، وينتظرون أن يحضرهم من يشاركهم فيه من ضيف أو ابن سبيل يؤاكله ، وقد يمكث أحدهم يومه ينتظر ورود من يشاركه فى طعامه ، وكان هذا من العادات الموروثة عند العرب يُمدح بها، ويوصى على التزامها ، قال شاعرهم :

إذا ما صنعت الزاد فالتمسى له أكيلا فانى لست آكله وحدى

وقد جاء فى الحديث الشريف« شر الناس من أكل وحده ، ومنع رفده ، وضرب عبده » ومعنى الرفد : العطاء . والحديث ذم لمن اعتاد ذلك والتزمه بخلاً أن يشاركه أحد فى طعامه . ونفى الجناح فى الآية محمول على الحصول اتفاقا بلا تعمد اختفاء عن المشاركين .

وكان أناس يعمدون الى اكل كل منهم بانفراده ، حتى لا يحصل من أحدهم ما يتقزز به غيره ، أو لا تمتد يده الى ما اتجه اليه بصر غيره . وكان أناس إذا نزل بهم ضيف رأوا ألا يأكلوا إلا معه : وقد يكون لأحدهم مصالح تدعوه لتعجيل أو تأخير، فربما أوقعه ذلك فى الحرج. فنزلت الآية الكريمة لنفى الجناح فى ذلك ، وأباحت كل كيفية ليس فيها إضرار بأحد أو منع رفد. وهذا لنفى الجناح فى الكيفية التى بها يتناول الطعام، كما أن أول الآية لإباحة أصل التناول من طعام الغير . ولعلك تجد فى التعبير بنفى الحرج فى الأول وهو بمعنى الضيق حيث كان المتوهم التضييق على المكلف فى تناول طعام غيره. وفى نفى الجناح فى الثانى وهو فى الأصل بمعنى الميل

حيث كان المقام مقام تردد بين كيفيات كلٌ يميل الى كيفية ، لعلك تجد فى هذا التعبير من الجمال والدقة ماهو جدير بالاعتبار .

أما قوله تعالى : « فاذا دخلتم بيوتاً فسلموا على أنفسكم تحية من عند الله مباركة طيبة » فهو بيان للأدب الذى ينبغى أن يراعى فى حال دخول تلك البيوت التى أذن الله بدخولها ، وكأن الآية تشير إلى أن هذا الأذن ليس معناه الاقتحام مع إغفال الآداب وحقوق المؤانسة ، بل ينبغى أن تبدءوا دخولكم بالسلام على أهل تلك البيوت ؛ فهم منكم وأنتم منهم ؛ فما أحقكم بتبادل التحايا بعضكم مع بعض ، فسلموا عليهم فهم فى المودة ولحمة القرابة بمنزلة أنفسكم ، فكأنكم تسلمون على أنفسكم .

وكأن فى هذا إشارة الى السر فى إباحة تناول الطعام من هذه البيوت ، أى فان من فيها بمثابة أنفسكم ، فكأن الواحد منكم قد أكل فى بيته . وقد قيل فى توجيه قوله : « فسلموا على أنفسكم » : إنه لما كان المسلَّم عليه يرد التحية بمثلها أو أحسن منها ؛ فكأن المسلم سلم على نفسه باستجابة السلام عليها .

وقوله : « تحية من عند الله » أصل التحية مأخوذة من قولهم : حياك الله ، فكأنها طلب الحياة ، أو طلب صفوها وسعادتها وكمالها ، مما يجعل الحياة حياة صحيحة ، وتعورف فى كل تحية بأى لفظ وأى دعاء ولو كانت بغير لفظ الحياة . ومعنى أنها من عند الله : أنها تحية عظيمة بعظم من طلبت منه ، أو تحية مشروعة من عند الله ثابتة بأمره وإرشاده . والمباركة أى المحتوية

على زيادة الخير للمحيا والثواب للمحي ، وطيبة أى تطيب بها نفس من تحيونه بها ويستريح اليها .

« كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تعقلون » أى على هذا النحو جرت عادة الحق جل جلاله فيما يبين لكم من آيات تملأ حكمتها قلوبكم ، وتشمل رحمتها حياتكم ، وإذا تأملتم فيها وعقلتم ما احتوت من منافع وهدى ، رأيتموها من أجلّ نعم الله عليكم ؛ ومما يستوجب عظيم شكركم ، فهو يجلوها على هذا الوجه البين لعلكم تعقلونها ، فيزداد تمسككم بها ، وشكركم لله من أجلها .

من الايمان ملازمة الجماعة في الأمر العظيم

(إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه ، إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله فاذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم واستغفر لهم الله إن الله غفور رحيم . لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا ، قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا ، فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم . ألا إن لله ما في السموات والأرض قد يعلم ما أنتم عليه ويوم يرجعون إليه فينبئهم بما عملوا والله بكل شيء عليم) :

ماأحسن مايختم به تلك الأحكام البالغة ، والارشادات النافعة ، والبيانات المفصلة ، فيما يتعلق بمخالطة الناس بعضهم بعضا ، فيختمها ببيان حال المؤمنين بالنسبة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومايجب أن يكونوا عليه من الاستسلام وتمام الانقياد، وأن يتماسكوا فى الارتباط به ، وألا يرغبوا بشئونهم عن مجالسته، وأن يروا السعادة لهم كل السعادة فى أن يستوفوا أكثر ما يمكنهم أن يستوفوه من رحمات الله تساق اليهم عن طريقه ، فلا ينصرفوا عنها ، ولا يزهدوا فيها ، ولا يقدموا عليها غيرها . ولقد نوه بشأن هذه المحافظة على الاستفادة من مجالسه وعدم التفريط فيها حتى جعلها من مقتضيات الايمان، بل جعلها فى المرتبة الثالثة بعد الايمان بالله ورسوله ، فقال جل من قائل: « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه » .

وقد قيل فى سبب نزولها : إن قوما من المنافقين كانوا ينصرفون عن النبى صلى الله عليه وسلم أثناء الخطبة ، لما كانوا يحسونه من الأذى والألم إذ يشرح حال المنافقين ، وهم يعلمون من قرارة أنفسهم النفاق ، فلا يطيقون سماع مايعلمون أنه منطبق عليهم ، فينسللون . وقيل : بل نزلت فى تسللهم يوم الخندق إذ كان صلى الله عليه وسلم هو والمؤمنون مهتمين كل الاهتمام فى حفره والاستعداد لمقابلة الأحزاب ومقاتلتهم ، وناهيك بلقيا العرب وقد تجمعوا من كل صوب يقصدون غزو المدينة، حتى إنه عليه الصلاة والسلام كان يعمل بنفسه فى ذلك ، تشجيعا للمسلمين ،

وتقوية لعزائمهم ، وحفزا لهممهم ، فالانصراف فى مثل هذه الحال من أشد الجرائم . والأمر الجامع عام فى كل أمر مهم : دينى أو دنيوى ؛ فيشمل الاجتماع للجمعة والعيدين ، والتشاور فى الحروب والاجتماع لها ، والاستعداد لدفع الطوارىء ، وما يماثل ذلك من مهمات الأمور . ومعنى كون الأمر جامعا أنه مدعاة للاجتماع للتعاون أو التشاور . فالانصراف فى هذه الحالة جناية من المرء على نفسه ، لحرمانها من المشاركة فى عظائم الأمور ، وجناية على المجتمعين ، لأنه يفت فى عضدهم إذا كان الأمر مما يدعو الى التساند فيما بينهم ، وإيذاء لهم فى شعورهم بوجوب تعظيم الشعائر الدينية واحترامها إذا كان الأمر دينيا محضا كالجمعة وخطبتها ؛ وإيذاء للرسول صلى الله عليه وسلم ، لأنه كان شديد الحرص على هداهم وسعادتهم ، وإعلاء كلمة الله ، وتوحيد صفوف الأمة ، وجمع الكلمة ، وتعظيم شعائر الدين . وكل ما فيه إخلال بشيء من هذا كان فيه إيذاء له وإيلام . فلا جرم جعل الايمان منوطا بالاستمساك بحبل جماعة المسلمين ، ومنع الانصراف إلا بإذن منه عليه الصلاة والسلام ، وذلك قوله تعالى : « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه » فقد حصر المؤمنين حقا فيمن جمع هذه الصفات الثلاث : أن يؤمن بالله ، وأن يؤمن برسوله ، وأن يلتزم مجتمعه إذا كان فى أمر مهم ، فلا يذهب حتى يستأذنه . ويكون مَن أخلّ بواحدة منها لا يستحق أن يكون فى زمرة المؤمنين . وكفى

بهذا فى بيان آداب المؤمنين وما يجب أن يكونوا عليه معه صلى الله عليه وسلم

وقوله : « حتى يستأذنوه » أى ويأذن لهم إذا شاء ، على ما سيأتى فى الآية التالية فى قوله : « فأذن لمن شئت منهم »، فاذا استأذنوه ولم يأذن لم يكن لهم أن يذهبوا ، فليس الخروج عن العهدة بمجرد طلب الأذن ولو لم يصدر لهم الأذن ، وإلا لم يكن للاستئذان معنى . ولوضوح ذلك لم ينص عليه . ألا ترى أنه يعد من السخف فى الفهم أن ينصرف مرءوس عن عمله لمجرد أنه طلب الاذن من رئيسه ولو كتابة قبل أن يصدر له رئيسه الاذن المطلوب ؟ وإذا احتج بقوله قد استاذنت قيل له : فهل أذن لك ؟

ولقد أعاد جل وعلا هذا الحكم بأسلوب آخر ، فجعل المستأذنين هم الذين يستحقون الوصف بأنهم مؤمنون دون سواهم ، فقال عز من قائل : « إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله » أى فالذين يذهبون ولا يستأذنون ليسوا من الايمان فى شىء ، ولا يستحقون أن يحشروا فى زمرة المؤمنين . وكان فى إعادة ذكرهم بقوله « أولئك » إشارة الى أنهم استحقوا وصف الايمان بهذه الصفة التى ذكروا بها وهى الاستئذان ، فقد قال علماء البلاغة : إن التعبير عن المخبر عنه باسم الاشارة بعد وصفه بصفات، يدل على أنه استحق الخبر المذكور من أجل تلك الصفات . ونظيره قوله تعالى . « أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » بعد وصفهم بالايمان بالغيب ، وإقامة الصلاة ،

والانفاق مما رزقهم الله ، الى آخر تلك الصفات المذكورة فى أول سورة البقرة .

ولا يذهب عنك أن مثل هذا الحكم وربط الايمان ببعض الأعمال لا يراد به أن كل من خالف هذا العمل كان كافرا ، بل ذلك من المبالغة فى التنويه بالحكم ، والحث على رعايته ، وشدة الاستمساك به ، وله نظائر كثيرة فى الكتاب والسنة . ويصح فى هذه الآية الكريمة أن يحمل ذلك على نفى الايمان عن أولئك المنافقين الذين كانوا يتسللون من حضرته صلى الله عليه وسلم ، فتكون الآية لبيان علامة بها يعلم المنافقون الذين يندسون فى وسط المؤمنين ، ويتظاهرون بأنهم آمنوا وهم فى الحقيقة كاذبون .

وقوله تعالى : « فاذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم واستغفر لهم الله إن الله غفور رحيم » يفيد جملة أمور : (أولا) أن الاستئذان لا ينبغى أن يكون لكل شأن طرأ ، بل ينبغى قصره على بعض الشئون ، وذلك بالضرورة هو المهم منها . و(ثانيا) أن الاذن وعدم الاذن موكول الى مشيئته صلى الله عليه وسلم . ومعلوم أن مشيئته عليه الصلاة والسلام مشيئة عن رأى وروية ، وتقدير مصلحة ، وتمييز ما يستحق الاذن وما لا يستحقه ، وليست مشيئة الهوى والتشهى . ومن هذا يؤخذ أن بعض الأحكام يصح أن يسند لما يراه عليه السلام من المصلحة ، فلا يقيد بحكم بعينه . ولعل مثله عليه السلام فى ذلك من يوكل إليه أمر جماعة المسلمين ، فيناط الحكم بما يراه من المصلحة التى

تتغير وتختلف باختلاف الأشخاص والأحوال والملابسات . و (ثالثا) أن الأولى والأحق بالمؤمنين أن يتحاشوا عن الانصراف ولو باذن ولو فى الشئون الشخصية المهمة ، فالمصلحة العامة المؤمنين والأمر الجامع أحق بأن يتفرغ له ، وأن يقدم على الشئون الخاصة .

تفهم هذا من قوله تعالى : «واستغفر لهم الله» فانها تفيد أن هذا الاستئذان من حقه أن يستغفر منه مهما كان داعيه وفى ذلك حث عظيم على الاستمساك بما يدعو اليه صلى الله عليه وسلم من الاجتماع ، وتقديم المصالح العامة على المصالح الخاصة : وما أحق المسلمين بأن يتفهموا هـذا ويفقهوه على وجهه ، ويروضوا أنفسهم على العناية بأمور الجماعة بدل أن يقصر كل امرىء همه على مصلحة نفسه !

وقوله تعالى : «إن الله غفور رحيم» فيه طمأنة للمسلمين وتخفيف الحرج عن نفوسهم ، لـكى لا يقعوا فى العنت ويضيقوا على أنفسهم ، فيهملوا مصالحهم الخاصة إهمالا كبيرا . فهى كتخفيف للشدة التى قد تفهم من قوله عزوجل : «واستغفر لهم الله» . ومعناها أن الله كثير المغفرة واسع الرحمة ، فلا يكلفكم من أمركم رهقا . وكون الاستغفار صادرا من النبى صلى الله عليه وسلم مما يقوى هذه الطمأنينة ، فترى فى قوله واستغفر لهم الله أمرين : (الأول) تصوير هذا الموضع بأنه مما يستغفر منه ، ليحقهم ألا يغرقوا فيه كثيرا . و(الثانى) أنهم إذا راعوا ذلك فان المغفرة مضمونة لهم ، فالمستغفر هو النبى صلى الله عليه وسلم ، والاستغفار منه بأمر الله ، وفى ذلك مع إردافه بقوله : والله غفور رحيم أعظم طمأنينة

واعلم أن مثل النبى صلى الله عليه وسلم فى هذا الحكم كل من له ولاية عامة على جماعة من المسلمين فى أمر دينى أو دنيوى بحيث يجب عليهم طاعته فى ذلك ، فانهم إذا كانوا على أمر جامع فليس لأحد منهم أن ينصرف عنه حتى يستأذنه ويأذن له ، ولو كان ذلك المستأذن يشعر بأنه ليس له عمل فى الحال ،فقد يكون ذلك المنوط به تدبير الأمر الجامع قد رتب فى نفسه عملا لهذا المريد للانصراف ، أو يطرأ عليه من الشئون مايحتاج معه اليه ، فللأعمال العامة طوارىء ليست فى الحسبان عادة . ومثل الأعمال العامة لجماعة المسلمين الأعمال التى يشترك فيها فئة من الناس بطريق التعاون والتساند ، فانها تأخذ هذا الحكم بحسب مالها من المقام الذى يوجبها أو يؤكدها . فقاعدة (وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه) قاعدة يجب أن تراعى عند كل القائمين بالأعمال المشتركة التى يناط أمر تدبيرها بواحد يرأس أولئك القائمين بها .

« لاتجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا » :

زيادة فى الحث على التزام الطاعة وملازمة الجماعة التى اجتمعت لأمر جامع ، وتنبيه على خطر الموقف ، وأنه ليس كبقية المواقف ،فليس دعاء الرسول إياهم أن يجتمعوا ليتشاوروا أو ليتعاونوا أو ليقوموا بأى غرض مهم من أغراض الدنيا أو الدين ــ وغرض الدنيا المراد به المصالح العامة ، فهى راجعة أيضا إلى الدين ، والمراد بغرض الدين المقابل العبادة الصرفة ــ تقول : ليس دعاء الرسول إياهم لذلك كدعاء بعضهم

بعضا فى الشئون التافهة المبنية على التسامح من الجانبين، فلا يبالى الداعى أجيب أم لم يجب، ولا على المدعو فى أن يجيب أولم يجب، بل هذا أمر خطير يتعلق بمصلحة لها الأثر العظيم. وذلك هو الشأن فيما يدعو اليه صلى الله عليه وسلم، وكذلك ماأشبهه وأخذ حكمه من دعاء إمام المسلمين أومن ينوب عنه فى تدبير أمر من أمور الأمة، فقد أوجب الله طاعته كذلك، فالمراد بدعاء بعضكم بعضا فيما لاولاية فيه لأحد على أحد من قبل الحق جل وعلا، فمتى ثبتت الولاية الموجبة للطاعة جاء معها هذا الحكم. والله أعلم.

«قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذاً» :

هذا وعيد لمن تحدثه نفسه بالانصراف خفية وخلسة، فسدّ فى وجوههم طريق التفكير فى هذا، وبيّن لهم أن من تحدثه نفسه بأنه يستطيع الانصراف خفية هل يظن أن يستخفى على الله وهو الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور؟ وأنه هو الذى أمر وأوجب، فمن حاد عن أمره فانما عصاه هو، وليس العصيان واقفا عند حد المخلوق الذى حسب أن يختلس نفسه منه

والتسلل: الخروج من البين على التدريج والخفية. واللواذ: مصدر لاوذ، مأخوذ من لاذبه يلوذ أى التجأ اليه، كأنهم كانوا فى تسللهم يلوذ أحدهم بالآخر يتستر هذا بذاك وذاك بهذا: أو يخرج واحد كالمعتذر والثانى كالتابع له. وهذه الطرق تشاهدها فى الكثير من الناس إذا انصرفوا عن مجتمعين، فان كل منصرف يشعر بأنه مقترف نحو المجتمعين ذنبا

بخروجه ، فيترقب أن يوجد من يلوذ به حتى ينسل معه ، وربما اتفق اثنان أو أكثر على أن يبدأ واحد منهم ويتبعه غيره ؛ فيشد كل منهم أزر صاحبه في مقارفة ذلك الذى ينكره عليهم المجتمعون . فكلمة لواذا تحدد بالضبط هذا الشعور ، وهو أن كلا منهم يلوذ بصاحبه ، حتى إن المتقدم كأنه يتستر بمن يليه ويشاركه فيما اقترف ، كما أن المتأخر تابع لمن سبقه ومقتد به ، فيرى ألا حرج عليه ، وقد يكون أحدهما لاذ بالآخر دون أن يلوذ الآخر به ، فقد روى أنه كان بعض المسلمين يستأذن النبى صلى الله عليه وسلم لعذر لحقه كرعاف أو غيره ، فيشير إلى النبى صلى الله عليه وسلم بأصبعه التى تلى الابهام ، فيأذن له النبى صلى الله عليه وسلم بالخروج فيخرج معه الرجل من المنافقين لائذاً به ، إما بتستره به ، أو بالتظاهر بأنه من أتباعه .

« فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم » :

زيادة فى تعظيم الأمر وتهويل الخطب ، وأنه ليس من الهنات الهينات ، بل يخشى منه ما ليس لكم على بال ، فرب أمر استصغرته وإذا به يجر الوبال والمصاب الكبير . وما أحق هذا الموضوع بأن يكون من هذا القبيل ! ولنضرب لذلك مثلا : هب أن الأمر الجامع كان غزوا ورابط له جيش كبير ، فتحدث بعض الجند نفسه بأنه فى هذا الجمع كقطرة فى بحر ، فينصرف بلا إذن ، فيتسلل معه آخر يلوذ به ، وقد يكون الخاطر بعينه خطر لغيرهما ، فيشجعه عملهما على أن يقتدى بهما ،

فتوجد ثغرة فى الصفوف يكون منها النكبة على الجميع . وليس الأمر مقصورا على الحروب ، بل تجد المصالح المشتركة يرتبط بعضها ببعض ، ويتوقف كبيرها على صغيرها ، ويعطل تافهها خطيرها . فالمخالفة مهما استسهلها صاحبها فى الأمور العامة قد تجر الى الضرر العظيم ، فكان المقام حقيقا بأن يأمر الذين يعتادون المخالفة أن يرقبوا مايصيبهم من الفتنة فى الدنيا والعذاب الأليم فى الآخرة . والفتنة تتنوع بحسب الأمر المجتمع عليه ، فقد تكون القتل ، وقد تكون التعذيب ، وقد تكون الذلة والاهانة ، وقد تكون تضييق الرزق وأمثال ذلك ، مما يتعرض له المرء بالمخالفة . والعذاب الأليم فسر بعذاب الآخرة ، وكلمة (أو) لاتمنع اجتماعهما. هذا وفى الاتيان بلفظ (عن) فى قوله « يخالفون عن أمره » تضمين يخالفون معنى يصدون ويعرضون ، وهى فى تفظيع المخالفة أبلغ من قولك : يخالف أمره ، لما تشعر به كلمة (عن) من الابتعاد والاعراض .

قال الله تعالى : « ألا إن لله مافى السموات والأرض قد يعلم ماأنتم عليه ويوم يرجعون اليه فينبئهم بماعملوا والله بكل شىء عليم » :

هذا أحسن مايختم به هذه الأوامر والتكاليف ، فيبين فى ختامها أنها صادرة من مالك الأمر كله ، المتصرف فى ملكوت السموات والأرض ، الشاملة قدرته لجميع الموجودات إيجادا وإعداما ، بدءا وإعادة ، إحياء وإماتة ، إثابة ومعاقبة ، فهى بأسرها فى قبضة يمينه خلقا وتصرفا وملكا ، فله الأمر وله الملك ، وهو على كل شىء قدير . فمن ذا الذى

يستطيع أن يتعرض لعقوبته بمخالفة أمره ، ومن ذا الذى يخرج عن قبضته وهو مالك بناصيته ؟ هـذا قوله : «ألا إن لله مافى السموات والأرض» أى فأنتم مندمجون فى ملكه ،مشمولون بسلطانه . وأما قوله: «قد يعلم ما أنتم عليه » الخ ، فهو تهديد من ناحية أخرى وهى ناحية العلم، فهو يقول: إنكم مع شمول القدرة لكم من جميع نواحيكم فانه لاتخفى عليه منكم خافية ، فهو يعلم ماأنتم عليه ، يعلم سركم ونجواكم ، يعلم ماتبدون وما تكتمون ، يعلم ماتعملون وما تفكرون ، فيجازى كل عامل بما عمل ، يوم يرجعون اليه فينبئهم بماعملوا ، حتى تقوم عليهم الحجة ، ويعترفوا بذنبهم ، ويعلموا أنه قد أحصى عليهم كل صغيرة وكبيرة ، والله بكل شىء عليم . وفى الاتيان بلفظ الجلاله مُظهرا معنى تربية الروعة والمهابة ، ليحمل السامع على تمام الامتثال والخضوع لأحكامه ، استعدادا لثوابه ، وحذرا من عقابه ، وحياء من جنابه .

ولقد نرى فى ختم الآية بل فى ختم السورة المحتوية على هذه التعاليم العظيمة والارشادات الحكيمة بقوله عز من قائل : « والله بكل شىء عليم» إقامة للحجة وتنويرا للمحجة ،وتقريرا للبرهان بشهادة صدورها ممن هو بكل شىء عليم ، فهو يضع أحكامه بقسطاس مستقيم،وعلى منهج حكيم ،ينفع من تلقاه بقلب سليم

نسأله تعالى أن يجعل طاعتـه شعارنا ، والزلفى اليه طريقنا ، وأن يهدينا بهديه ،وأن يرزقنا رضاه ورحمته ، إنه سميع الدعاء ، مجيب النداء ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

استدراك

جاء خطأً في السطر الخامس من صفحة عشرين هذه العبارة :

أن حدالزنا للمحصن هو الجلد

والصواب :

أن حد الزنا لغير المحصن هو الجلد

تم الكتاب بحمد الله تعالى

مع تحيات الدكتور عمر يوسف حماد